تاريخ الأنبياء

للعلامة الكبير

السيد محمد حسين الطباطبائي

صاحب تفسير الميزان

إعداد

الشيخ هاشم الهاشمي

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

تاريخ الأنبياء

تاريخ الأنبياء

قصص

للعلامة الكبير
السيد محمد حسين الطباطبائي
صاحب تفسير الميزان

جمع وتحقيق
الشيخ قاسم الهاشمي

جمعداری ام
مرکز تحقیقات کامپیوتری علو
ش-اموال: ۲۰۸۷

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب: ٧١٤٠

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة للناشر

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel – Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

بيروت – شارع المطار – قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور - ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦- فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلقه وأشرف بريته أبي القاسم محمّد وعلى آله الطاهرين.

تعرّض العلاّمة في هذا المجلد إلى قصص وأحوال الأنبياء عليهم السلام فأورد لكل نبي قصته عند مروره بآية فيها ذكر ذلك النبي فتعددت القصص في مجلدات الميزان فجمعناها في كتاب واحد تحت عنوان (**تاريخ الأنبياء في القرآن الكريم**) وراعينا في ذلك التسلسل الزماني والتاريخي للأنبياء كافة.

ولم يكن غرض العلاّمة سرد القصة بل توخّىٰ من ذلك عدة جوانب:

الجانب الأول: البعد العبادي في القصة.

الجانب الثاني: البعد المعنوي في القصة.

الجانب الثالث: ذكر القصة من القرآن.

الجانب الرابع: ذكر القصة من التوراة والإنجيل والمقارنة معهما.

الجانب الخامس: بيان الهدف والعبرة في كل القصص.

وكان قد انطلق في منهجه القصصي من هذه الجوانب الخمسة وكانت محور حديثه فتراه تارةً يُسهب في الحديث وأُخرى يختصر حسب هذه الأبعاد في كل نبي المنعقدة له القصة.

فجاء هذا الكتاب حاوياً لأخبار الأنبياء وأممهم وجامعاً لدررهم وشارحاً لمواقفهم المباركة، ويُعتبر هذا الكتاب القصصي فريداً من نوعه وجميلاً في فنه وعظيماً في بابه.

قصص
آدم وحواء في القرآن الكريم

الفصل الأول:
قصة آدم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

الآيات تنبيء عن غرض إنزال الإنسان إلى الدنيا وحقيقة جعل الخلافة في الأرض وما هو آثارها وخواصها، وهي على خلاف سائر قصصه لم يقع في القرآن إلاّ في محل واحد وهو هذا المحل.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، إلى قوله: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. مشعر بأنهم إنما فهموا وقوع الإفساد وسفك الدماء من قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، حيث أن الموجود الأرضي بما أنه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار التزاحم، محدودة الجهات، وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال،

وانتظاماتها وإصلاحاتها في مظنة الفساد ومصب البطلان، لا تتمّ الحياة فيها إلاّ بالحياة النوعية، ولا يكمل البقاء فيها إلاّ بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء، ففهموا من هناك أن الخلافة المرادة لا تقع في الأرض إلاّ بكثرة من الأفراد ونظام اجتماعي بينهم يفضي بالآخرة إلى الفساد والسفك، والخلافة وهي قيام شيء مقام آخر لا تتم إلاّ بكون الخليفة حاكياً للمستخلف في جميع شؤونه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلف، والله سبحانه في وجوده مسمى بالأسماء الحسنىٰ متصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، منزه في نفسه عن النقص ومقدس في فعله عن الشر والفساد جلّت عظمته، والخليفة الأرضي بما هو كذلك لا يليق بالاستخلاف ولا يحكي بوجوده المشوب بكل نقص وشين الوجود الإلٰهي المقدس المنزه عن جميع النقائص وكل الأعدام، فأين التراب ورب الأرباب وهذا الكلام من الملائكة في مقام تعرف ما جهلوه واستيضاح ما أشكل عليهم من أمر هذا الخليفة، وليس من الاعتراض والخصومة في شيء، والدليل على ذلك قولهم فيما حكاه الله تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، حيث صدر الجملة بإن التعليلية المشعرة بتسلم مدخولها فافهم؛ فملخص قولهم يعود إلى أن جعل الخلافة إنّما هو لأجل أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والأرضية لا تدعه يفعل ذلك بل تجره إلى الفساد والشر، والغاية من هذا الجعل وهي التسبيح والتقديس بالمعنى الذي مرّ من الحكاية حاصلة بتسبيحنا بحمدك وتقديسنا لك، فنحن خلفاؤك أو فاجعلنا خلفاء لك، فما فائدة جعل هذه الخلافة الأرضية لك؟ فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

وهذا السياق: يشعر أولاً: بأنّ الخلافة المذكورة إنما كانت خلافة الله تعالى، لا خلافة نوع من الموجود الأرضي كانوا في الأرض قبل الإنسان وانقرضوا ثم أراد الله تعالىٰ أن يخلفهم بالإنسان كما احتمله بعض المفسرين، وذلك لأن الجواب الذي أجاب سبحانه به عنهم وهم تعليم آدم الأسماء لا يناسب ذلك، وعلى هذا فالخلافة غير مقصورة على شخص آدمعليه السلام بل بنوه يشاركونه فيها من غير اختصاص، ويكون معنىٰ تعليم

الأسماء إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجاً دائماً ولو اهتدى إلى السبيل أمكنه أن يخرجه من القوة إلى الفعل، ويؤيد عموم الخلافة قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾[3].

وثانياً: إنه سبحانه لم ينف عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء، ولا كذَّب الملائكة في دعواهم التسبيح والتقديس، وقررهم على ما ادعوا، بل إنما أبدى شيئاً آخر وهو أن هناك أمراً لا تقدر الملائكة على حمله ولا تتحمله، ويتحمله هذا الخليفة الأرضي فإنه يحكي عن الله سبحانه أمراً ويتحمل منه سراً ليس في وسع الملائكة، ولا محالة يتدارك بذلك أمر الفساد وسفك الدماء، وقد بدّل سبحانه قوله: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثانياً بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والمراد بهذا الغيب هو الأسماء لا علم آدم بها فإن الملائكة ما كانت تعلم أن هناك أسماء لا يعلمونها، لا أنهم كانوا يعلمون وجود أسماء كذلك ويجهلون من آدم أنه يعلمها، وإلاّ لما كان لسؤاله تعالىٰ إيّاهم عن الأسماء وجه وهو ظاهر، بل كان حق المقام أن يقتصر بقوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾، حتى يتبيّن لهم أن آدم يعلمها لا أن يسأل الملائكة عن ذلك، فإن هذا السياق يعطي أنهم ادعوا الخلافة وأذعنوا بانتفائها عن آدم وكان اللازم أن يعلم الخليفة بالأسماء فسألهم عن الأسماء فجهلوها وعلمها آدم، فثبت بذلك لياقته لها وانتفاؤها عنهم، وقد ذيّل سبحانه السؤال بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وهو مشعر بأنهم كانوا ادعوا شيئاً كان لازمه العلم بالأسماء.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾، مشعر بأن هذه الأسماء أو أن مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء، محجوبين تحت حجاب الغيب وأن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلاّ كانت الملائكة بإنباء آدم إياهم بها عالمين وصائرين مثل آدم

---

(١) الأعراف: ٦٩.
(٢) يونس: ١٤.
(٣) النمل: ٦٢.

مساوين معه، ولم يكن في ذلك إكرام لآدم ولا كرامة حيث علمه الله سبحانه أسماء ولم يعلمهم، ولو علمهم إيّاها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، ولم يكن في ذلك ما يقنعهم أو يبطل حجتهم، وأي حجة تتم في أن يعلم الله تعالىٰ رجلاً علم اللغة ثم يباهي به ويتم الحجة على ملائكة مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون بأن هذا خليفتي وقابل لكرامتي دونكم؟ ويقول تعالىٰ أنبئوني باللغات التي سوف يضعها الآدميون بينهم للإفهام والتفهيم إن كنتم صادقين في دعواكم أو مسألتكم خلافتي، على أن كمال اللغة هو المعرفة بمقاصد القلوب والملائكة لا تحتاج فيها إلى التكلم، وإنما تتلقى المقاصد في غير واسطة، فلهم كمال فوق كمال التكلم، وبالجملة فما حصل للملائكة من العلم بواسطة إنباء آدم لهم بالأسماء هو غير ما حصل لآدم من حقيقة العلم بالأسماء بتعليم الله تعالىٰ فأحد الأمرين كان ممكناً في حق الملائكة وفي مقدرتهم دون الآخر، وآدم إنما استحق الخلافة الإلٰهية بالعلم بالأسماء دون إنبائها إذ الملائكة إنما قالوا في مقام الجواب: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، فنفوا العلم.

فقد ظهر ممّا مرّ أن العلم بأسماء هؤلاء المسميات يجب أن يكون بحيث يكشف عن حقائقهم وأعيان وجوداتهم، دون مجرد ما يتكلفه الوضع اللغوي من إعطاء المفهوم فهؤلاء المسميات المعلومة حقائق خارجية، ووجودات عينية وهي مع ذلك مستورة تحت ستر الغيب غيب السمٰوات والأرض، والعلم بها على ما هي عليها كان أولاً ميسوراً ممكناً لموجود أرضي لا ملك سماوي، وثانياً: دخيلاً في الخلافة الإلٰهية.

والأسماء في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، جمع محلى باللام وهو يفيد العموم على ما صرحوا به، مضافاً إلى أنه مؤكد بقوله: كلها، فالمراد بها كل اسم يقع لمسمى ولا تقييد ولا عهد، ثم قوله: عرضهم، دال على كون كل اسم أي مسماه ذا حياة وعلم وهو مع ذلك تحت حجاب الغيب، غيب السماوات والأرض. وإضافة الغيب إلى السماوات والأرض وإن أمكن أن يكون في بعض الموارد إضافة من، فيفيد التبعيض لكن المورد وهو مقام إظهار تمام قدرته تعالىٰ وإحاطته وعجز الملائكة ونقصهم يوجب كون إضافة الغيب إلى السماوات والأرض إضافة

اللام، فيفيد أن الأسماء أمور غائبة عن العالم السماوي والأرضي، خارج محيط الكون، وإذا تأمّلت هذه الجهات أعني عموم الأسماء وكون مسمياتها أولي حياة وعلم وكونها غيب السماوات والأرض قضيت بانطباقها بالضرورة على ما أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[1]، حيث أخبر سبحانه بأنه كل ما يقع عليه اسم شيء فله عنده تعالىٰ خزائن مخزونة باقية عنده غير نافدة، ولا مقدّرة بقدر، ولا محدودة بحد، وأن القدر والحد في مرتبة الإنزال والخلق، وأن الكثرة التي في هذه الخزائن ليست من جنس الكثرة العددية الملازمة للتقدير والتحديد بل تعدد المراتب والدرجات.

فتحصّل أن هؤلاء الذين عرضهم الله تعالىٰ على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالىٰ، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم في العالم بخيرها وبركتها واشتق كل ما في السمٰوات والأرض من نورها وبهائها، وأنهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الأشخاص، وإنّما يدور الأمر هناك مدار المراتب والدرجات ونزول الاسم من عند هؤلاء إنما هو بهذا القسم من النزول.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، وكأن هذين القسمين من الغيب النسبي الذي هو بعض السماوات والأرض، ولذلك قوبل به قوله: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ليشمل قسمي الغيب أعني الخارج عن العالم الأرضي والسماوي وغير الخارج عنه.

وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، تقييد الكتمان بقوله: كنتم، مشعر بأن هناك أمراً مكتوماً في خصوص آدم وجعل خلافته، ويمكن أن يستظهر ذلك من قوله تعالىٰ في الآية التالية: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فيظهر أن إبليس كان كافراً قبل ذلك الحين، وأن إباءه عن السجدة كان مرتبطاً بذلك فقد كان أضمره هذا.

---

(١) الحجر: ٢١.

ويظهر بذلك أن سجدة الملائكة وإباء إبليس عنها كانت واقعة بين قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وبين قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، ويظهر السر أيضاً في تبديل قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثانياً بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفصل الثاني:

آدم في روايات أهل البيت عليهم السلام

في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام، قال: ما علم الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء.

أقول: يمكن أن يشير بها إلى دورة في الأرض سابقة على دورة بني آدم هذه كما وردت فيه الأخبار، ولا ينافي ذلك ما مرّ أن الملائكة فهمت ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، بل لا يتم الخبر بدون ذلك، وإلاّ كان هذا القول قياساً من الملائكة مذموماً كقياس إبليس.

وفي تفسير العياشي أيضاً عنه عليه السلام قال زرارة: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: أي شيء عندك من أحاديث الشيعة؟ فقلت: إن عندي منها شيئاً كثيراً فقد هممت أن أوقد لها ناراً فأحرقها فقال عليه السلام: وارها تنس ما أنكرت منها فخطر على بالي الآدميون، فقال: ما كان علم الملائكة حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟، قال: وكان يقول أبو عبد الله عليه السلام إذا حدث بهذا الحديث: هو كسرٌ على القدرية، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إن آدم عليه السلام كان له في السماء خليل من الملائكة، فلما هبط آدم من السماء إلى الأرض استوحش الملك وشكىٰ إلى الله تعالىٰ وسأله أن يأذن له، فأذن له فهبط عليه فوجده قاعداً في قفرة من الأرض، فلما رآه آدم وضع يده على رأسه وصاح صيحة، قال أبو عبد الله عليه السلام: يروون أنه أسمع عامة الخلق،

فقال له الملك: يا آدم ما أراك إلاّ وقد عصيت ربك وحملت على نفسك ما لا تطيق، أتدري ما قال لنا الله فيك فرددنا عليه؟ قال: لا، قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فسهو خلقك أن تكون في الأرض أيستقيم أن تكون في السماء؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: والله عزّى بها آدم ثلاثاً.

أقول: ويستفاد من الرواية أن جنة آدم كانت في السماء وسيجيء فيه روايات أُخر أيضاً.

وفي تفسير العياشي أيضاً عن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ماذا علّمه؟ قال: الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته، فقال: وهذا البساط مما علمه.

وفي التفسير أيضاً عن الفضيل بن العباس عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، ما هي؟ قال: أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض.

وفي التفسير أيضاً عن داود بن سرحان العطار، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغذينا ثم دعا بالطست والدَّست سنانه فقلت: جعلت فداك، قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، الطست والدست سنانه منه، فقال عليه السلام: الفجاج والأودية وأهوىٰ بيده كذا وكذا.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام: إنَّ الله عزّ وجلّ علّم آدم أسماء حججه كلها ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾. قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾، فلما أنباهم بأسمائهم وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله عز ذكره، فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريَّته، ثم غيّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم

ومحبَّتهم، وقال لهم: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أقول: وبالرجوع إلى ما مرّ من البيان تعرف معنىٰ هذه الروايات وأن لا منافاة بين هذه وما تقدمها، إذ تقدم أن قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾، تعطي أنه ما من شيء إلاّ وله في خزائن الغيب وجود، وأن هذه الأشياء التي قبلنا إنما وجدت بالنزول من هناك، وكل اسم وضع بحيال مسمى من هذه المسميات فهو اسمٌ لما في خزائن الغيب، فسواء قيل: إن الله علّم آدم ما في خزائن غيبه من الأشياء وهي غيب السماوات والأرض، أو قيل: إنه علّم آدم أسماء كل شيء وهي غيب السماوات والأرض كان المؤدى والنتيجة واحداً وهو ظاهر.

ويناسب المقام عدة من أخبار الطينة كما رواه في البحار عن جابر بن عبد الله قال: قلت لرسول الله ﷺ: أول شيء خلق الله ما هو؟ فقال نور نبيّك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير، ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً، فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش وسكنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله، ثم جعله أقساماً، فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله، ثم جعله أجزاء فخلق الملائكة من جزء، والشمس من جزء والقمر من جزء، وأقام القسم الرَّابع في مقام الرجاء ما شاء الله، ثم جعله أجزاء، فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام القسم الرابع في مقام الحياء ما شاء الله، ثم نظر إليه بعين الهيبة فرشح ذلك النور وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلف الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين.

أقول: والأخبار في هذه المعاني كثيرة، متظافرة، وأنت إذا أجلت نظرة التأمل والإمعان فيها وجدتها شواهد على ما قدمناه، وسيجيء شطرٌ من الكلام في بعضها. وإيّاك أن ترمي أمثال هذه الأحاديث الشريفة المأثورة عن معادن العلم ومنابع الحكمة بأنها من اختلاقات المتصوفة وأوهامهم،

فللخلقة أسرارٌ، وهو ذا العلماء من طبقات أقوام الإنسان لا يألون جهداً في البحث عن أسرار الطبيعة، منذ أخذ البشر في الانتشار، وكلما لاح لهم معلوم واحدٌ بان لهم مجاهيل كثيرة، وهي عالم الطبيعة أضيق العوالم وأخسها فما ظنك بما وراءها، وهي عوالم النور والسعة.

الفصل الثالث:

الأمر الإلهي في قصة آدم

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

قد عرفت أن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيه دلالة على وقوع أمر مكتوم ظاهر بعد أن كان مكتوماً، ولا يخلو ذلك عن مناسبة مع قوله: أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين حيث لم يعبّر أبىٰ واستكبر وكفر، وعرفت أيضاً أن قصة السجدة كالواقعة أو هي واقعة بين قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾، كالجملة المستخرجة من بين الجمل ليتخلص بها إلى قصة الجنة، فإن هذه الآيات كما عرفت إنما سيقت لبيان كيفية خلافة الإنسان وموقعه وكيفية نزوله إلى الدنيا وما يؤول إليه أمره من سعادة وشقاء، فلا يهمّ من قصة السجدة ههُنا إلاّ إجمالها المؤدي إلى قصة الجنة وهبوط آدم هذا، فهذا هو الوجه في الإضراب عن الإطناب إلى الإيجاز، ولعلّ هذا هو السر أيضاً في الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾ بعد قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ﴾. وعلى ما مرّ فنسبة الكتمان إلى الملائكة وهو فعل إبليس بناء على الجري على الدأب الكلامي من نسبة فعل الواحد إلى الجماعة إذا اختلط بهم ولم يتميز منهم، ويمكن أن يكون له وجه آخر، وهو أن يكون ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، إطلاق الخلافة حتى على الملائكة كما يؤيده أيضاً أمرهم ثانياً بالسجود، ويوجب ذلك خطوراً في قلوب

الملائكة، حيث أنها ما كانت تظن أنَّ موجوداً أرضياً يمكن أن يسود على كل شيء حتى عليهم، ويدل على هذا المعنىٰ بعض الروايات كما سيأتي.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾، يستفاد منه جواز السجود لغير الله في الجملة إذا كان تحيَّة وتكرمة للغير وفيه خضوع لله تعالىٰ بموافقة أمره، ونظيره قوله تعالىٰ في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[1]، وملخص القول في ذلك أن العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك، فالفعل العبادي يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولويّة المولىٰ، أو عبدية العبد كالسجود والركوع والقيام أمامه حينما يقعد، والمشي خلفه حينما يمشي وغير ذلك، وكلما زادت الصلاحية المزبورة ازدادت العبادة تعيّناً للعبودية، وأوضح الأفعال في الدلالة على عز المولوية وذل العبودية السجدة، لما فيها من الخرور على الأرض، ووضع الجبهة عليها، وأما ما ربما ظنه بعض: من أن السجدة عبادة ذاتية، فليس بشيء، فإن الذاتي لا يختلف ولا يتخلف. وهذا الفعل يمكن أن يصدر بعينه من فاعله بداع غير داعي التعظيم والعبادة كالسخرية والاستهزاء فلا يكون عبادة مع اشتماله على جميع ما يشتمل عليه وهو عبادة، نعم معنى العبادة أوضح في السجدة من غيرها، وإذا لم يكن عبادة ذاتية لم يكن لذاته مختصاً بالله سبحانه، بناء على أن المعبود منحصر فيه تعالىٰ، فلو كان هناك مانع لكان من جهة النهي الشرعي أو العقلي والممنوع شرعاً أو عقلاً ليس إلاَّ إعطاء الربوبية لغيره تعالىٰ، وأما تحية الغير أو تكرمته من غير إعطاء الربوبية، بل لمجرد التعارف والتحية فحسب، فلا دليل على المنع من ذلك، لكن الذوق الديني المتخذ من الاستئناس بظواهره يقضي باختصاص هذا الفعل به تعالىٰ، والمنع عن استعماله في غير مورده تعالىٰ، وإن لم يقصد به إلاَّ التحية والتكرمة فقط، وأما المنع عن كل ما فيه إظهار الإخلاص لله، بإبراز المحبة لصالحي عباده أو لقبور أوليائه أو آثارهم فمما لم يقم عليه دليل عقلي أو نقلي أصلاً...

---

(١) يوسف: ١٠٠.

الفصل الرابع:

قصة السجود لآدم في ضوء الروايات

في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لمّا أن خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له فقالت الملائكة في أنفسها: ما كنا نظن أن الله خلق خلقاً أكرم عليه منا فنحن جيرانه ونحن أقرب الخلق إليه. فقال الله: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيما أبدوا من أمر بني الجانّ وكتموا ما في أنفسهم، فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش.

وفي التفسير أيضاً عن علي بن الحسين عليه السلام ما في معناه وفيه: فلما عرفت الملائكة أنها وقعت في خطيئة لاذوا بالعرش، وأنها كانت عصابة من الملائكة وهم الذين كانوا حول العرش، لم يكن جميع الملائكة إلى أن قال: فهم يلوذون حول العرش إلى يوم القيامة.

أقول: يمكن أن يستفاد مضمون الروايتين من قوله حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وسيجيء أن العرش هو العلم، وبذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فافهم ذلك، وعلى هذا كان المراد من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، قوم إبليس من الجان المخلوقين قبل الإنسان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ

﴿ٱلسَّمُومِ﴾[1]، وعلى هذه الرواية فنسبة الكتمان إلى جميع الملائكة لا تحتاج إلى عناية زائدة، بل هي على حقيقته، فإن المعنى المكتوم خطر على قلوب جميع الملائكة، ولا منافاة بين هذه الرواية وما تفيد أن المكتوم هو ما كان يكتمه إبليس من الإباء عن الخضوع لآدم، والاستكبار لو دعي إلى السجود، لجواز استفادة الجميع كما هو كذلك.

وفي قصص الأنبياء عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: سجدت الملائكة ووضعوا جباههم على الأرض؟ قال: نعم تكرمة من الله تعالىٰ.

وفي الاحتجاج عن موسى بن جعفر عن آبائه: إن يهودياً سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن معجزات النبي صلى الله عليه وآله في مقابلة معجزات الأنبياء، فقال: هذا آدم أسجد الله له ملائكته، فهل فعل بمحمّد شيئاً من هذا؟ فقال علي عليه السلام: لقد كان ذلك، ولكن أسجد الله لآدم ملائكته، فإن سجودهم لم يكن سجود طاعة أنهم عبدوا آدم من دون الله عزَّ وجلَّ، ولكن اعترافاً لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له ومحمّد صلى الله عليه وآله أُعطي ما هو أفضل من هذا، إن الله جلَّ وعلا صلى عليه في جبروته والملائكة بأجمعها، وتعبّد المؤمنون بالصلاة عليه فهذه زيادة له يا يهودي.

وفي تفسير القمّي: خلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصوّراً، وكان يمرّ به إبليس اللعين فيقول: لأمر ما خلقت! فقال إبليس: «لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته» إلى أن قال: ثم قال الله تعالىٰ للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبىٰ أن يسجد.

وفي البحار عن قصص الأنبياء عن الصادق عليه السلام قال: أمر إبليس بالسجود لآدم فقال: يا رب وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ما عبدك أحد قطّ مثلها، قال الله جلَّ جلاله: إني أُحب أن أُطاع من حيث أُريد، وقال: إن إبليس رنّ أربع رنات: أولهنّ يوم لعن، ويوم أُهبط إلى الأرض، ويوم بعث محمّد صلى الله عليه وآله على فترة من الرُّسل، وحين أُنزلت أُمّ

---

(١) الحجر: ٢٧.

الكتاب، ونخر نخرتين: حين أكل آدم من الشجرة، وحين أُهبط من الجنة، وقال في قوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾، وكانت سوآتهما لا ترى فصارت ترى بارزة، وقال الشجرة التي نهي عنها آدم هي السنبلة.

أقول: وفي الروايات ـ وهي كثيرة ـ تأييد ما ذكرناه في السجدة.

الفصل الخامس:

آدم ونسيان العهد الإلهي

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾، على أن قصة سجود الملائكة لآدم تكررت في عدة مواضع من القرآن الكريم. لم تقع قصة الجنة إلاَّ في ثلاث مواضع:

أحدها: هٰهُنا من سورة البقرة.

الثاني: في سورة الأعراف، قال الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ۚ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ

فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1] الآيات.

والثالث: فيسورة طه. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2] الآيات. وسياق الآيات وخاصة قوله تعالى في صدر القصة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعطي أن آدم عليه السلام إنما خلق ليحيا في الأرض ويموت فيها وإنما أسكنهما الله الجنة لاختبارهما ولتبدو لهما سوآتهما حتى يهبطا إلى الأرض، وكذا سياق قوله تعالى في سورة طه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ حيث سبك قصة الجنة مع قصة إسجاد الملائكة كلتيهما كقصة واحدة متواصلة، وبالجملة فهو عليه السلام كان مخلوقاً ليسكن الأرض، وكان الطريق إلى الاستقرار في الأرض هذا الطريق، وهو تفضيله على الملائكة لإثبات خلافته، ثم أمرهم بالسجدة، ثم إسكان الجنة. والنهي عن قرب الشجرة المنهية حتى يأكلا منها فيبدو لهما سوآتهما فيهبطا إلى الأرض، فآخر العوامل للاستقرار في الأرض، وانتخاب الحياة الدنيوية ظهور السوأة، وهي العورة بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ فهو التمايل الحيواني ويستلزم التغذي والنمو أيضاً فما كان لإبليس همّ إلاّ إبداء سوآتهما، وآدم وزوجته وإن كان قد سواهما الله تعالىٰ تسوية أرضية بشرية ثم أدخلهما الجنة لم يمكثا بعد التسوية، ولم يمهلا كثيراً، ليتم في الدنيا إدراكهما لسوآتهما ولا لغيرها من لوازم الحياة الدنيا واحتياجاتها

---

(١) الأعراف: ١٩، ٢٥.

(٢) طه: ١١٥، ١٢٦.

حتى أدخلهما الله الجنة، وإنه إنما أدخلهما الله الجنة حين أدخلهما ولما ينفصلا ولما ينقطع إدراكهما عن عالم الروح والملائكة، والدليل على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا﴾ ولم يقل ما كان ووري عنهما، وهو مشعر بأن مواراة السوأة ما كانت ممكنة في الحياة الدنيا استدامة، وإنما تمشّت دفعة ما واستعقب ذلك إسكان الجنة، فظهور السوأة كان مقضياً محتوماً في الحياة الأرضية ومع أكل الشجرة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وأيضاً هو تعالىٰ غفر خطيئتهما بعدما تابا ولم يرجعهما إلى الجنة بل أهبطهما إلى الدنيا ليحييا فيها ولو لم تكن الحياة الأرضية مع أكل الشجرة وظهور السوأة حتماً مقضياً، والرجوع إلى الجنة مع ذلك محالاً، لرجعا إليها بعد حط الخطيئة، فالعامل في خروجهما من الجنة وهبوطهما هو الأكل من الشجرة وظهور السوأة، وكان ذلك بوسوسة الشيطان اللعين، وقد قال تعالىٰ في سورة طٰه في صدر القصة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾. ثم ساق تعالىٰ القصة. فهل هذا العهد هو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؟ أو أنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أو أنه العهد بمعنى الميثاق العمومي المأخوذ من جميع الإنسان، ومن الأنبياء خاصة بوجه آكد وأغلظ.

والاحتمال الأول غير صحيح لقوله تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الآيتان، فهما قد كانا حين اقتراف الخطيئة واقتراب الشجرة على ذكر من النهي، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فالعهد المذكور ليس هو النهي عن قرب الشجرة، وأما الاحتمال الثاني (وهو أن يكون العهد المذكور هو التحذير عن اتباع إبليس) فهو وإن لم يكن بالبعيد كل البعد، ولكن ظواهر الآيات لا تساعد عليه فإن العهد مخصوص بآدمﷺ كما هو ظاهر الآية.

مع أن التحذير عن إبليس كان لهما معاً، وأيضاً ذيل الآيات وهو على طبق صدرها في سورة طٰه يناسب العهد بمعنى الميثاق الكلي، لا العهد بمعنى التحذير عن إبليس، قال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ

هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ الآيات، فبحسب التطبيق ينطبق قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ على نسيان العهد وهو كما ترى مع العهد بمعنى الميثاق على الربوبية والعبودية أنسب منه مع التحذير من إبليس، إذ لا كثير مناسبة بحسب المفهوم بين الإعراض عن الذكر واتباع إبليس، وأما الميثاق على الربوبية فهو له أنسب، فإن الميثاق على الربوبية هو أن لا ينسى الإنسان كونه تعالىٰ رباً له، أي مالكاً مدبراً، أي لا ينسىٰ الإنسان أبداً ولا في حال أنه مملوك طلق لا يملك لنفسه شيئاً لا نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، أي لا ذاتاً ولا وصفاً ولا فعلاً.

والخطيئة التي تقابله هي إعراض الإنسان عن ذكر مقام ربه والغفلة عنه بالالتفات إلى نفسه أو ما يعود ويرجع إلى نفسه من زخارف الحياة الدنيا الفانية البالية هذا.

لكنك إذا أمعنت النظر في الحياة الدنيا على اختلاف جهاتها وتشتت أطرافها وأنحائها ووحدتها واشتراكها بين المؤمن والكافر وجدتها بحسب الحقيقة والباطن مختلفة في الموردين بحسب ذوق العلم بالله تعالىٰ والجهل به، فالعارف بمقام ربه إذا نظر إلى نفسه وكذلك إلى الحياة الدنيا الجامعة لأقسام الكدورات وأنواع الآلام وضروب المكاره من موت وحياة، وصحة وسقم، وسعة وإقتار، وراحة وتعب، ووجدان وفقدان. على أن الجميع (أعم مما في نفس الإنسان أو في غيره) مملوكة لربه، لا استقلال لشيء منها وفيها، بل الكل ممن ليس عنده إلاَّ الحسن والبهاء والجمال والخير على ما يليق بعزته وجلاله، ولا يترشح من لدنه إلاَّ الجميل والخير، فإذا نظر إليها وهي هكذا لم ير مكروهاً يكرهه ولا مخوفاً يخافه، ولا مهيباً يهابه، ولا محذوراً يحذره، بل يرى كل ما يراه حسناً محبوباً إلاَّ ما يأمره ربه أن يكرهه ويبغضه وهو مع ذلك يكرهه لأمره، ويحب ما يحب ويلتذ ويبتهج بأمره. لا شغل له إلاَّ بربه، كل ذلك لما يرى الجميع ملكاً مطلقاً لربه لا نصيب ولا حظ لشيء غيره في شيء منها، فما له ولمالك الأمر وما يتصرف به في ملكه؟ من إيحاء وإماتة، ونفع وضر وغيرها، فهذه هي الحياة الطيبة التي لا شقاء فيها البتة وهي نور لا ظلمة معه، وسرور لا غم معه، ووجدان لا فقد

معه، وغنى لا فقر معه كل ذلك بالله سبحانه، وفي مقابل هذه الحياة حياة الجاهل بمقام ربه، إذ هذا المسكين بانقطاعه عن ربه لا يقع بصره على موجود من نفسه وغيره إلاَّ رآه مستقلاً بنفسه ضاراً أو نافعاً خيراً أو شراً فهو يتقلب في حياته بين الخوف عمّا يخاف فوته، والحذر عمّا يحذر وقوعه، والحزن لما يفوته، والحسرة لما يضيع عنه من جاه أو مال أو بنين أو أعوان وسائر ما يحبه ويتكل ويعتمد عليه ويؤثره.

كلما نضج جلده بالاعتياد بمكروه والسكون إلى مرارة بدّل جلداً غيره، ليذوق العذاب بفؤاد مضطرب قلق، وحشى ذائب محترق، وصدر ضيق حرج، كأنما يصعّد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

إذا عرفت هذا علمت: أن مرجع الأمرين أعني نسيان الميثاق وشقاء الحياة الدنيا واحد، وإن الشقاء الدنيوي من فروع نسيان الميثاق.

وهذا هو الذي يشعر به كلامه سبحانه حيث أتى بالتكليف الجامع لأهل الدنيا في سورة طه فقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾.

وبدل ذلك في هذه السورة من قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ومن هنا تحدس إن كنت ذا فطانة أن الشجرة كانت شجرة في اقترابها تعب الحياة الدنيا وشقائها، وهو أن يعيش الإنسان في الدنيا ناسياً لربه، غافلاً عن مقامه، وأن آدم عليه السلام كأنه أراد أن يجمع بينها وبين الميثاق المأخوذ عليه، فلم يتمكن فنسي الميثاق ووقع في تعب الحياة الدنيا، ثم تدورك له ذلك بالتوبة.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ الرغد الهناء وطيب العيش وأرغد القوم مواشيهم تركوها ترعى كيف شاءت، وقوم رغد، ونساء رغد، أي ذوو عيش رغيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وكأن النهي إنما كان عن أكل

الثمرة وإنما تعلق بالقرب من الشجرة إيذاناً بشدة النهي ومبالغة في التأكيد ويشهد بذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾[2]، فكانت المخالفة بالأكل فهو المنهي عنه بقوله: ولا تقربا.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، من الظلم لا من الظلمة على ما احتمله بعضهم وقد اعترفا بظلمهما حيث قالا على ما حكاه الله تعالىٰ عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾.

إلاَّ أنّه تعالىٰ بدّل في سورة طٰه هذه الكلمة أعني قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، من قوله: فتشقى، والشقاء هو التعب، ثم فسر التعب وفصله، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ الآيات.

ومن هنا يظهر أن وبال هذا الظلم إنما كان هو الوقوع في تعب حياة هذه الدنيا من جوع وعطش وعراء وعناء وعلى هذا فالظلم منهما إنما هو ظلمهما لأنفسهما، لا بمعنى المعصية المصطلحة والظلم على الله سبحانه. ومن هنا يظهر أيضاً أن هذا النهي أعني قوله: ولا تقربا، إنما كان نهياً تنزيهياً إرشادياً يرشد به إلى ما فيه خير المكلف وصلاحه في مقام النصح لا نهياً مولوياً.

فهما إنما ظلما أنفسهما في ترك الجنة على أن جزاء المخالفة للنهي المولوي التكليفي يتبدل بالتوبة إذا قبلت ولم يتبدل في موردهما، فإنهما تابا وقبلت توبتهما ولم يرجعا إلى ما كانا فيه من الجنة، ولولا أن التكليف إرشادي ليس له إلاَّ التبعة التكوينية دون التشريعية لاستلزم قبول التوبة رجوعهما إلى ما كانا فيه من مقام القرب وسيأتي لهذا الكلام بقية فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) الأعراف: ٢٢.

(٢) طٰه: ١٢١.

قوله سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، الظاهر من هذه الجملة كنظائرها وإن لم يكن أزيد من وسوسة الشيطان لهما مثل ما يوسوس لنا (بني آدم) على نحو إلقاء الوسوسة في القلب من غير رؤية الشخص.

لكن الظاهر من أمثال قوله تعالىٰ في سورة طٰه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يدل على أنه تعالىٰ أراهما الشيطان وعرفهما إيّاه بالشخص والعين دون الوصف وكذا قوله تعالىٰ حكاية عن الشيطان: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ الآية، حيث أتىٰ بالكلام في صورة حكاية الخطاب، ويدل ذلك على متكلم مشعور به.

وكذا قوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ والقسم إنما يكون من مقاسم مشعور به.

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ كل ذلك يدل على أنه كان يتراءى لهما وكانا يشاهدانه. ولو كان حالهما عليهما السلام مثل حالنا من عدم المشاهدة حين الوسوسة لجاز لهما أن يقولا: ربنا إننا لم نشعر وخلنا أن هذه الوساوس هي من أفكارنا من غير استشعار بحضوره، ولا قصد لمخالفة ما وصيتنا به من التحذير من وسوسته.

وبالجملة فهما كانا يشاهدانه ويعرفانه، والأنبياء وهم المعصومون بعصمة الله كذلك يعرفونه ويشاهدونه حين تعرّضه بهم لو تعرّض على ما وردت به الروايات في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيىٰ وأيوب وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم هذا.

وكذا ظاهر هذه الآيات كظاهر قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ حيث ينبيء عن كونهما معه لعنه الله بحيال الشجرة في الجنة، فقد كان دخل الجنة وصاحبهما وغرهما بوسوسته، ولا محذور فيه إذ لم تكن الجنة جنّة الخلد حتى لا يدخلها الشيطان، والدليل على ذلك خروجهم جميعاً من هذه الجنة.

وأما قوله تعالىٰ خطاباً لإبليس: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ

فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[1]، فيمكن أن يكون المراد به الخروج من الملائكة، أو الخروج من السماء من جهة كونها مقام قرب وتشريف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الآية، ظاهر السياق أنه خطاب لآدم وزوجته وإبليس وقد خص إبليس وحده بالخطاب في سورة الأعراف حيث قال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ الآية، فقوله تعالىٰ: اهبطوا، كالجمع بين الخطابين وحكاية عن قضاء قضى الله به العداوة بين إبليس لعنه الله وبين آدم وزوجته وذريتهما، وكذلك قضى به حياتهم في الأرض وموتهم فيها وبعثهم منها.

وذرية آدم مع آدم في الحكم كما ربما يستشعر من ظاهر قوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ الآية، وكما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ الآية، من سورة الأعراف.

إن إسجاد الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان من جهة أنه خليفة أرضي، فكان المسجود له آدم عليه السلام وحكم السجدة لجميع البشر، فكان إقامة آدم عليه السلام مقام المسجود له معنوناً بعنوان الأنموذج والنائب.

وبالجملة يشبه أن تكون هذه القصة التي قصها الله تعالىٰ من إسكان آدم وزوجته الجنة، ثم إهباطهما لأكل الشجرة كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله إلى الدنيا من السعادة والكرامة بسكونه حظيرة القدس، ومنزل الرفعة والقرب، ودار نعمة وسرور، وأنس ونور، ورفقاء طاهرين، وأخلاء روحانيين، وجوار رب العالمين.

ثم إنه يختار مكانه كل تعب وعناء ومكروه وألم بالميل إلى حياة فانية، وجيفة منتنة دانية، ثم إنه لو رجع بعد ذلك إلى ربه لأعاده إلى دار كرامته وسعادته ولو لم يرجع إليه وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فقد بدل نعمة الله كفراً وأحل بنفسه دار البوار، جهنَّم يصلاها وبئس القرار.

قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾، التلقي هو التلقن،

---

(١) الأعراف: ١٣.

وهو أخذ الكلام مع فهم وفقه وهذا التلقي كان هو الطريق المسهل لآدم عليه السلام توبته.

ومن ذلك يظهر أن التوبة توبتان: توبة من الله تعالىٰ وهي الرجوع إلى العبد بالرحمة، وتوبة من العبد وهي الرجوع إلى الله بالاستغفار والانقلاع من المعصية.

وتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالىٰ، فإن العبد لا يستغني عن ربه في حال من الأحوال، فرجوعه عن المعصية إليه يحتاج إلى توفيقه تعالىٰ وإعانته ورحمته حتى يتحقق منه التوبة، ثم تمس الحاجة إلى قبوله تعالىٰ وعنايته ورحمته، فتوبة العبد إذا قبلت كانت بين توبتين من الله كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[1].

وقراءة نصب آدم ورفع كلمات تناسب هذه النكتة، وإن كانت القراءة الأخرى (وهي قراءة رفع آدم ونصب كلمات) لا تنافيه أيضاً.

وأما أن هذه الكلمات ما هي؟ فربما يحتمل أنها هي ما يحكيه الله تعالىٰ عنهما في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2]، إلاّ أن وقوع هذه الكلمات أعني قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾ الآية، قبل قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ في سورة الأعراف ووقوع قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ﴾ الآية، بعد قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ في هذه السورة لا يساعد عليه.

لكن هٰهُنا شيء: وهو أنك عرفت في صدر القصة أن الله تعالىٰ حيث قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ الآية وهو تعالى لم يرد عليهم دعواهم على الخليفة الأرضي بما رموه به ولم يجب عنه بشيء إلاّ أنه علم آدم الأسماء كلها.

ولولا أنّه كان فيما صنعه تعالىٰ من تعليم الأسماء ما يسد باب

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) الأعراف: ٢٣.

اعتراضهم ذلك لم ينقطع كلامهم ولا تمّت الحجة عليهم قطعاً. ففي جملة ما علمه الله تعالىٰ آدم من الأسماء أمر ينفع العاصي إذا عصى والمذنب إذا أذنب، فلعلَّ تلقيه من ربه كان متعلقاً بشيء من تلك الأسماء؛ فافهم ذلك.

واعلم أن آدمﷺوإن ظلم نفسه في إلقائها إلى شفا جرف الهلكة ومنشعب طريقي السعادة والشقاوة أعني الدنيا، فلو وقف في مهبطه فقد هلك، ولو رجع إلى سعادته الأولى فقد أتعب نفسه وظلمها، فهوﷺ ظالم لنفسه على كل تقدير، إلاَّ أنهﷺ هيأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير خطيئة.

فمتى كان يمكنه أن يشاهد ما لنفسه من الفقر والمذلة والمسكنة والحاجة والقصور وله في كل ما يصيبه من التعب والعناء والكد روح وراحة في حظيرة القدس وجوار رب العالمين، فلله تعالىٰ صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلاَّ المذنبون، وله في أيام الدهر نفحات لا يرتاح بها إلاَّ المتعرّضون.

فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه وتنظيف المنزل الذي يرجى سكونه، فوراءها تشريع الدين وتقويم الملة.

ويدل على ذلك ما تراه أن الله تعالىٰ يكرر في كلامه تقدم التوبة على الإيمان. قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[1]، وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾. وهذا أول ما شرَّع من الدين لآدمﷺ وذريته، أوجز الدين كله في جملتين لا يزاد عليه شيء إلى يوم القيامة.

وأنت إذا تدبرت هذه القصة (قصة الجنة) وخاصة ما وقع في سورة طٰه وجدت أن المستفاد منها أن جريان القصة أوجب قضاءين منه تعالىٰ في آدم

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) طه: ٨٢.

وذريته، فأكل الشجرة أوجب حكمه تعالىٰ وقضاءه بالهبوط والاستقرار في الأرض والحياة فيها تلك الحياة الشقية التي حذرا منها حين نهيا عن اقتراب الشجرة هذه.

وأن التوبة ثانياً: تعقب قضاء وحكماً ثانياً منه تعالىٰ بإكرام آدم وذريته بالهداية إلى العبودية فالمقضي أولاً كان نفس الحياة الأرضية، ثم بالتوبة طيب الله تلك الحياة بأن ركب عليها الهداية إلى العبودية، فتألفت الحياة من حياة أرضية، وحياة سماوية.

وهذا هو المستفاد من تكرار الأمر بالهبوط في هذه السورة حيث قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ الآية، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ الآية.

وتوسيط التوبة بين الأمرين بالهبوط مشعر بأن التوبة وقعت ولما ينفصلا من الجنة وإن لم يكونا أيضاً فيها كاستقرارهما فيها قبل ذلك.

يشعر بذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية، بعدما قال لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فأتىٰ بلفظة تلكما وهي إشارة إلى البعيد بعدما أتىٰ بلفظة هذه وهي إشارة إلى القريب وعبر بلفظة نادىٰ وهي للبعيد بعدما أتىٰ بلفظة قال وهي للقريب؛ فافهم.

واعلم أن ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الآية، أن نحو هذه الحياة بعد الهبوط يغاير نحوها في الجنة قبل الهبوط، وأن هذه حياة ممتزجة حقيقتها بحقيقة الأرض ذات عناء وشقاء يلزمها أن يتكون الإنسان في الأرض ثم يعاد بالموت إليها ثم يخرج بالبعث منها.

فالحياة الأرضية تغاير حياة الجنة فحياتها حياة سماوية غير أرضية.

ومن هنا يمكن أن يجزم أن جنة آدم كانت في السماء، وإن لم تكن جنة الآخرة جنة الخلد التي لا يخرج منها من دخل فيها.

نعم: يبقى الكلام في معنى السماء ولعلّنا سنوفق لاستيفاء البحث منه، إن شاء الله تعالىٰ.

بقي هنا شيء وهو القول في خطيئة آدم فنقول ظاهر الآيات في بادىء النظر وإن كان تحقق المعصية والخطيئة منه عليه السلام كما قال تعالىٰ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ الآية، وكما اعترف به فيما حكاه الله عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الآية.

لكن التدبر في آيات القصة والدقة في النهي الوارد عن أكل الشجرة يوجب القطع بأن النهي المذكور لم يكن نهياً مولوياً وإنما هو نهي إرشادي يراد به الإرشاد والهداية إلى ما في مورد التكليف من الصلاح والخير لا البعث والإرادة المولوية.

ويدل على ذلك أولاً: أنه تعالىٰ فرّع على النهي في هذه السورة وفي سورة الأعراف أنه ظلم حيث قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم بدله في سورة طه من قوله: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾ مفرعاً إياه على ترك الجنة. ومعنىٰ الشقاء التعب ثم ذكر بعده كالتفسير له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝﴾ الآيات.

فأوضح أن المراد بالشقاء هو التعب الدنيوي، الذي تستتبعه هذه الحياة الأرضية من جوع وعطش وعراء وغير ذلك.

فالتوقي من هذه الأمور هو الموجب للنهي الكذائي لا جهة أُخرىٰ مولوية فالنهي إرشادي، ومخالفة النهي الإرشادي لا توجب معصية مولوية، وتعدياً عن طور العبودية وعلى هذا فالمراد بالظلم أيضاً في ما ورد من الآيات ظلمهما على أنفسهما في إلقائها في التعب والتهلكة دون الظلم المذموم في باب الربوبية والعبودية وهو ظاهر.

وثانياً: أن التوبة، وهي الرجوع من العبد إذا استتبع القبول من جانب المولى أوجب كون الذنب كلا ذنب، والمعصية كأنها لم تصدر، فيعامل مع العاصي التائب معاملة المطيع المنقاد، وفي مورد فعله معاملة الامتثال والانقياد.

ولو كان النهي عن أكل الشجرة مولوياً وكانت التوبة توبة عن ذنب عبودي ورجوعاً عن مخالفة نهي مولوي كان اللازم رجوعهما إلى الجنة مع أنهما لم يرجعا.

ومن هنا يعلم أن استتباع الأكل المنهي للخروج من الجنة كان استتباعاً ضرورياً تكوينياً، نظير استتباع السم للقتل والنار للإحراق، كما في موارد التكاليف الإرشادية لا استتباعاً من قبيل المجازاة المولوية في التكاليف المولوية، كدخول النار لتارك الصلاة، واستحقاق الذم واستيجاب البعد في المخالفات العمومية الاجتماعية المولوية.

وثالثاً: أن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

وهو كلمة جامعة لجميع التشريعات التفصيلية التي أنزلها الله تعالىٰ في هذه الدنيا من طرق ملائكته وكتبه ورسله، يحكي عن أول تشريع شرَّع للإنسان في هذه الدنيا التي هي دنيا آدم وذريته، وقد وقع على ما يحكي الله تعالىٰ بعد الأمر الثاني بالهبوط، ومن الواضح أن الأمر بالهبوط أمر تكويني متأخر عن الكون في الجنة واقتراف الخطيئة، فلم يكن حين مخالفة النهي واقتراب الشجرة لا دين مشروع ولا تكليف مولوي فلم يتحقق عند ذلك ذنب عبودي، ولا معصية مولوية.

ولا ينافي ذلك كون خطاب اسجدوا للملائكة ولإبليس وهو قبل خطاب لا تقربا، خطاباً مولوياً لأن المكلف غير المكلف.

فإن قلت: إذا كان النهي نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً فما معنىٰ عدّه تعالىٰ فعلهما ظلماً وعصياناً وغواية؟

قلت: أما الظلم فقد مرّ أن المراد به ظلمهما لأنفسهما في جنب الله تعالىٰ، وأما العصيان فهو لغة عدم الانفعال أو الانفعال بصعوبة كما يقال: كسرته فانكسر وكسرته فعصىٰ، والعصيان هو عدم الانفعال عن الأمر أو النهي كما يتحقق في مورد التكاليف المولوية كذلك يتحقق في مورد الخطابات الإرشادية.

وأما تعين معنى المعصية في هذه الأزمنة عندنا جماعة المسلمين في مخالفة مثل صلٍ، أو صم، أو حج، أو لا تشرب الخمر، أو لا تزنِ ونحو ذلك فهو تعين بنحو الحقيقة الشرعية أو المتشرعة لا يضر بعموم المعنى بحسب اللغة والعرف العام هذا.

وأما الغواية فهو عدم اقتدار الإنسان مثلاً على حفظ المقصد وتدبير نفسه في معيشته بحيث يناسب المقصد ويلائمه.

وواضح أنه يختلف باختلاف الموارد من إرشاد ومولوية.

فإن قلت: فما معنى التوبة حينئذٍ وقولهما: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؟

قلت: التوبة كما مرّ هي الرجوع، والرجوع يختلف بحسب اختلاف موارده.

فكما يجوز للعبد المتمرد عن أمر سيده وإرادته أن يتوب إليه، فيرد إليه مقامه الزائل من القرب عنده كذلك يجوز للمريض الذي نهاه الطبيب نهياً إرشادياً عن أكل شيء معيّن من الفواكه والمأكولات، وإنما كان ذلك منه مراعاة لجانب سلامته وعافيته فلم ينته المريض عن نهيه فاقترفه فتضرر فأشرف على الهلاك.

يجوز أن يتوب إلى الطبيب ليشير إليه بدواء يعيده إلى سابق حاله وعافيته، فيذكر له أن ذلك محتاج إلى تحمل التعب والمشقة والعناء والرياضة خلال مدة حتى يعود إلى سلامة المزاج الأولية بل إلى أشرف منها وأحسن، هذا.

وأما المغفرة والرحمة والخسران فالكلام فيها نظير الكلام في نظائرها في اختلافها بحسب اختلاف مواردها، هذا.

الفصل السادس:

جنة آدم في ضوء الروايات

في تفسير القمي عن أبيه رفعه قال: سئل الصادق عليه السلام عن جنة آدم أمن جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة؟ فقال عليه السلام: كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً، قال عليه السلام: فلما أسكنه الله الجنة وأباحها له إلاّ الشجرة، لأنه خلق خلقة لا يبقىٰ إلاّ بالأمر والنهي والغذاء واللباس والاكتنان والنكاح، ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلاّ بالتوفيق، فجاءه إبليس فقال له: إنكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين، وبقيتما في الجنة أبداً، وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنة، وحلف لهما إنه لهما ناصح كما قال عز وجلّ حكاية عنه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فقبل آدم قوله فأكلا من الشجرة فكانا كما حكى الله، ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، وسقط عنهما ما ألبسهما الله من الجنة، وأقبلا يستتران من ورق الجنة، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، ، فقالا كما حكى الله عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فقال الله لهما: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، قال: أي يوم القيامة، قال: فهبط آدم على الصفا، وإنما سميت الصفا لأن صفي الله أنزل عليها، ونزلت حواء على المروة وإنما سميت المروة لأن المرأة أنزلت عليها، فبقي آدم أربعين صباحاً ساجداً يبكي على الجنة، فنزل عليه جبرائيل، فقال: أليس خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك

ملائكته؟ قال: بلىٰ، [قال:] وأمرك أن لا تأكل من الشجرة فعصيته؟ قال آدم: إن إبليس حلف لي بالله كاذباً.

أقول: وفي كون جنة آدم من جنان الدنيا روايات أخر من طريق أهل البيت وإن اتحد بعضها مع هذه الرواية في إبراهيم بن هاشم.

والمراد بكونها من جنان الدنيا كونها برزخية في مقابل جنان الخلد، كما يشير إليه بعض فقرات الرواية كقوله: فهبط آدم على الصفا، وكقوله: ونزلت حواء على المروة، وكقوله: إن المراد بحين يوم القيامة فيكون المكث في البرزخ بعد الموت مكثاً في الأرض طبقاً لما في آيات البعث من القرآن من عد المكث البرزخي مكثاً في الأرض كما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، على أن عدة من الروايات المنقولة عن أهل البيت تدل على أن الجنة كانت في السماء، وأنهما نزلا من السماء، على أن المستأنس بلسان الروايات لا يستوحش من كون الجنة المذكورة في السماء والهبوط منها إلى الأرض مع كونهما خلقا في الأرض وعاشا فيها كما ورد في كون الجنة في السماء ووقوع سؤال القبر فيه وكونه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وغير ذلك، وأرجو أن يرتفع هذا الإشكال وما يشاكله من الإشكالات فيما سيأتي من البحث في السماء إن شاء الله العزيز.

وأما كيفية مجيء إبليس إليهما، وما اتخذه فيه من الوسيلة فالصحاح والمعتبرة من الروايات خالية عن بيانه.

وفي بعض الأخبار ذكر الحية والطاووس عونين لإبليس في إغوائه إياهما لكنها غير معتبرة، أضربنا عن ذكرها وكأنها من الأخبار الدخيلة، والقصة مأخوذة من التوراة وهاك لفظ التوراة في القصة بعينه:

---

(١) المؤمنون: ١١٤.

(٢) الروم: ٥٦.

قال في الفصل الثاني من السفر الأول وهو سفر الخليقة: وإن الله خلق آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه الحياة، فصار آدم نفساً ناطقاً، وغرس الله جناناً في عدن شرقياً، وصير هناك آدم الذي خلقه، وأنبت الله من الأرض كل شجرة، حسن منظرها وطيب مأكلها، وشجرة الحياة في وسط الجنان، وشجرة معرفة الخير والشر، وجعل نهراً يخرج من عدن ليسقي الجنان، ومن ثم يفترق فيصير أربعة رؤوس، اسم أحدها النيل، وهو المحيط بجميع بلد ذويلة الذي فيه الذهب، وذهب ذلك البلد جيد، ثم اللؤلؤ وحجارة البلور، واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع بلد الحبشة، واسم النهر الثالث دجلة، وهو يسير في شرقي الموصل، واسم النهر الرابع هو الفرات، فأخذ الله آدم وأنزله في جنان عدن ليفلحه وليحفظه وأمر الله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنان جائز لك أن تأكل، ومن شجرة معرفة الخير والشر لا تأكل، فإنك في يوم أكلك منها تستحق أن تموت، وقال الله لا خير في بقاء آدم وحده، اصنع له عوناً حذاه، فحشر الله من الأرض جميع وحش الصحراء، وطير السماء وأتىٰ بها إلى آدم ليريه ما يسميها، فكل ما سمى آدم من نفس حية باسم هو اسمه إلى الآن.

فأسمىٰ آدم أسماء لجميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء ولم يجد آدم عوناً حذاه، فأوقع سباتاً على آدم لئلا يحس فنام، فاستل إحدىٰ أضلاعه وسد مكانها اللحم، وبنى الله الضلع التي أخذ امرأة، فأتىٰ بها إلى آدم، وقال آدم هذه المرة شاهدت عظماً من عظامي، ولحماً من لحمي، وينبغي أن تسمى امرأة لأنها من أمري أخذت، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم زوجته، فيصيران كجسد واحد.

وكانا جميعاً عريانين آدم وزوجته ولا يحتشمان من ذلك.

الفصل الثالث: والثعبان صار حكيماً من جميع حيوان الصحراء الذي خلقه الله، فقال للمرأة أيقيناً قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنان؟ قالت المرأة للثعبان من ثمر شجر الجنان نأكل، لكن من ثمر الشجرة التي في وسطه قال الله لا تأكلا منه، ولا تدنوا به كيلا تموتا، قال لهما لستما تموتان، إن الله عالم أنكما في يوم أكلكما منه تنفتح عيونكما وتصيران كالملائكة عارفي الخير والشر بزيادة، فلما رأت المرأة أن الشجرة طيبة

المأكل شهية المنظر، منى للعقل، أخذت من ثمرها فأكلت، وأعطت بعلها فأكل معها، فانفتحت عيونهما فعلما أنهما عريانان فخيطا من ورق التين ما صنعا منه مآزر، فسمعا صوت الله ماراً في الجنان برفق في حركة النهار، فاستخبأ آدم وزوجته من قبل صوت الله حياء فيما بين شجر الجنان، فنادى الله آدم، وقال له مقرراً: أين أنت؟ قال: إني سمعت صوتك في الجنان فاتقيت إذ أنا عريان فاستخبأت، قال: من أخبرك أنك عريان؟ أمن الشجرة التي نهيتك عن الأكل منها أكلت؟ قال آدم: المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت، قال الله للثعبان: إذ صنعت هذا بعلم فأنت ملعون من جميع البهائم وجميع وحش الصحراء وعلى صدرك تسلك، وتراباً تأكل طول أيام حياتك، واجعل عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، وهو يشدخ منك الرأس وأنت تلدغه في العقب، وقال للمرأة: لأكثرن مشقتك وحملك، وبمشقة تلدين الأولاد، وإلى بعلك يكون قيادك، وهو يتسلط عليك.

وقال لآدم: إذ قبلت قول زوجتك فأكلت من الشجرة التي نهيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بمشقة تأكل منها طول حياتك، وشوكاً ودرداراً تنبت لك، وتأكل عشب الصحراء، بعرق وجهك تأكل الطعام إلى حين رجوعك إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب ترجع، وسمى آدم زوجته حواء لأنها كانت أم كل حي ناطق، وصنع الله لآدم وزوجته ثياب بدن وألبسهما، ثم قال الله: هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف معرفة الخير والشر، والآن فيجب أن يخرج من الجنان لئلا يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيىٰ إلى الدهر، فطرده الله من جنان عدن ليفلح الأرض التي أخذ منها ولما طرد آدم أسكن من شرقي جنان عدن الملائكة، ولمع سيف متقلب ليحفظوا طريق شجرة الحياة. انتهى الفصل من (التوراة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ ميلادية)، وأنت بتطبيق القصة من الطريقين أعني طريقي القرآن والتوراة ثم التأمل في الروايات الواردة من طريقي العامة والخاصة تعثر بحقائق من الحال غير أنا أضربنا عن الغور في بيانها والبحث عنها لأن الكتاب غير موضوع لذلك.

وأما دخول إبليس الجنة وإغواؤه فيها وهي (أولاً) مقام القرب

والنزاهة والطهارة وقد قال تعالىٰ: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[1]، وهي (ثانياً) في السماء وقد قال تعالىٰ خطاباً لإبليس حين إبائه عن السجدة لآدم: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[2]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[3].

فالجواب عن الأول: كما ربما يقال أن القرآن إنما نفى ما نفى من وقوع اللغو والتأثيم في الجنة عن جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون في الآخرة وجنة البرزخ التي يدخلونها بعد الموت والارتحال عن دار التكليف، وأما الجنة التي أُدخل فيها آدم وزوجته وذلك قبل استقرار الإنسان في دار التكليف وتوجه الأمر والنهي، فالقرآن لم ينطق فيه بشيء من ذلك، بل الأمر بالعكس وناهيك في ذلك ما ذكر من وقوع عصيان آدم فيه على أن اللغو والتأثيم من الأمور النسبية التي لا تتحقق إلاّ بعد حلول الإنسان الدنيا وتوجه الأمر والنهي إليه وتلبسه بالتكليف.

والجواب عن الثاني، **أولاً**: أن رجوع الضمير في قوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ وقوله: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ إلى السماء، غير ظاهر من الآية لعدم ذكر السماء في الكلام سابقاً وعدم العهد بها، فمن الجائز أن يكون المراد الخروج من الملائكة والهبوط منها ببعض العنايات، أو الخروج والهبوط من المنزلة والكرامة.

وثانياً: أنه يجوز أن يكون الأمر بالهبوط والخروج كناية عن النهي عن المقام هناك بين الملائكة، لا عن أصل الكون فيها بالعروج والمرور من غير مقام واستقرار كالملائكة، ويلوح إليه بل يشهد به ما ربما يظهر من الآيات من أسترَاق السمع، وقد روي أن الشياطين كانوا يعرجون قبل عيسى عليه السلام إلى السماء السابعة، فلما ولد عيسى منعوا من السماء الرابعة فما فوقها، ثم لما ولد النبي صلى الله عليه وآله منعوا من جميع السماوات وخطفوا بالخطفة.

وثالثاً: أن كلامه تعالىٰ خال عن دخول إبليس الجنة فلا مورد

---

(١) الطور: ٢٣.
(٢) الحجر: ٣٤.
(٣) الأعراف: ١٢.

للاستشكال، وإنما ورد ما ورد من حديث الدخول في الروايات وهي آحاد غير متواترة مع احتمال النقل بالمعنىٰ من الراوي.

وأقصى ما يدل من كلامه تعالىٰ على دخوله الجنة قوله تعالىٰ حكاية عن إبليس: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[1] حيث أتى بلفظة هذه وهي للإشارة من قريب، لكنها لو دلّت هٰهنا على القرب المكاني لدل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]، على مثله.

وفي العيون عن عبد السلام الهروي قال: قلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت؟ فقد أختلف الناس فيها فمنهم من يروي أنها الحنطة، ومنهم من يروي أنها شجرة الحسد، فقال كل ذلك حق، قلت: فما معنىٰ هذه الوجوه على أختلافها؟ فقال: يابن الصلت إن شجرة الجنة تحمل أنواعاً، وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدنيا، وإن آدم لما أكرمه الله تعالىٰ بإسجاد ملائكته له، وبإدخاله الجنة، قال: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عز وجل ما وقع في نفسه فناداه ارفع رأسك يا آدم وانظر إلى ساق العرش، فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً لا إلٰه إلا الله محمّد رسول الله علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، فقال آدم: يا رب من هؤلاء؟ فقال عز وجل: يا آدم هؤلاء ذريتك، وهم خير منك ومن جميع خلقي، ولولاهم ما خلقتك ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض، فإيّاك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأُخرجك عن جواري، فنظر إليهم بعين الحسد وتمنىٰ منزلتهم فتسلط عليه الشيطان حتى أكل من الشجرة التي نهي عنها، وتسلط على حواء فنظرت إلى فاطمة بعين الحسد حتى أكلت من الشجرة كما أكل آدم فأخرجهما الله تعالىٰ من جنته وأهبطهما من جواره إلى الأرض.

أقول: وقد ورد هذا المعنىٰ في عدة روايات بعضها أبسط من هذه

---

(١) الأعراف: ١٩.

(٢) الأعراف: ١٨.

الرواية وأطنب وبعضها أجمل وأوجز.

وهذه الرواية كما ترى سلّم فيها أن الشجرة كانت شجرة الحنطة وشجرة الحسد وأنهما أكلا من شجرة الحنطة ثمرتها وحسدا وتمنيّا منزلة محمّد وآله، ومقتضى المعنى الأول أن الشجرة كانت أخفض شأناً من أن يميل إليها ويشتهيها أهل الجنة، ومقتضى الثاني أنها كانت أرفع شأناً من أن ينالها آدم وزوجته كما في رواية أُخرى أنها كانت شجرة علم محمّد وآله.

وبالجملة لهما معنيان مختلفان، لكنك بالرجوع إلى ما مرّ من أمر الميثاق تعرف أن المعنىٰ واحد وأن آدم أراد أن يجمع بين التمتع بالجنة وهو مقام القرب من الله وفيها الميثاق أن لا يتوجه إلى غيره تعالىٰ وبين الشجرة المنهية التي فيها تعب التعلق بالدنيا فلم يتيسر له الجمع بينهما فهبط إلى الأرض ونسي الميثاق فلم يجتمع له الأمران وهو منزلة النبي، ثم هداه الله بالاجتباء ونزعه بالتوبة من الدنيا، وألحقه بما كان نسيه من الميثاق؛ فافهم.

وقوله: فنظر إليهم بعين الحسد وتمنىٰ منزلتهم فيه بيان أن المراد بالحسد تمني منزلتهم دون الحسد الذي هو أحد الأخلاق الرذيلة.

وبالبيان السابق يرتفع التنافي الذي يتراءى بين ما رواه في كمال الدين عن الشمالي عن أبي جعفر، قال: إن الله عزّ وجلّ عهد إلى آدم أن لا يقرب الشجرة، فلما بلغ الوقت الذي في علم الله أن يأكل منها نسي فأكل منها وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾، الحديث.

وبين ما رواه العيّاشي في تفسيره عن أحدهما وقد سئل كيف أخذ الله آدم بالنسيان؟ فقال: إنه لم ينس وكيف ينسى وهو يذكر ويقول له إبليس: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الحديث. والوجه فيه واضح.

وفي أمالي الصدوق عن أبي الصلت الهرويّ، قال لمّا جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا أهل المقالات من أهل الإسلام والديانات من اليهود والنصارىٰ والمجوس والصابئين وسائر أهل المقالات فلم يقم أحد

حتى ألزم حجّته كأنه أُلقم حجراً فقام إليه علي بن محمّد بن الجهم فقال له: يابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ قال: بلىٰ، قال: فما تعمل بقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ إلى أن قال: فقال مولانا الرضا عليه السلام: ويحك يا علي اتّق الله ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش ولا تتأوّل كتاب الله عزّ وجلّ برأيك فإن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾. أما قوله عزّ وجلّ في آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فإن الله عزّ وجلّ خلق آدم حجة في أرضه وخليفة في بلاده لم يخلقه للجنة، وكانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير أمر الله عزّ وجلّ، فلما أُهبط إلى الأرض وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عزّ وجلّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾؛ الحديث.

أقول قوله: وكانت المعصية في الجنة إلخ، إشارة إلى ما قدمناه أن التكليف الديني المولوي لم يكن مجعولاً في الجنة بعد، وإنما موطنه الحياة الأرضية المقدرة لآدم عليه السلام بعد الهبوط إلى الأرض، فالمعصية إنما كانت معصية لأمر إرشادي غير مولوي فلا وجه لتعسّف التأويل في الحديث على ما ارتكبه بعض.

وفي العيون عن علي بن محمّد بن الجهم، قال: حضرت مجلس المأمون وعنده علي بن موسى عليه السلام فقال له المأمون: يابن رسول الله أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ فقال: بلىٰ، قال: فما معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟ قال: إن الله تعالىٰ قال لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وأشار لهما إلى شجرة الحنطة ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل لهما: لا تأكلا من هذه الشجرة ولا مما كان من جنسها فلم يقربا تلك الشجرة ولم يأكلا منها وإنما أكلا من غيرها لما أن وسوس الشيطان إليهما وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة وإنما نهاكما أن تقربا غيرها ولم ينهكما أن تأكلا منها إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً فدلاهما بغرور فأكلا منها ثقة بيمينه بالله، وكان ذلك من آدم قبل النبوة ولم يكن ذلك بذنب كبير

أستحق به دخول النار، وإنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي إليهم، فلما آجتباه الله وجعله نبياً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾؛ الحديث.

أقول: قال الصدوق رحمه الله بعد نقل الحديث على طوله: والحديث عجيب من طريق علي بن محمّد بن الجهم مع نصبه وبغضه وعداوته لأهل البيت عليهم السلام، أنتهىٰ.

وما أعجبه منه إلاّ ما شاهده من آشتماله على تنزيه الأنبياء من غير أن يمعن النظر في الأُصول المأخوذة فيه، فما نقله من جوابه عليه السلام في آدم لا يوافق مذهب أئمة أهل البيت المستفيض عنهم من عصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها.

على أن الجواب مشتمل على تقدير في قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا﴾، إلى مثل قولنا: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة وإنما نهاكما عن غيرها وما نهاكما عن غيرها إلاّ أن تكونا إلخ. على أن قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ الآية، يدل على أن إبليس إنما كان يحرضهما على الأكل من شخص الشجرة المنهية تطميعاً في الخلود والملك الذي حجب عنه بالنهي، على أن الرجل أعني علي بن محمّد بن الجهم قد أخذ الجواب الصحيح التام بنفسه في مجلس المأمون كما رويناه في الحديث السابق، فالرواية لا تخلو عن شيء وإن كان بعض هذه الوجوه ممكن الاندفاع، هذا.

وروى الصدوق، عن الباقر عليه السلام: عن آبائه عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّما لبث آدم وحواء في الجنة حتى أخرجا منها سبع ساعات من أيام الدنيا حتى أهبطهما الله في يومهما.

وفي تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان، قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام وأنا حاضر: كم لبث آدم وزوجته في الجنة حتى أخرجهما منها لخطيئة؟

فقال: إن الله تبارك وتعالىٰ نفخ في آدم من روحه بعد زوال الشمس من يوم الجمعة ثم برأ زوجته من أسفل أضلاعه ثم أسجد له ملائكته وأسكنه جنته من يومه ذلك، فوالله ما أستقر فيها إلاّ ست ساعات من يومه ذلك حتى عصى الله تعالىٰ، فأخرجهما الله منها بعد غروب الشمس وصيّرا بفناء الجنة حتى أصبحا فبدت لهما سوآتهما وناداهما ربهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة فاستحيىٰ آدم فخضع وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾، قال الله لهما اهبطا من سماواتي إلى الأرض، فإنه لا يجاورني في جنتي عاص ولا في سماواتي.

أقول: ويمكن أن يستفاد ما يشتمل عليه الرواية من كيفية خروجهما وأنه كان أولاً من الجنة إلى فنائها ومن فنائها إلى الأرض من تكرر الأمر بالهبوط في الآية مع كونه أمراً تكوينياً غير قابل التخلف، وكذا من تغيير السياق في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ الآية: حيث عبَّر في الأول بالقول وبالإشارة القريبة وفي الثاني بالنداء والإشارة البعيدة، غير أن الرواية مشتملة على خلق حواء من أسفل أضلاع آدم كما أشتملت عليه التوراة، والروايات عن أئمة أهل البيت تكذبه كما سيجيء في البحث عن خلقة آدم، وإن أمكن أن يحمل خلقها من فاضل طينة آدم مما يلي أضلاعه هذا، وأما ساعات مكثه في الجنة وأنها ستة أو سبعة فالأمر فيها هيّن فإنما هو تقريب.

وفي الكافي: عن أحدهما عليهما السلام في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَٰتٍ﴾، قال: «لا إله إلاّ أنت * سبحانك اللهم وبحمدك * عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين * لا إله إلاّ أنت * سبحانك اللهم وبحمدك * عملت سوءاً وظلمت فاغفر لي وارحمني وأنت أرحم الراحمين * لا إله إلاّ أنت سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التوّاب الرَّحيم».

أقول: وروى هذا المعنى الصدوق والعياشي والقمي وغيرهم، وعن طرق أهل السنة والجماعة أيضاً ما يقرب من ذلك، وربما استفيد من ظاهر

وقال الكليني في الكافي، وفي رواية أُخرىٰ في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾، قال: سأله بحق محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين.

أقول: وروىٰ هذا المعنى أيضاً الصدوق والعياشي والقمي وغيرهم، وروي ما يقرب من ذلك من طرق أهل السنة والجماعة أيضاً كما رواه في الدر المنثور عن النبي ﷺ، قال: لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى السماء، فقال: أسألك بحق محمّد إلاّ غفرت لي فأوحى الله إليه، ومن محمّد؟ قال: تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إلٰه إلاّ الله محمّد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحد عندك أعظم قدراً ممن جعلت أسمه مع اسمك فأوحى الله إليه يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك.

أقول: وهذا المعنىٰ وإن كان بعيداً عن ظاهر الآيات في بادىء النظر لكن إشباع النظر والتدبير فيها ربما قرب ذلك تقريباً، إذ قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾، يشتمل على معنى الأخذ مع الاستقبال، ففيه دلالة على أخذ هذه الكلمات من ربه، ففيه علم سابق على التوبة، وقد كان ﷺ تعلم من ربه الأسماء كلها إذ قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، فهذا العلم كان من شأنه إزاحة كل ظلم ومعصية لا محالة ودواء كل داء وإلاّ لم يتم الجواب عمّا أورده الملائكة ولا قامت الحجة عليهم لأنه سبحانه لم يذكر قبال قولهم: يفسد فيها ويسفك الدماء شيئاً ولم يقابلهم بشيء دون أن علم آدم الأسماء كلها ففيه إصلاح كل فاسد، وقد عرفت ما حقيقة هذه الأسماء، وأنها موجودات عالية مغيبة في غيب السماوات والأرض، ووسائط فيوضاته تعالىٰ لما دونها، لا يتم كمال لمستكمل إلاّ ببركاتها وقد ورد في بعض الأخبار أنه رأىٰ أشباح أهل البيت وأنوارهم حين علم الأسماء، وورد أنه رآها حين أخرج الله ذريته من ظهره، وورد أيضاً أنه رآها

وهو في الجنة فراجع والله الهادي. وقد أبهم الله أمر هذه الكلمات في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ الآية حيث نكرها، وورد في القرآن إطلاق الكلمة على الموجود العيني صريحاً في قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[1].

وأما ما ذكره بعض المفسرين: إن الكلمات التي حكاها الله عنهما في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ الآية، ففيه: أن التوبة كما تدل عليه الآيات سورة البقرة وقعت بعد الهبوط إلى الأرض، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إلى أن قال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الآيات، وهذه الكلمات تكلم بها آدم وزوجته قبل الهبوط وهما في الجنة كما في سورة الأعراف، قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ أَلَمْ نَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ إلى أن قال: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الآيات، بل الظاهر أن قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، تذلل منهما وخضوع قبال ندائه تعالىٰ وإيذان بأن الأمر إلى الله سبحانه كيف يشاء بعد الاعتراف بأن له الربوبية وأنهما ظالمان مشرفان على خطر الخسران.

وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام قال: إن موسىٰ سأل ربه أن يجمع بينه وبين آدم، فجمع فقال له موسىٰ: يا أبت ألم يخلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك الملائكة وأمرك أن لا تأكل من الشجرة؟ فلم عصيته؟ قال: يا موسى بكم وجدت خطيئتي قبل خلقي في التوراة؟ قال: بثلاثين ألف سنة؛ قال: فقال: هو ذاك، قال الصادق عليه السلام فحجج آدم موسىٰ.

أقول: وروىٰ ما يقرب من هذا المعنى العلامة السيوطي في الدر المنثور بعدة طرق عن النبي صلى الله عليه وآله.

وفي العلل: عن الباقر عليه السلام: والله لقد خلق آدم للدنيا، وأسكنه الجنة ليعصيه فيرده إلى ما خلقه له.

أقول: وقد مرَّ رواية العياشي عن الصادق عليه السلام في خليل كان لآدم من

---

(١) آل عمران: ٤٥.

الملائكة، الحديث في هذا المعنىٰ.

وفي الاحتجاج: في احتجاج علي مع الشامي حين سأله: عن أكرم وادٍ على وجه الأرض، فقال عليه السلام: وادٍ يقال له سراندیب سقط فيه آدم من السماء.

أقول: وتقابلها روايات مستفيضة تدل على سقوطه في أرض مكة وقد مرّ بعضها ويمكن التوفيق بينها بإمكان نزوله أولاً بسراندیب ثم هبوطه إلى أرض مكة وليس بنزولين عرضيّين هذا.

وفي الدر المنثور عن الطبراني وأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أرأيت آدم أنبيّاً كان؟ قال: نعم كان نبياً رسولاً، كلّمه الله قبلاً، قال له: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أقول: وروى أهل السنّة والجماعة قريباً من هذا المعنىٰ بعدة طرق[1].

❀ ❀ ❀

(١) هذه الفصول كلها مذكورة في الميزان المجلد ١ ص ١١٦ وما بعدها.

الفصل السابع:

قصة آدم في التوراة والقرآن الكريم

في الإصحاح الرابع من سفر التكوين من التوراة ما نصه: (١) وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب (٢) ثم عادت فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض (٣) وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب (٤) وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها فنظر الرب إلى هابيل وقربانه (٥) ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه (٦) فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك (٧) إن أحسنت أفلا رفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها. (٨) وكلم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله (٩) فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك؟ فقال لا أعلم أحارس أنا لأخي (١٠) فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إليّ من الأرض (١١) فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك (١٢) متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها تائهاً وهارباً تكون في الأرض (١٣) فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يتحمل (١٤) إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض فيكون كل من وجدني يقتلني (١٥) فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده (١٦) فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن، انتهى.

والذي في القرآن من قصتهما قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

وعليك أن تتدبر ما تشتمل عليه القصة على ما قصتها التوراة وعلى ما قصها القرآن ثم تطبق بينهما ثم تقضي ما أنت قاض.

فأول ما يبدو لك من التوراة أنها جعلت الرب تعالى موجوداً أرضياً على صورة إنسان يعاشر الناس، يحكم لهم وعليهم كما يحكم أحد الناس فيهم، ويدنى ويقترب منه ويكلم كما يفعل ذلك أحدهم مع غيره ثم يختفى منه بالابتعاد والغيبة فلا يرى البعيد الغائب كما يرى القريب الحاضر، وبالجملة فحاله حال إنسان أرضي من جميع الجهات غير أنه نافذ الإرادة إذا أراد، ماضي الحكم إذا حكم، وعلى هذا الأساس يبتني جميع تعليمات التوراة والإنجيل فيما يبثان من التعليم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولازم القصة التي فيها: أن البشر كان يعيش يومئذٍ على حال المشافهة والحضور عند الله سبحانه، ثم احتجب عن قايين أو عنه وعن أمثاله وبقي الباقون على حالهم مع أن البراهين القاطعة قائمة على أن الإنسان نوع واحد متماثل الأفراد عائش في الدنيا عيشة دنيوية مادية وأن الله جل شأنه منزه عن الاتصاف بصفات المادة وأحوالها متقدس عن لحوق عوارض الإمكان وطوارق النقص والحدثان، وهو الذي يبينه القرآن.

وأما القرآن فإنه يقص القصة على أساس تماثل الأفراد غير أنه يذيل قصة القتل بقصة بعث الغراب فيكشف عن حقيقة كون الإنسان تدريجي الكمال بانياً استكماله في مدارج الكمال الحيوي على أساس الحس والفكر.

ثم يذكر محاورة الأخوين فيقص عن المقتول من غرر المعارف

الفطرية الإنسانية وأصول المعارف الدينية من التوحيد والنبوة والمعاد، ثم أمر التقوى والظلم وهما الأصلان العاملان في جميع القوانين الإلهية والأحكام الشرعية، ثم العدل الإلهي في مسألة القبول والرد والمجازاة الأخروية.

ثم ندامة القاتل بعد صنعه وخسرانه في الدنيا والآخرة، ثم يبين بعد ذلك كله أن القتل من شآمة أمره أن الذي يقع منه على نفس واحدة كالذي يقع منه على الناس جميعاً وأن من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً. . .[1].

(١) انظر هذا البحث العلمي في المجلد الخامس صفحة ٣٣٠ من الميزان.

قصة إدريس عليه السلام في القرآن الكريم

١ ـ ذكره في القرآن

لم يذكر ﷺ في القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] وفي قوله: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

وفي الآيات ثناء منه تعالى عليه جميل فقد عدّه نبياً وصديقاً ومن الصابرين ومن الصالحين، وأخبر أنه رفعه مكاناً علياً.

٢ ـ الروايات الواردة في قصته:

ومن الروايات الواردة في قصته ما عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده عن إبراهيم بن أبي البلاد عن أبيه عن الباقر ﷺ ـ والحديث طويل لخّصناه ـ أنه كان بدء نبوة إدريس ﷺ أنه كان في زمانه ملك جبار، وركب ذات يوم في بعض نزهه فمر بأرض خضراء نضرة أعجبته فأحب أن يمتلكها وكانت الأرض لعبد مؤمن فأمر بإحضاره وساومه فيها ليشتريها فلم يبعها ولم يرض به فرجع الملك إلى البلدة وهو مغموم متحير في أمره فاستشار امرأة له كان يستشيرها في هامة الأمور فأشارت عليه أن يقيم عليه شهوداً أنه خرج عن دين الملك فيقتله ويملك أرضه ففعل ما أشارت إليه وغصب الأرض. فأوحى الله إلى إدريس أن يأتي الملك ويقول له عنه: أما رضيت أن قتلت عبدي المؤمن ظلماً حتى استلخصت أرضه خالصة لك وأحوجت عياله من

---

(١) مريم: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦.

بعده وأجعتهم؟ أما وعزتي لأنتقمن له منك في الآجل ولأسلبن ملكك في العاجل ولأخربن مدينتك ولأذلن عزك ولأطعمن الكلاب لحم امرأتك فقد غرّك يا مبتلى حلمي عنك.

فأتاه إدريس برسالة الله وبلّغه ذلك في ملأ من أصحابه فأخرجه الملك من مجلسه ثم أرسل إليه بإشارة من امرأته قوماً يقتلونه فانتبه لذلك بعض أصحاب إدريس وأشاروا عليه بالخروج والهجرة فخرج منها ليومه ومعه بعض أصحابه ثم ناجى ربه وشكى إليه ما لقيه من الملك في رسالته إليه فأوحى إليه بالخروج من القرية وأنه سينفذ في الملك أمره ويصدّق فيه قوله، ثم سأل أن لا تمطر السماء على القرية وما حولها حتى يسأل ذلك فأجيب إليه.

فأخبر إدريس بذلك أصحابه من المؤمنين وأمرهم بالخروج منها فخرجوا وتفرقوا في البلاد وكانوا عشرين رجلاً وشاع خبر وحيه وخروجه بين الناس، وخرج هو متنحياً إلى كهف في جبل شاهق يعبد الله فيه ويصوم النهار ويأتيه الملك بطعام يفطر به عند كل مساء. وأنفذ الله في الملك وامرأته ومدينته ما أوحاه إلى إدريس وظهر في المدينة جبار آخر عاص، وأمسكت السماء عنهم أمطارها عشرين سنة حتى جهدوا واشتدت حالهم فلما بلغ بهم الجهد ذكر بعضهم لبعض أن الذي لقوه من الجهد والمشقة إنما هو لدعاء إدريس عليهم أن لا يمطروا حتى يسألوه وخروجه من بينهم وهم لا يعلمون أين هو؟ فالرأي أن يرجعوا ويتوبوا إلى الله ويسألوه المطر فهو أرحم بهم منه فاجتمعوا على الدعاء والتضرع.

فأوحى الله إلى إدريس أن القوم عجّوا إليّ بالتوبة والاستغفار والبكاء والتضرع وقد رحمتهم وما يمنعني من إمطارهم إلا مناظرتك فيما سألتني أن لا أمطر السماء عليهم حتى تسألني فاسألني حتى أغيثهم، قال إدريس: اللهم إني لا أسألك.

فأوحى الله إلى الملك الذي كان يأتيه بالطعام أن يمسك عنه فأمسك عنه ثلاثة أيام حتى بلغ به الجوع فنادى: اللهم حبست عني رزقي من قبل أن تقبض روحي فأوحى الله إليه: يا إدريس جزعت أن حبست عنك طعامك ثلاثة أيام ولم تجزع من رجوع أهل قريتك وجهدهم منذ عشرين سنة ثم

سألتك أن تسألني أن أمطر عليهم فبخلت ولم تسأل فأدبتك بالجوع فاهبط من موضعك واطلب المعاش لنفسك فقد وكلتك في طلبه إلى حيلتك.

فهبط إدريس إلى قرية هناك ونظر إلى بيت يصعد منه دخان فهجم عليه وإذا عجوز كبيرة ترقق قرصتين لها على مقلاة فسألها أن تطعمه فقد بلغ به جهد الجوع فقالت: يا عبد الله ما تركت لنا دعوة إدريس فضلاً نطعمه أحداً ـ وحلفت أنها لا تملك غيره شيئاً ـ فاطلب المعاش من غير أهل هذه القرية فقال لها: أطعميني ما أُمسك به روحي وتقوم به رجلي حتى أطلب، قالت: إنهما قرصتان واحدة لي والأُخرى لابني فإن أطعمتك قوتي متُّ وإن أطعمتك قوت ابني مات وليس ها هنا فضل، قال: إن ابنك صغير يجزيه نصف قرصة فأطعمي كلاً منا نصفاً يكون لنا بلغة فرضيت وفعلت.

فلما رأى ابنها إدريس وهو يأكل من قرصته اضطرب حتى مات قالت أمه: يا عبد الله قتلت ابني جزعاً على قوته فقال: لا تجزعي فأنا أُحييه لك الساعة بإذن الله وأخذ بعضدي الصبي وقال أيتها الروح الخارجة عن بدنه بأمر الله ارجعي إلى بدنه بإذن الله وأنا إدريس النبي، فرجعت روح الغلام إليه.

فلما سمعت أُمه كلام إدريس وقوله: أنا إدريس ونظرت إلى ابنها حيّاً قالت: أشهد أنك إدريس النبي وخرجت تنادي بأعلى صوتها في القرية: أبشروا بالفرج فقد دخل إدريس في قريتكم، فمضى إدريس حتى جلس على موضع مدينة الجبار الأول وقد تبدلت تلاً من تراب فاجتمع إليه أُناس من أهل قريته واسترحموه وسألوه أن يدعو لهم فيمطروا. قال: لا، حتى يأتيني جباركم هذا وجميع أهل قريتكم مشاة حفاة فيسألوني ذلك.

فبلغ ذلك الجبار فبعث إلى إدريس أربعين رجلاً وأمرهم أن يأتوا به إليه، فلما جاءوه وكلّفوه الذهاب معهم إليه، دعا عليهم فماتوا عن آخرهم، ثم أرسل خمسمائة رجل فلما أتوه كلّفوه الذهاب واسترحموه فأراهم مصارع أصحابهم وقال: ما أنا بذاهب إليه ولا سائل حتى يأتيني هو وجميع أهل القرية مشاة حفاة ويسألوني الدعاء للمطر.

فانطلقوا إليه وأخبروه بما قال وسألوه أن يمضي إليه هو وجميع أهل

القرية مشاة حفاة ويسألوه أن يسأل الله أن تمطر السماء، فأتوه حتى وقفوا بين يديه خاضعين متذللين وسألوه أن يسأل الله أن تمطر السماء عليهم، فعند ذلك دعا إدريس أن تمطر السماء عليهم فأظلّتهم سحابة من السماء وأرعدت وأبرقت وهطلت عليهم من ساعتهم حتى ظنوا أنه الغرق فما رجعوا إلى منازلهم حتى أهمّتهم أنفسهم من الماء.

وفي الكافي بإسناده عن عبد الله بن أبان عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه مسجد السهلة: أما علمت أنه موضع بيت إدريس النبي الذي كان يخيط فيه.

أقول: وقد شاع بين أهل السير والآثار أنه عليه السلام أول من خط بالقلم وأول من خاط.

وفي تفسير القمي قال: وسمّي إدريس لكثرة دراسته الكتب.

أقول: ورد في بعض الروايات في معنى قوله تعالى في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ أن الله غضب على ملك من الملائكة فقطع جناحه وألقاه في جزيرة من جزائر البحر فبقي هناك ما شاء الله، فلما بعث الله إدريس جاءه ذلك الملك وسأله أن يدعو الله أن يرضى عنه ويردّ إليه جناحه، فدعا له إدريس فردّ الله جناحه إليه ورضي عنه.

قال الملك لإدريس: ألك حاجة؟ قال: نعم أحب أن ترفعني إلى السماء حتى أنظر إلى ملك الموت فلا عيش لي مع ذكره، فأخذه الملك على جناحه حتى انتهى به إلى السماء الرابعة فإذا هو بملك الموت يحرّك رأسه تعجباً، فسلم عليه إدريس وقال له: ما لك تحرّك رأسك؟ قال: إن رب العزة أمرني أن أقبض روحك بين السماء الرابعة والخامسة. فقلت: يا رب كيف يكون هذا وبيني وبينه أربع سماوات وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام؟ ثم قبض روحه بين السماء الرابعة والخامسة وهو قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

روى الحديث علي بن إبراهيم القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن أبي عمير عمن حدثه عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى ما في معناه في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن عمرو بن عثمان عن مفضّل بن صالح عن جابر

عن أبي جعفر عليه السلام عن النبي ﷺ. والروايتان على ما بهما وخاصة في الثانية منهما من ضعف السند لا معوّل عليهما لمخالفتهما ظاهر الكتاب لنصّه على عصمة الملائكة ونزاهتهم عن الذنب والخطيئة.

وروى الثعلبي في العرائس عن ابن عباس وغيره ما ملخصه أن إدريس سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس فقال: إني مشيت في الشمس يوماً فتأذيت فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد! اللهم خفّف عنه ثقلها واحمل عنه حرّها، فاستجاب الله له فأحس الملك الذي يحملها بذلك فسأل الله في ذلك فأخبره بما كان من دعاء إدريس واستجابته فسأله تعالى أن يجمع بينه وبين إدريس ويجعل بينهما خلة فأذن له.

فكان إدريس يسأله وكان مما سأله: إنك أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وأمكنهم عنده فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي حتى أزداد شكراً وعبادة فقال الملك: لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها. قال: نعم ولكنه أطيب لنفسي، قال الملك أنا مكلمه لك وما كان يستطيع أن يفعله لأحد من بني آدم فهو فاعله لك.

ثم حمله الملك على جناحه ورفعه إلى السماء فوضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملك الموت وذكر له حاجة إدريس وشفع له فقال ملك الموت: ليس ذلك إليّ ولكن إن أحببت أعلمته أجله. قال: نعم فنظر في ديوانه وأخبره باسمه وقال: ما أراه يموت أبداً. فإنه أجده يموت عند مطلع الشمس! قال: فإني أتيتك وقد تركته هناك. قال له: انطلق فلا أراك تجده إلا ميتاً فوالله ما بقي من أجله شيء فرجع الملك إليه فوجده ميتاً.

ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عباس عن كعب إلا أن فيه أن النازل على إدريس الملك الذي كان يرفع إليه عمله وقد كان يرفع له من العمل ما يعدل عمل أهل الأرض في زمانه فأعجبه ذلك فسأل الله أن ينزل إليه فأذن له فنزل إليه وصحبه «إلخ» وروى ابن أبي حاتم بطريق آخر عن ابن عباس هذا الحديث وفيه أن إدريس مات بين جناحي الملك. وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفعه إلى النبي ﷺ أن إدريس كان يرفع له وحده من العمل ما يعدل عمل أهل الأرض كلهم فأعجب ذلك ملك الموت فاستأذن الله في النزول إلى

الأرض وصحبته فأذن له فنزل إليه وصحبه فكانا يسيحان في الأرض ويعبدان الله فأعجب إدريس ما رآه من عبادة صاحبه من غير كسل ولا فتور فسأله عن ذلك وأحفى في السؤال حتى عرّفه ملك الموت نفسه وذكر له قصة نزوله وصحبته.

فلما عرفه إدريس سأله ثلاث حوائج له: أن يقبض روحه ساعة ثم يردها إليه فاستأذن الله وفعل، وأن يرفعه إلى السماء ويريه النار فاستأذن وفعل، وأن يريه الجنة فاستأذن وفعل فدخل الجنة وأكل من ثمارها وشرب من مائها فقال له ملك الموت:

اخرج يا نبيّ الله فقد أصبت حاجتك، فامتنع من الخروج وتعلق بشجرة هناك، وخاصم ملك الموت قائلاً: قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وقد ذقته، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وقد وردت النار، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ولست أخرج من الجنة بعد دخولها فأوحى الله إلى ملك الموت: خصمك عبدي فاتركه ولا تتعرض له فبقي في الجنة. ورواه في العرائس عن وهب وفي آخره: فهو حي هناك فتارة يعبد الله في السماء الرابعة وتارة يتنعم في الجنة.

وفي مستدرك الحاكم عن سمرة كان إدريس أبيض طويلاً ضخم البطن عريض الصدر قليل شعر الجسد كثير شعر الرأس، وكانت إحدى عينيه أعظم من الأخرى، وكانت في صدره نكتة بيضاء من غير برص فلما رأى الله من أهل الأرض ما رأى من جورهم واعتدائهم في أمر الله، رفعه الله إلى السماء السادسة فهو حيث يقول: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾.

أقول: ولا يرتاب الناقد البصير في أن هذه الروايات إسرائيليات لعبت بها أيدي الوضع، وتدفعها الموازين العلمية والأصول المسلمة من الدين.

٣ ـ ترجمة إدريس عليه السلام:

ويسمّى عليه السلام بهرمس قال القفطي في كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء في ترجمة إدريس: اختلف الحكماء في مولده ومنشئه وعمّن أخذ العلم قبل النبوة فقالت فرقة: ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة، ومولده بمنف، وقالوا هو باليونانية إرميس وعرّب بهرمس، ومعنى إرميس عطارد،

وقال آخرون: اسمه باليونانية طرميس، وهو عند العبرانيين خنوخ وعرّب أخنوح وسماه الله عزّ وجلّ في كتابه العربي المبين إدريس.

وقال هؤلاء: إن معلمه اسمه الغوثاذيمون وقيل: أغثاذيمون المصري، ولم يذكروا من كان هذا الرجل؟ إلا أنهم قالوا: إنه أحد الأنبياء اليونانيين والمصريين وسموه أيضاً أورين الثاني وإدريس عندهم أورين الثالث، وتفسير غوثاذيمون السعيد الجدّ، وقالوا: خرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها، وذاك بعد اثنتين وثمانين سنة من عمره.

وقالت فرقة أُخرى: إن إدريس ولد ببابل ونشأ بها وإنه أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه لأن إدريس ابن يارد بن مهلائيل ابن قينان بن أنوش بن شيث. قال الشهرستاني إن أغثاذيمون هو شيث.

ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك فثقل عليهم الرحيل من أوطانهم فقالوا له: وأين نجد إذا رحلنا مثل بابل؟ وبابل بالسريانية النهر وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات، فقال: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره.

فخرج وخرجوا وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذي سمي بابليون فرأوا النيل ورأوا وادياً خالياً من ساكن فوقف إدريس على النيل وسبّح الله وقال لجماعته: بابليون، واختلف في تفسيره فقيل: نهر كبير، وقيل: نهر كنهرهم، وقيل: نهر مبارك، وقيل: إن يون في السريانية مثل أفعل التي للمبالغة في كلام العرب وكأن معناه نهر أكبر فسمي الإقليم عند جميع الأمم بابليون، وسائر فرق الأمم على ذلك إلا العرب فإنهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان والله أعلم بكل ذلك.

وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل، وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لساناً، وعلّمه الله عزّ وجلّ منطقهم ليعلّم كل فرقة منهم بلسانها. ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة فعرّفهم السياسة

المدنية، وقرّر لهم قواعدها فبنت كل فرقة من الأمم مدناً في أرضها، وكانت عدة المدن التي أُنشئت في زمانه مائة مدينة وثماني وثمانين مدينة أصغرها الرها وعلّمهم العلوم.

وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم فإن الله عزّ وجلّ أفهمه سر الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك.

وأقام للأمم سنناً في كل إقليم تليق كل سنة بأهلها، وقسّم الأرض أربعة أرباع وجعل على كل ربع ملكاً يسوس أمر المعمور من ذلك الرّبع، وتقدم إلى كل ملك بأن يلزم أهل كل ربع بشريعة سأذكر بعضها، وأسماء الأربعة الملوك الذين ملكوا: الأول إيلاوس وتفسيره الرحيم، والثاني أوس، والثالث سقلبيوس والرابع أوس آمون، وقيل: إيلاوس آمون، وقيل: يسيلوخس وهو آمون الملك، انتهى موضع الحاجة.

وهذه أحاديث وأنباء تنتهي إلى ما قبل التاريخ لا يعوّل عليها ذاك التعويل غير أن بقاء ذكره الحي بين الفلاسفة وأهل العلم جيلاً بعد جيل وتعظيمهم له واحترامهم لساحته وإنهاءهم أصول العلم إليه يكشف عن أنه من أقدم أئمة العلم الذين ساقوا العالم الإنساني إلى ساحة التفكر الاستدلالي والإمعان في البحث عن المعارف الإلهية أو هو أولهم عليه السلام...[1].

(١) انظر المجلد الرابع عشر صفحة ٦٥ من الميزان.

قصة نوح عليه السلام

١ ـ **الإشارة إلى قصته**: ذكر اسمه عليه السلام في القرآن في بضع وأربعين موضعاً يشار فيها إلى شيء من قصته إجمالاً أو تفصيلاً، ولم تستوف قصته عليه السلام في شيء منها استيفاء على نهج الاقتصاص التاريخي بذكر نسبه وبيته ومولده ومسكنه ونشوئه وشغله وعمره ووفاته ومدفنه وسائر ما يتعلق بحياته الشخصية لما أن القرآن لم ينزل كتاب تاريخ يقتص تواريخ الناس من برّ أو فاجر.

وإنما هو كتاب هداية يصف للناس ما فيه سعادتهم، ويبيّن لهم الحق الصريح ليأخذوا به فيفوزوا في حياتهم الدنيا والآخرة، وربما أشار إلى طرف من قصص الأنبياء والأمم لتظهر به سنّة الله في عباده، ويعتبر به من شملته العناية ووفّق للكرامة، وتتم به الحجة على الباقين.

وقد فصّلت قصة نوح عليه السلام في ست من السور القرآنية وهي سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة المؤمنون، وسورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة نوح وأكثرها تفصيلاً سورة هود التي ذكرت قصته عليه السلام فيها في خمس وعشرين آية (٢٥ ـ ٤٩).

٢ ـ **قصته عليه السلام في القرآن**:

بعثه وإرساله:

كان الناس بعد آدم عليه السلام يعيشون أُمة واحدة على بساطة وسذاجة، وهم على الفطرة الإنسانية حتى فشا فيهم روح الاستكبار وآل إلى استعلاء البعض على البعض تدريجياً واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً وهذه هي النواة الأصلية التي لو نشأت واخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والاختلاف الشديد

بين الطبقات الاجتماعية باستخدام القوي للضعيف، واسترقاق العزيز واستدراره للذليل، وحدوث المنازعات والمشاجرات بين الناس.

فشاع في زمن نوح عليه السلام الفساد في الأرض، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي وأقبلوا على عبادة الأصنام، وقد سمَّى الله سبحانه منها وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً (سورة نوح).

وتباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء والجبابرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم (الأعراف ـ هود ـ نوح).

فبعث الله نوحاً عليه السلام وأرسله إليهم بالكتاب والشريعة يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وخلع الأنداد والمساواة فيما بينهم[1] بالتبشير والإنذار.

بينه وشريعته عليه السلام

كان عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه ورفض الشركاء (كما يظهر من جميع قصصه القرآنية) والإسلام لله (كما يظهر من سورتي نوح ويونس وسورة آل عمران آية ١٩) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كما يظهر من سورة هود آية ٢٧) والصلاة (كما يظهر من آية ١٠٣ من سورة النساء وآية ٨ من سورة الشورى) والمساواة والعدالة وأن لا يقربوا الفواحش والمنكرات وصدق الحديث والوفاء بالعهد[2] وهو عليه السلام أول من حكي عنه في القرآن التسمية باسم الله في الأمور الهامة[3].

اجتهاده عليه السلام في دعوته

وكان عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان بالله وآياته، ويبذل في ذلك غاية وسعه فيندبهم إلى الحق ليلاً ونهاراً وإعلاناً وإسراراً فلا يجيبونه إلا بالعناد

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) هود: ٤١.

والاستكبار وكلما زاد في دعائهم زادوا في عتوّهم وكفرهم، ولم يؤمن به غير أهله وعدَّة قليلة من غيرهم حتى أيس من إيمانهم وشكا ذلك إلى ربه وطلب منه النصر (سورة نوح والقمر والمؤمنون).

لبثه في قومه:

لبث عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزء والسخرية ورميه بالجنون وأنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر به (سورة العنكبوت) فأوحى إليه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن وعزّاه فيهم (سورة هود) فدعا عليهم بالتبار والهلاك، وأن يطهر الله الأرض منهم عن آخرهم (سورة نوح) فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا (سورة هود).

صنعه عليه السلام الفلك:

أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه وتسديده فأخذ في صنعها وكان القوم يمرّون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء، ويقول عليه السلام: إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (سورة هود) وقد نصب الله لنزول العذاب علماً وهو أن يفور الماء من التنور (سورتا هود والمؤمنون).

نزول العذاب ومجيء الطوفان:

حتى إذا تمت صنعة الفلك وجاء أمر الله وفار التنور أوحى الله تعالى إليه أن يحمل في السفينة من كل من الحيوان زوجين اثنين وأن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول الإلهي بالغرق وهو امرأته الخائنة وابنه الذي تخلّف عن ركوب السفينة، وأن يحمل الذين آمنوا (سورتا هود والمؤمنون) فلما حملهم وركبوا جميعاً فتح الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر (سورة القمر) وعلا الماء وارتفعت السفينة عليه وهي تسير في موج كالجبال (سورة هود) فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون وقد أمره الله تعالى إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يحمد الله على ما

نجاه من القوم الظالمين وأن يسأله البركة في نزوله فيقول: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، ويقول: رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين.

قضاء الأمر ونزوله ومن معه إلى الأرض:

فلما عمّ الطوفان وأغرق الناس (كما يظهر من سورة الصافّات آية ٧٧) أمر الله الأرض أن تبلع ماءها والسماء أن تقلع وغيض الماء واستوت السفينة على جبل الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين، وأوحي إلى نوح عليه السلام أن اهبط إلى الأرض بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممَّن معك فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام، ومنهم أمم سيمتعهم الله بأمتعة الحياة ثم يمسّهم عذاب أليم فخرج هو ومن معه ونزلوا الأرض يعبدون الله بالتوحيد والإسلام، وتوارثت ذرّيته عليه السلام الأرض وجعل الله ذريته هم الباقين (سورتا هود والصافات).

قصة ابن نوح الغريق:

كان نوح عليه السلام عندما ركب السفينة لم يركبها واحد من أبنائه، وكان لا يصدق أباه في أن من تخلف عنها فهو غريق لا محالة فرآه أبوه وهو في معزل فناداه: يا بني اركب ولا تكن مع الكافرين فردّ على أبيه قائلاً: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال نوح عليه السلام: لا عاصم اليوم من الله إلا من رحم - يريد أهل السفينة - فلم يلتفت الابن إلى قوله وحال بينهما الموج فكان من المغرقين.

ولم يكن نوح عليه السلام يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته ولو كان علم ذلك لم يحزنه أمره وهو القائل في دعائه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ الدعاء[1] وهو القائل: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾[2] وقد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ

---

(١) نوح: ٢٧.

(٢) الشعراء: ١١٨.

﴿فَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[1].

فوجد نوح عليه السلام وحزن فنادى ربه من وجده قائلاً: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وعدتني بإنجاء أهلي وأنت أحكم الحاكمين لا تجور في حكمك ولا تجهل في قضائك، فما الذي جرى على ابني؟ فأخذته العناية الإلهية وحالت بينه وبين أن يصرّح بالسؤال في نجاة ابنه ـ وهو سؤال لما ليس له به علم ـ وأوحى الله إليه: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين.

فانكشف الأمر لنوح عليه السلام والتجأ إلى ربه تعالى قائلاً رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم أسألك أن تشملني بعنايتك وتستر عليّ بمغفرتك، وتعطف عليّ برحمتك، ولولا ذلك لكنت من الخاسرين.

٣ ـ **خصائص نوح عليه السلام**: هو عليه السلام أول أولي العزم سادة الأنبياء أرسله الله إلى عامة البشر بكتاب وشريعة فكتابه أول الكتب السماوية المشتملة على شرائع الله، وشريعته أول الشرائع الإلهية.

وهو عليه السلام الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهي أنسابهم والجميع ذريته لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ۝٧٧﴾[2] وهو عليه السلام أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٧٨﴾[3].

وهو عليه السلام أول من فتح باب التشريع وأتى بكتاب وشريعة وكلم الناس بمنطق العقل وطريق الاحتجاج مضافاً إلى طريق الوحي فهو الأصل الذي ينتهي إليه دين التوحيد في العالم فله المنة على جميع الموحدين إلى يوم القيامة، ولذلك خصه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره فقال عز من قائل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٩﴾[4].

---

(١) هود: ٣٧.

(٢) (٣) الصافات: ٧٧ ـ ٧٨.

(٤) الصافات: ٧٩.

وقد اصطفاه الله على العالمين[1] وعده من المحسنين[2] وسماه عبداً شكوراً[3] وعده من عباده المؤمنين[4] وسماه عبداً صالحاً[5].

وآخر ما نقل من دعائه قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾[6].

٤ ـ **قصته عليه السلام في التوراة الحاضرة:** وحدث[7] لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم.

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرّير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.

هذه مواليد نوح. كان نوح رجلاً بارّاً كاملاً في أجياله ـ وسار نوح مع الله. وولد نوح ثلاثة بنين سام وحام ويافث. وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً. ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت. إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض.

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت

---

(١) آل عمران: ٣٣.
(٢) الأنعام: ٨٤، الصافات: ٨٠.
(٣) الإسراء: ٣.
(٤) الصافات: ٨١.
(٥) التحريم: ١٠.
(٦) نوح: ٢٨.
(٧) الإصحاح السادس من سفر التكوين.

ظلماً منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن. وتطليه من داخل ومن خارج بالقار. وهكذا تصنعه. ثلاث مائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه. وتصنع كوّاً للفلك وتكمّله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت. ولكن أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك، تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها. ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كلّ تدخل إليك لاستبقائها. وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك. فيكون لك ولها طعاماً. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل.

وقال[1] الرب لنوح: ادخل أنت وجميع بنيك إلى الفلك. لأني إياك رأيت بارّاً لديَّ في هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى. ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى. لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض. لأني بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. وأمحو عن وجه الأرض كلَّ قائم عملته. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض. فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدبّ على الأرض. دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكر وأنثى. كما أمر الله نوحاً.

وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. في

---

(١) الإصحاح السابع من سفر التكوين.

سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. هم وكل الوحوش كأجناسها وكل الدبابات التي تدّب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور ذي جناح. ودخل إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة. والداخلات دخلت ذكراً وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله. وأغلق الرب عليه.

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض. وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطّت الجبال. فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً.

ثم[1] ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه. وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء. ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه. واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال.

وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها. وأرسل الغراب فخرج مترداداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم

(١) الإصحاح الثامن من سفر التكوين.

أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياهاً كانت على وجه كل الأرض فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك. فلبث أيضاً سبعة أيام أُخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أن المياه قد قلّت عن الأرض. فلبث أيضاً سبعة أيام أُخر فأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً.

وكان في السنة الواحدة والستمائة في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض.

وكلّم الله نوحاً قائلاً: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك. وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التي تدب على الأرض أخرجها معك ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض. فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه، وكل الحيوانات وكل الدبابات وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك.

وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحرّ وصيف وشتاء ونهار وليل لا يزال.

وبارك الله[1] نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم. كل دابة حية تكون لكم طعاماً كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. غير أن لحماً

(١) الإصحاح التاسع من سفر التكوين.

بجنابة دمه لا تأكلوه. وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه. سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان. فأثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها.

وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض. أُقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض. وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد فلا يكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد. فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض. وقال الله لنوح: هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض.

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث وحام هو أبو كنعان هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعّبت كل الأرض.

وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما.

فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم.

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. فكانت كل أيام نوح

تسعمائة وخمسين سنة ومات. انتهى ما قصدنا إيراده.

وهو ـ كما ترى ـ يخالف ما جاء في القرآن الكريم من وجوه:

منها: أنه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأة نوح بل صرَّح بدخولها الفلك ونجاتها مع بعلها، وقد اعتذر عنه بعض: أن من الجائز أن يكون لنوح زوجان أُغرقت إحداهما ونجت الأُخرى.

ومنها: أنه لم يذكر فيه ابن نوح الغريق وقد قصَّه القرآن.

ومنها: أنه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح وأهله بل اقتصر عليه وعلى بنيه وامرأته ونساء بنيه.

ومنها: أنه ذكر فيه جملة عمر نوح تسعمائة وخمسين سنة، وظاهر الكتاب العزيز أنها المدة التي لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

ومنها: ما ذكر فيه من حديث قوس قزح وقصة إرسال الغراب والحمامة للاستخبار وخصوصيات السفينة من عرضها وطولها وارتفاعها وطبقاتها الثلاث ومدة الطوفان وارتفاع الماء وغير ذلك فهي خصوصيات لم تذكر في القرآن الكريم وبعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس، وقد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعاني في قصة نوح عليه السلام في لسان الصحابة والتابعين، وأكثرها بالإسرائيليات أشبه.

٥ ـ ما جاء في الطوفان في أخبار الأمم وأساطيرهم: قال صاحب المنار في تفسيره: قد ورد في تواريخ الأمم القديمة ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلاً ومنها المخالف له إلا قليلاً.

وأقرب الروايات إليه رواية الكلدانيين، وهم الذين وقع الطوفان في

---

(١) العنكبوت: ١٤.

بلادهم فقد نقل عنهم «برهوشع» و«يوسيفوس» أن «زيزستروس» رأى في الحلم بعد موت والده «أوتيرت» أن المياه ستطغى وتغرق جميع البشر، وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو وأهل بيته وخاصة أصدقائه ففعل. وهو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبَّارين طغوا فيها وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان.

وقد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الآجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية في عصر آشور بانيبال من نحو ستمائة وستين سنة قبل ميلاد المسيح، وأنها منقولة من كتابه قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهي أقدم من سفر التكوين.

وروى اليونان خبراً عن الطوفان أورده أفلاطون وهو أن كهنة المصريين قالوا لسولون ـ الحكيم اليوناني ـ أن السماء أرسلت طوفاناً غيَّر وجه الأرض فهلك البشر مراراً بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شيء من آثار من قبله ومعارفهم.

وأورد «مانيتون» خبر طوفان حدث بعد هرمس الأول الذي كان بعد ميناس الأول، وهذا أقدم من تاريخ التوراة أيضاً، وروي عن قدماء اليونان خبر طوفان عمَّ الأرض كلها إلا «دوكاليون» وامرأته «بيرا» فقد نجوا منه.

وروي عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشرور بفعل أهريمان إله الشرّ، وقالوا: إن هذا الطوفان فار أولاً من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا: إنه كان خاصاً بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان.

وكذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافيّ آخرها أن ملكهم نجا هو وامرأته في سفينة عظيمة أمره بصنعها إلهه فشنو وسدها بالدسر حتى استوت على جبل جيمافات ـ همليا ـ ولكن البراهمة كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها، وروي تعدد الطوفان عن اليابان والصين وعن البرازيل والمكسيك وغيرهما، وكل هذه الروايات تتفق في أن سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم وشرورهم. انتهى.

وقد[1] وقع في «أوستا» وهو كتاب المجوس المقدس أن «أهورامزدا» أوحى إلى «إيما» (وتعتقد المجوس أنه جمشيد الملك) أنه سيقع طوفان يغرق الأرض، وأمره أن يبني حائطاً مرتفعاً غايته يحفظ من في داخله من الغرق، وأن يجمع في داخله جماعة من الرجال والنساء صالحة للنسل، ويدخل فيه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين، ويبني في داخل السور بيوتاً وقباباً في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك ويأوي إليها الدواب والطيور، وأن يغرس في داخله ما ينفع في حياة الناس من الأشجار المثمرة، ويحرث ما يرتزق به الناس من الحبوب الكريمة فيحتفظ بذلك ما به حياة الدنيا وعمارتها.

وفي تاريخ الأدب الهندي[2] في قصة الطوفان: أنه بينما كان «مانو» (هو ابن الإله عند الوثنيين) يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة، ومما اندهش به أن السمكة كلمته وطلبت إنقاذها من الهلاك ووعدته جزاء عليه أنها ستنقذ «مانو» في المستقبل من خطر عظيم، والخطر العظيم المحدق الذي أنبأت به السمكة كان طوفاناً سيجرف جميع المخلوقات، وعلى ذلك حفظ «مانو» السمكة في المرتبان.

فلما كبرت أخبرت «مانو» عن السنة التي سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على مانو أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طوفان الماء قائلة: أنا أُنقذك من الطوفان، فمانو صنع السفينة والسمكة كبرت أكثر من سعة المرتبان لذلك ألقاها في البحر.

ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة، وحين دخل «مانو» السفينة عامت السمكة إليه فربط السفينة بقرن على رأسها فجرتها إلى الجبال الشمالية، وهنا ربط مانو السفينة بشجرة، وعندما تراجع الماء وجف بقي مانو وحده. انتهى.

٦ ـ **هل كانت نبوته ﷺ عامة للبشر؟** مسألة اختلفت فيها آراء العلماء. فالمعروف عند الشيعة عموم رسالته، وقد ورد من طرق أهل البيت ﷺ ما

---

(١) ترجمة كتاب أوستا بالفرنسية المطبوعة بباريس.

(٢) على ما في قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار.

يدل عليه، وعلى أن أُولي العزم من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد (صلى الله عليه وآله وعليهم) كانوا مبعوثين إلى الناس كافة.

وأما أهل السنة فمنهم من قال بعموم رسالته مستنداً إلى ظاهر الآيات الناطقة بشمول الطوفان لأهل الأرض كلهم كقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1] وقوله: ﴿لَّا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾[3]، وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة أن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ولازمه كونه مبعوثاً إليهم كافة.

ومنهم من أنكر ذلك مستنداً إلى ما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ: «وكان كل نبيّ يبعث إلى قومه خاصة وبُعثتُ إلى الناس كافّة» وأجابوا عن الآيات أنها قابلة للتأويل فمن الجائز أن يكون المراد بالأرض هي التي كانوا يسكنونها وهي وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4].

فمعنى الآية الأولى: لا تذر على هذه الأرض من كافري قومي دياراً، وكذا المراد بالثانية: لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله، والمراد بالثالثة: وجعلنا ذرّيته هم الباقين من قومه.

والحق أن البحث لم يستوف حقه في كلامهم، والذي ينبغي أن يُقال: إن النبوّة إنما ظهرت في المجتمع الإنساني عن حاجة واقعية إليها ورابطة حقيقية بين الناس وبين ربهم وهي تعتمد على حقيقة تكوينية لا اعتبارية جزافية فإن من القوانين الحقيقية الحاكمة في نظام الكون ناموس تكميل الأنواع وهدايتها إلى غاياتها الوجودية، وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[5]، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[6].

---

(١) نوح: ٢٦.
(٢) هود: ٤٣.
(٣) الصافات: ٧٧.
(٤) يونس: ٧٨.
(٥) الأعلى: ٣.
(٦) طه: ٥٠.

فكل نوع من أنواع الكون متوجّه منذ أول تكونه إلى كمال وجوده وغاية خلقه الذي فيه خيره وسعادته، والنوع الإنساني أحد هذه الأنواع غير مستثنى من بينها فله كمال وسعادة يسير إليها ويتوجه نحوها أفراده فرادى ومجتمعين.

ومن الضروري عندنا أن هذا الكمال لا يتم للإنسان وحده لوفور حوائجه الحيوية وكثرة الأعمال التي يجب أن يقوم بها لأجل رفعها فالعقل العملي الذي يبعثه إلى الاستفادة من كل ما يمكنه الاستفادة منه واستخدام الجماد وأصناف النبات والحيوان في سبيل منافعه يبعثه إلى الانتفاع بأعمال غيره من بني نوعه.

غير أن الأفراد أمثال وفي كل واحد منهم من العقل العملي والشعور الخاص الإنساني ما في الآخر ويبعثه من الانتفاع إلى مثل ما يبعث إليه الآخر ما عنده من العقل العملي، واضطرهم ذلك إلى الاجتماع التعاوني بأن يعمل الكل للكل وينتفع من عمل الغير بمثل ما ينتفع الغير من عمله فيتسخر كلّ لغيره بمقدار ما يسخّره كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[1].

وهذا الذي ذكرناه من بناء الإنسان على الاجتماع التعاوني اضطراري له ألزمه عليه حاجة الحياة وقوة الرقباء فهو في الحقيقة مدني تعاوني بالطبع الثاني وإلا فطبعه الأوّلي أن ينتفع بكل ما يتيسر له الانتفاع حتى أعمال أبناء نوعه، ولذلك مهما قوي الإنسان واستغنى واستضعف غيره عدا عليه وأخذ يسترق الناس ويستثمرهم من غير عوض قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[3].

ومن الضروري أن الاجتماع التعاوني بين الأفراد لا يتم إلا بقوانين يحكم فيها وحفّاظ تقوم بها، وهذا مما استمرت سيرة النوع عليه فما من

---

(١) الزخرف: ٣٢.
(٢) إبراهيم: ٣٤.
(٣) العلق: ٨.

مجتمع من المجتمعات الإنسانية كاملاً كان أو ناقصاً، راقياً كان أو منحطّاً إلا ويجري فيه رسوم وسنن جرياناً كلياً أو أكثريّاً، والتاريخ والتجربة والمشاهدة أعدل شاهد في تصديقه وهذه الرسوم والسنن وإن شئت فسمّها القوانين هي مواد وقضايا فكرية تطبق عليها أعمال الناس تطبيقاً كلياً أو أكثرياً في المجتمع فينتج سعادتهم حقيقة أو ظناً فهي أمور متخللة بين كمال الإنسان ونقصه، وأشياء متوسطة بين الإنسان وهو في أول نشأته وبينه وهو مستكمل في حياته عائش في مجتمعه تهدي الإنسان إلى غاية وجوده فافهم ذلك.

وقد علم أن من الواجب في عناية الله أن يهدي الإنسان إلى سعادة حياته وكمال وجوده على حد ما يهدي سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقة والفطرة إلى ما فيه خيره وسعادته وهو الذي يبعثها إليه نظام الكون والجهازات التي جهز بها إلى أن يشعر بما فيه نفعه ويميز خيره من شره وسعادته من شقائه كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

يهديه بواجب عنايته إلى أصول وقوانين اعتقادية وعملية يتم له بتطبيق شؤون حياته عليها كماله وسعادته فإن العناية الإلهية بتكميل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع من الهداية كما توجب الهداية التكوينية المحضة.

ولا يكفي في ذلك ما جهّز به الإنسان من العقل ـ وهو ههنا العملي منه ـ فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام ويدعو إلى الاختلاف، ومن المحال أن يفعل شيء من القوى الفعّالة فعلين متقابلين ويفيد أثرين متناقضين على أن المتخلفين من هذه القوانين والمجرمين بأنواع الجرائم المفسدة للمجتمع كلهم عقلاء ممتعون بمتاع العقل مجهزون به.

فظهر أن هناك طريقاً آخر لتعليم الإنسان شريعة الحق ومنهج الكمال والسعادة غير طريق التفكر والتعقل وهو طريق الوحي، وهو نوع تكليم إلهي

---

(١) الشمس: ٧ ـ ١٠.

يعلم الإنسان ما يفوز بالعمل به والاعتقاد له في حياته الدنيوية والأُخروية.

فإن قلت: الأمر سواء فإن شرع النبوة لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لأتى به فإن العالم الإنساني لم يخضع لشرائع الأنبياء كما لم يصغ إلى نداء العقل، ولم يقدر الوحي أن يدير المجتمع الإنساني ويركّبه صراط الحق فما هي الحاجة إليه؟

قلت: لهذا البحث جهتان: جهة أن العناية الإلهية من واجبها أن تهدي المجتمع الإنساني إلى تعاليم تسعده وتكمله لو عمل بها وهي الهداية بالوحي ولا يكفي فيها العقل، وجهة أن الواقع في الخارج والمتحقق بالفعل ما هو؟ وإنما نبحث في المقام من الجهة الأولى دون الثانية، ولا يضر بها أن هذه الطريقة لم تجرِ بين الناس إلى هذه الغاية إلا قليلاً وذلك كما أن العناية الإلهية تهدي أنواع النبات والحيوان إلى كمال خلقها وغاية وجودها ومع ذلك يسقط أكثر أفراد كل نوع دون الوصول إلى غايته النوعية ويفسد ويموت قبل البلوغ إلى عمره الطبيعي.

وبالجملة فطريق النبوة مما لا مناص منه في تربية النوع بالنظر إلى العناية الإلهية وإلا لم تتم الحجة بمجرد العقل لأن له شغلاً غير الشغل وهو دعوة الإنسان إلى ما فيه صلاح نفسه، ولو دعاه إلى شيء من صلاح النوع فإنما يدعوه إليه بما فيه صلاح نفسه فافهم ذلك وأحسن التدبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

فمن الواجب في العناية أن ينزّل على المجتمع الإنساني ديناً يدينون به وشريعة يأخذون بها في حياتهم الاجتماعية دون أن يخص بها قوماً ويترك

---

(١) النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥.

الآخرين سدى لا عناية بهم، ولازمه الضروري أن تكون أول شريعة نزلت عليهم شريعة عامة.

وقد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعة بقوله عزّ من قائل: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[1]، فبيّن أن الناس كانوا أول ما نشأوا وتكاثروا على فطرة ساذجة لا يظهر فيهم أثر الاختلافات والمنازعات الحيوية ثم ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعة وكتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، ويحسم مادة الخصومة والنزاع.

ثم قال تعالى فيما امتن به على محمّدﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[2] ومقام الامتنان يقضي بأن الشرائع الإلهية المنزلة على البشر هي هذه التي ذكرت لا غير، وأول ما ذكر من الشريعة هي شريعة نوح، ولو لم تكن عامة للبشر كلهم وخاصة في زمنهﷺ لكان هناك إما نبي آخر ذو شريعة أخرى لغير قوم نوح ولم يذكر في الآية ولا في موضع آخر من كلامه تعالى، وإما إهمال سائر الناس غير قومهﷺ في زمنه وبعده إلى حين.

فقد بان أن نبوة نوحﷺ كانت عامة، وأن له كتاباً وهو المشتمل على شريعته الرافعة للاختلاف، وأن كتابه أول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة، وأن قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[3] هو كتابه أو كتابه وكتاب غيره من أولي العزم: إبراهيم وموسى وعيسىٰ ومحمّدﷺ.

وظهر أيضاً أن ما يدل من الروايات على عدم عموم دعوتهﷺ مخالف للكتاب وفي حديث الرضاﷺ أن أولي العزم من الأنبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم نبياً أو غير نبي.

٧ ـ هل الطوفان كان عاماً لجميع الأرض؟ تبين الجواب عن هذا

---

(١) البقرة: ٢١٣.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) البقرة: ٢١٣.

السؤال في الفصل السابق فإن عموم دعوته ﷺ يقضي بعموم العذاب، وهو نعم القرينة على أن المراد بسائر الآيات الدالة بظاهرها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح ﷺ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[1]، وقوله حكاية عنه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾[3].

ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من كلامه تعالى أنه أمر نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه لو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها كالعراق ـ كما قيل ـ لم يكن أي حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين. وهو ظاهر.

واختار بعضهم كون الطوفان خاصاً بأرض قوم نوح ﷺ قال صاحب المنار في تفسيره: أما قوله في نوح ﷺ بعد ذكر تنجيته وأهله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ فالحصر فيهم يجوز أن يكون إضافياً أي الباقين دون غيرهم من قومه، وأما قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ فليس نصاً في أن المراد بالأرض هذه الكرة كلها فإن المعروف من كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أن تذكر الأرض ويراد بها أرضهم ووطنهم كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أرض مصر، وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ فالمراد بها مكة، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد بها الأرض التي كانت وطنهم، والشواهد عليه كثيرة.

ولكن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن والتقاليد الموروثة عن أهل الكتاب على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح إلا قومه وأنهم هلكوا كلهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذرّيته، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان

---

(١) نوح: ٢٦.
(٢) هود: ٤٣.
(٣) الصافات: ٧٧.

في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبلها لا في الأرض كلها إلا إذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها فإن علماء التكوين وطبقات الأرض ـ الجيولوجية ـ يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كرة نارية ملتهبة ثم صارت كرة مائية ثم ظهرت فيها اليابسة بالتدريج.

ثم أشار إلى ما استدل به بعض أهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض من أنّا نجد بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال وهذه الأشياء مما لا تكون إلا في البحر فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء قد صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض هذا.

وردّ عليه بأن وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قلل الجبال لا يدل على أنه من أثر ذلك الطوفان بل الأقرب أنه من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة في الماء كما قلنا آنفاً فإن صعود الماء إلى الجبال أياماً معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها.

ثم قال ما ملخّصه: إن هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنصّ قطعي فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية فإن أثبت علم الجيولوجية خلافه لا يضرّنا لأنه لا ينقض نصّاً قطعياً عندنا. انتهى.

أقول: أما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل، وأما قوله في ردّ قولهم بوجود الأصداف والأسماك في قلل الجبال: إن صعود الماء إليها في أيام معدودة لا يكفي في حدوثها! ففيه أن من الجائز أن تحملها أمواج الطوفان العظيمة إليها ثم تبقى عليها بعد النشف فإن ذلك من طوفان يغمر الجبال الشامخة في أيام معدودة غير عزيز. وبعد ذلك كله قد فاته ما تنص عليه الآيات أنه ﷺ أمر أن يحمل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين فإن ذلك كالنص في أن الطوفان عمَّ البقاع اليابسة من الأرض جميعاً أو معظمها الذي هو بمنزلة الجميع.

فالحق أن ظاهر القرآن الكريم ـ ظهوراً لا ينكر ـ أن الطوفان كان

عموماً للأرض، وأن من كان عليها من البشر أُغرقوا جميعاً، ولم تقم لهذا الحين حجة قطعية تصرفها عن هذا الظهور.

وقد كنت سألت صديقي الفاضل الدكتور سحابي المحترم أستاذ الجيولوجيا بكلية طهران أن يفيدني بما يرشد إليه الأبحاث الجيولوجية في أمر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلي فأجابني بإيفاد مقال محصّله ما يأتي مفصلاً في فصول:

١ ـ **الأراضي الرسوبية**: تطلق الأراضي الرسوبية في الجيولوجيا على الطبقات الأرضية التي كوّنتها رسوبات المياه الجارية على سطح الأرض كالبطائح والمسيلات التي غطتها الرمال ودقاق الحصى.

نعرف الأراضي الرسوبية بما تراكم فيها من الرمال ودقاق الحصى الكروية المدوّرة فإنها كانت في الأصل قطعات من الحجارة حادة الأطراف والزوايا حولتها إلى هذه الحالة الاصطكاكات الواقعة بينها في المياه الجارية والسيول العظيمة ثم إن الماء حملها وبسطها على الأرض في غايات قريبة أو بعيدة بالرسوب.

وليست تنحصر الأراضي الرسوبية في البطائح فغالب الأراضي الترابية من هذا القبيل تخالطها أو تكونها رمال بالغة في الدقة، وقد حملها لدقتها وخفتها إليها جريان المياه والسيول.

نجد الأراضي الرسوبية وقد غطتها طبقات مختلفة من الرمل والتراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب ونظم، وذلك:

أولاً: إمارة أن تلك الطبقات لم تتكون في زمان واحد بعينه.

وثانياً: إن مسير المياه والسيول أو شدة جريانها قد تغير بحسب اختلاف الأزمنة.

ويتضح بذلك أن الأراضي الرسوبية كانت مجاري ومسايل في الأزمنة السابقة لمياه وسيول هامة وإن كانت اليوم في معزل من ذلك.

وهذه الأراضي التي تحكي عن جريان مياه كثيرة جداً وسيلان سيول هائلة عظيمة توجد في أغلب مناطق الأرض منها أغلب نقاط إيران كأراضي

طهران وقزوين وسمنان وسبزوار وبزه وتبريز وكرمان وشيراز وغيرها، ومنها مركز بين النهرين وجنوبه، وما وراء النهر، وصحراء الشام، والهند، وجنوب فرنسا، وشرقي الصين، ومصر، وأكثر قطعات أمريكا، وتبلغ ضخامة الطبقة الرسوبية في بعض الأماكن إلى مئات الأمتار كما أنها في أرض طهران تجاوز أربعمائة متراً.

وينتج مما مر **أولاً**: أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد (على ما سيأتي توضيحه) كان مجرى سيول هائلة عظيمة ربما غطت معظم بقاعها.

وثانياً: أن الطغيان والطوفان ـ بالنظر إلى ضخامة القشر الرسوبي في بعض الأماكن ـ لم يحدث مرة واحدة ولا في سنة أو سنين معدودة بل دام أو تكرر في مئات من السنين كلما حدث مرة كوّن طبقة رسوبية ثم إذا انقطع غطتها طبقة ترابية ثم إذا عاد كون أُخرى وهكذا وكذلك اختلاف الطبقات الرسوبية في دقة رمالها وعدمها يدل على اختلاف السيلان بالشدة والضعف.

٢ ـ الطبقات الرسوبية أحدث القشور والطبقات الجيولوجية: ترسب الطبقات الرسوبية عادة رسوباً أفقياً ولكن ربما وقعت أجزاؤها المتراكمة تحت ضغطات جانبية قوية شديدة على ما بها من الدفع من فوق ومن تحت فتخرج بذلك تدريجاً عن الأفقية إلى التدوير والالتواء، وهذا غير ظاهر الأثر في الأزمنة القصيرة المحدودة لكن إذا تمادى الزمان بطوله كمرور الملايين من السنين ظهر الأثر وتكونت بذلك الجبال بسلاسلها الملتوية بعض تلالها في بعض وترتفع بقللها من سطوح البحار.

ويستنتج من ذلك أن الطبقات الرسوبية والقشور الأفقية الباقية على حالها من أحدث الطبقات المتكونة على البسيط، والدلائل الفنية الموجودة تدل على أن عمرها لا يجاوز عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف سنة من زماننا هذا[1].

٣ ـ انبساط البحار واتساعها بانحدار المياه إليها: كان تكون القشور

---

(١) ويستثنى من ذلك بعض ما في أطراف بالتيك وسائر المناطق الشمالية من طبقات رسوبية أفقية باقية على حالها من أقدم العهود الجيولوجية لجهات مذكورة في محلها.

الرسوبية الجديدة عاملاً في انبساط أكثر بحار الكرة واتساعها بأطرافها فارتفعت مياهها وغطت أكثر سواحلها، وعملت جزائر في السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها.

فمن ذلك جزيرة بريطانية انقطعت في هذا الحين من فرنسا وانفصلت من أوروبا بالكلية، وكانت أوروبا من ناحية جنوبها وإفريقيا من ناحية شمالها مرتبطتين برابط برّي إلى هذا الحين فانفصلتا باتساع البحر المتوسط (مديترانه) وتكوّن بذلك شبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة تونس من شمالها الشرقي وجزائر صقلية وسردينيا وغيرها وكانت جزائر أندونيسيا من ناحية جاوا وسوماترا إلى جنوبي جزيرة اليابان متصلة بآسيا من جهة الجنوب الشرقي إلى هذا الحين فانفصلت وتحولت إلى صورتها الفعلية، وكذا انقطاع أمريكا الشمالية من جهة شمالها عن شمال أوروبا أحد الآثار الباقية من هذا العهد عهد الطوفان.

وللحركات والتحولات الأرضية الداخلية آثار قوية في سير هذه المياه واستقرارها في البقاع الخافضة المنحدرة ولذلك كان ينكشف الماء عن بعض البقاع الساحلية المغمورة بماء البحار في حين كان الطوفان مستولياً على أكثر البسيط يكوّن بحيرات ويوسع بحاراً، ومن هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبية انكشف عنها ماء الخليج[1].

٤ ـ العوامل المؤثرة في ازدياد المياه وغزارة عملها في عهد الطوفان:
الشواهد الجيولوجية التي أشرنا إلى بعضها تؤيد أن النزولات الجوية كانت غير عادية في أوائل الدور الحاضر من أدوار الحياة الإنسانية وهو عهد الطوفان، وقد كان ذلك عن تغيرات جوية هامة خارقة للعادة قطعاً. فكان الهواء حاراً في هذه الدورة نسبة لكن كان ذلك مسبوقاً ببرد شديد وقد غطى معظم النصف الشمالي من الكرة الثلج والجمد والجليد فمن المحتمل قوياً أن التراكم من جمد الدورة السابقة عليه كان باقياً لم يذب بعد في النجود في أكثر بقاع المنطقة المعتدلة الشمالية.

---

(١) وقد كانت مدينة شوش وقصر الكرخة في زمن الملوك الهخامنشية بإيران على ساحل البحر وكانت السفن الشراعية الجارية في خليج فارس تلقي مراسيها أمام القصر.

فعمل الحرارة في سطح الأرض في دورتين متواليتين على ما به من متراكم الجمد والجليد يوجب تغيّراً شديداً في الجو وانقلاباً عظيماً مؤثراً في ارتفاع بخار الماء إليه وتراكمه فيه تراكماً هائلاً غير عادي وتعقبه نزولات شديدة وأمطار غزيرة غير معهودة.

نزول هذه الأمطار الغزيرة الهاطلة ثم استدامتها النزول على الارتفاعات والنجود وخاصة على سلاسل الجبال الجديدة الحدوث في جنوب آسيا ومغربها وجنوب أوروبا وشمال إفريقيا كجبال[1] البرز وهيمالايا وآلب وفي مغرب أمريكا عقّب جريان سيول عظيمة هائلة عليها تنحت الصخور وتحفر الأرض وتقلع أحجاراً وتحملها إلى الأراضي والبقاع المنحدرة وتحدث أودية جديدة وتعمّق أخرى قديمة وتوسعها ثم تبسط ما تحمله من الحجارة والحصى والرمل تجاهها قشوراً رسوبية جديدة.

ومما كان يمد الطوفان السماوي في شدة عمله ويزيد في حجم السيول الجارية أن حفر الأودية الجديدة كان يكشف عن ذخائر مائية في بطن الأرض هي منابع الآبار والعيون الجارية فيزيل القشور الحافظة لها المانعة من سيلانها فيفجّر العيون ويجريها مع السيول المطرية، ويزيد في قوة تخريبها ويعينها في إغراق ما على الأرض من سهل وجبل وغمره.

غير أن الذخائر الأرضية متناهية محدودة تنفد بالسيلان وينفادها وإمساك السماء عن الإمطار ينقضي الطوفان وتنحدر المياه إلى البحار والأراضي المنخفضة وإلى بعض الخلاء والسرب الموجود في داخل الأرض الذي أفرغته السيول بالتفجير والمص.

٥ ـ **نتيجة البحث**: وعلى ما قدمناه من البحث الكلي يمكن أن ينطبق ما قصة الله تعالى من خصوصيات الطوفان الواقع في زمن نوح عليه السلام كقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ

(١) فهي أقل عمراً من سائر جبال الأرض لم تعمر أكثر من مليوني سنة ولذلك كانت أشهق جبال الأرض وأعلى قللاً من غيرها لقلة ما ورد عليها من أسباب النحت كالأمطار والرياح.

قَدْ قُدِرَ﴾[1]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[3]. انتهىٰ.

ومما يناسب هذا المقام ما نشره بعض جرائد[4] طهران في هذه الأيام وملخصه: إن جماعة من رجال العلم من أمريكا بهداية من بعض رجال الجند التركي عثروا في بعض قلل جبل آراراط في شرقي تركيا في مرتفع ١٤٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطي القياس أنها قطعات متلاشية من سفينة قديمة وقعت هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمة ٢٥٠٠ قبل الميلاد.

والقياس يعطي أنها قطعات من سفينة تعادل حجمها ثلثي حجم مركب «كوثين ماري» الإنجليزية التي طولها ١٠١٩ قدماً وعرضها ١١٨ قدماً، وقد حملت الأخشاب إلى سانفرانسيسكو لتحقيق أمرها وإنها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينة نوح عليه السلام؟

٨ ـ عمره عليه السلام الطويل: القرآن الكريم يدل على أنه عليه السلام عمّر طويلاً، وأنه دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله سبحانه، وقد استبعده بعض الباحثين لما أن الأعمار الإنسانية لا تتجاوز في الأغلب المائة أو المائة والعشرين سنة حتى ذكر بعضهم أن القدماء كانوا يعدّون كل شهر من الشهور سنة فالألف سنة إلا خمسين عاماً يعدل ثمانين سنة إلا عشرة شهور. وهو بعيد غايته.

وذكر بعضهم أن طول عمره عليه السلام كان كرامة له خارقة للعادة، قال الثعلبي في قصص الأنبياء في خصائصه عليه السلام: وكان أطول الأنبياء عمراً وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين، وجعل معجزته في نفسه لأنه عمّر ألف سنة ولم ينقص له سنّ ولم تنقص له قوة. انتهىٰ.

---

(١) القمر: ١٢.

(٢) هود: ٤٠.

(٣) هود: ٤٤.

(٤) جريدة كيهان المنتشرة أول سبتمبر ١٩٦٢ المطابق لغرة ربيع الأول ١٣٨٢ الهجرية القمرية عن لندن. آسوشيتد برس.

والحق أنه لم يقم حتى الآن دليل على امتناع أن يعمّر الإنسان مثل هذه الأعمار بل الأقرب في الاعتبار أن يعمّر البشر الأولي بأزيد من الأعمار الطبيعية اليوم بكثير لما كان لهم من بساطة العيش وقلة الهموم وقلة الأمراض المسلطة علينا اليوم وغير ذلك من الأسباب الهادمة للحياة، ونحن كلما وجدنا معمّراً عمّر مائة وعشرين إلى مائة وستين وجدناه بسيط العيش قليل الهم ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقي بعض الأعمار في السابقين إلى مئات من السنين.

على أن الاعتراض على كتاب الله في مثل عمر نوح عليه السلام وهو يذكر من معجزات الأنبياء الخارقة للعادة شيئاً كثيراً لعجيب.

٩ ـ أين هو جبل الجودي: ذكروا أنه بديار بكر من موصل في جبال تتصل بجبال أرمينية، وقد سماه في التوراة أراراط. قال في القاموس: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، ويسمى في التوراة «أراراط» انتهى، وقال في مراصد الاطلاع: الجودي مشددة جبل مطل على جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة من أعمال الموصل استوت عليه سفينة نوح لما نضب الماء.

١٠ ـ ربما قيل: هب أنه أغرق قوم نوح بذنبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذي على الأرض حيث هلكت بطاغية المياه؟ وهذا من أسقط الاعتراض فما كل هلاك ولو كان عاماً عقوبة وانتقاماً، والحوادث العامة التي تهلك الألوف ثم الألوف مثل الزلازل والطوفانات والوباء والطاعون كثيرة الوقوع في الدهر، ولله فيما يقضي حكم[1].

(١) الميزان المجلد ١٠ ص ٢٣٧.

قصة هود عليه السلام في القرآن الكريم

١ ـ عاد قوم هود:

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم لا يحفظ التاريخ من حياتهم إلا أقاصيص لا يُطمأن إليها وليس في التوراة الموجودة منهم ذكر.

والذي يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو أن عاداً ـ وربما يسميهم عاداً الأولى[١] وفيه إشارة إلى أن هناك عاداً ثانية ـ كانوا قوماً يسكنون الأحقاف من شبه جزيرة العرب[٢] بعد قوم نوح[٣].

كانت لهم أجساد طويلة[٤] وكانوا ذوي بسطة في الخلق[٥] أولي قوة وبطش شديد[٦] وكان لهم تقدم ورقي في المدنية والحضارة، لهم بلاد عامرة وأراض خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم (الشعراء وغيرها) وناهيك في رقيّهم وعظيم مدنيتهم قوله تعالى في وصفهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[٧].

---

(١) النجم: ٥٠.
(٢) الأحقاف: ٢١.
(٣) الأعراف: ٦٩.
(٤) القمر: ٢٠، الحاقة: ٧.
(٥) الأعراف: ٦٩.
(٦) السجدة: ١٥، الشعراء: ١٣٠.
(٧) الفجر: ٦ ـ ٨.

لم يزل القوم يتنعمون بنعمة الله حتى غيروا ما بأنفسهم فتعرّقت فيهم الوثنية وبنوا بكل ربع آية يعبثون واتخذوا مصانع لعلهم يخلدون وأطاعوا طغاتهم المستكبرين فبعث الله إليهم أخاهم هوداً يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إلى أن يعبدوا الله ويرفضوا الأوثان، ويعملوا بالعدل والرحمة[1] فبالغ في وعظهم وبثّ النصيحة فيهم، وأنار الطريق وأوضح السبيل، وقطع عليهم العذر فقابلوه بالإباء والامتناع، وواجهوه بالجحد والإنكار ولم يؤمن به إلا شرذمة منهم قليلون وأصرّ جمهورهم على البغي والعناد، ورموه بالسفه والجنون وألحوا عليه بأن ينزّل عليهم العذاب الذي كان ينذرهم ويتوعدهم به قال: ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾[2].

فأنزل الله عليهم العذاب وأرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم[3] ريحاً صرصراً في أيام نحسات سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[4] وكانت تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر[5].

وكانوا بادىء ما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا: عارض ممطرنا وقد أخطأوا بل كان هو الذي استعجلوا به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم[6] فأهلكهم الله عن آخرهم وأنجى هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه[7].

٢ ـ شخصية هود المعنوية:

وأما هود عليه السلام فهو من قوم عاد وثاني الأنبياء الذين انتهضوا للدفاع عن

---

(١) الشعراء: ١٣٠.
(٢) الأحقاف: ٢٣.
(٣) الذاريات: ٤٢.
(٤) الحاقة: ٧.
(٥) القمر: ٢٠.
(٦) الأحقاف: ٢٠.
(٧) هود: ٥٨.

الحق ودحض الوثنية ممن ذكر الله قصته وما قاساه من المحنة والأذى في جنب الله سبحانه، وأثنى عليه بما أثنى على رسله الكرام وأشركه بهم في جميل الذكر عليه سلام الله. . .[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد العاشر صفحة ٢٩٥ من الميزان.

قصة صالح عليه السلام في القرآن القريم

١ ـ ثمود قوم صالح عليه السلام:

ثمود قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام، وهم من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئاً يسيراً من أخبارهم، ولقد عفت الدهور آثارهم فلا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم.

والذي يقصّه كتاب الله من أخبارهم أنهم كانوا أمة من العرب على ما يدل عليه اسم نبيّهم وقد كان منهم نشأوا بعد قوم عاد ولهم حضارة ومدنية يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ومن شغلهم الفلاحة بإجراء العيون وإنشاء الجنّات والنخيل والحرث.

كانت ثمود تعيش على سنّة الشعوب والقبائل يحكم فيهم سادتهم وشيوخهم وقد كانت في المدينة التي بعث فيها صالح تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون فطغوا في الأرض وعبدوا الأصنام وأفرطوا عتوّاً وظلماً.

الفصل الثاني: بعثة صالح عليه السلام:

لما نسيت ثمود ربها وأسرفوا في أمرهم أرسل الله إليهم صالحاً النبي عليه السلام وكان من بيت الشرف والفخار معروفاً بالعقل والكفاية فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وأن يتركوا عبادة الأصنام وأن يسيروا في مجتمعهم بالعدل والإحسان، ولا يعلوا في الأرض ولا يسرفوا ولا يطغوا وأنذرهم بالعذاب.

فقام عليه السلام بالدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر على

الأذى في جنب الله فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة من ضعفائهم وأما الطغاة المستكبرون وعامة من تبعهم فأصروا على كفرهم واستذلوا الذين آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر.

وطلبوا منه البينة على مقاله، وسألوه آية معجزة تدل على صدقه في دعوى الرسالة، واقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة فأتاهم بناقة على ما وصفوها به، وقال لهم: إن الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوماً وتكفّوا عنها يوماً فتشربها الناقة فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، وأن تذروها تأكل في أرض الله كيف شاءت ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب. وكان الأمر على ذلك حيناً ثم إنهم طغوا ومكروا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فعقروها، وقالوا لصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. قال صالح عليه السلام: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.

ثم مكرت شعوب المدينة وأرهاطها بصالح وتقاسموا بينهم لنبيّتنّه وأهله ثم نقولنّ لوليّه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون، ومكروا مكراً ومكر الله مكراً وهم لا يشعرون فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون والرجفة والصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وأنجى الله الذين آمنوا وكانوا يتقون ونادى بعدهم المنادي الإلهي: ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود.

٣ ـ شخصية صالح عليه السلام:

لم يرد لهذا النبي الصالح في التوراة الحاضرة ذكر. كان عليه السلام من قوم ثمود ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن بالقيام بأمر الله والنهضة للتوحيد على الوثنية يذكره الله تعالى بعد نوح وهود، ويحمده ويثني عليه بما أثنى به على أنبيائه ورسله، وقد اختاره وفضّله كسائرهم على العالمين عليه وعليهم السلام...[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد العاشر صفحة ٣٠٥ من الميزان.

٤ ـ قصة صالح في الروايات:

في الكافي مسنداً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ قال: هذا فيما كذبوا صالحاً، وما أهلك الله عزّ وجلّ قوماً قط حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم.

فبعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه وعتوا عليه، وقالوا: لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء وكانت الصخرة يعظّمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها، فقالوا: إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء فأخرجها الله كما طلبوا منه.

ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم فيحبسونها فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله.

ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم. ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا لا يعرف له أب يقال له: قدار شقي من الأشقياء مشؤوم عليهم فجعلوا له جعلاً.

فلما توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئاً فضربها ضربة أخرى فقتلها وخرّت على الأرض على جنبها، وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرات إلى السماء، وأقبل قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلا شركه في ضربته، واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا أكل منها.

فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم وقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ أعصيتم أمر ربكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح ﷺ: إن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم ولم يكن لهم فيها ضرر وكان لهم أعظم المنفعة فقل لهم: إني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث.

فأتاهم صالح وقال: يا قوم إني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم: إن تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم، فلما قال لهم ذلك كانوا [قالواظ] أعتى ما قالوا وأخبث وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

قال: يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني وجوهكم محمرة واليوم الثالث وجوهكم مسودة فلما أن كان أول يوم أصبحوا وجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال صالح فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً. فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم لو أهلكنا جميعاً ما سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها ولم يتوبوا ولم يرجعوا فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح.

فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ لهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا جميعاً في طرفة عين: صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا راغية ولا شيء إلا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى فأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين. وكانت هذه قصتهم.

أقول: واشتمال الحديث على أمور خارقة للعادة كشرب الناس جميعاً

من لبن الناقة وكذا تغير ألوان وجوههم يوماً فيوماً لا ضير فيه بعد ما كان أصل وجودها عن إعجاز، وقد نص القرآن الكريم بذلك، وبأنها كانت لها شرب يوم ولأهل المدينة كلهم شرب يوم معلوم.

وأما كون الصيحة من جبرئيل فلا ينافي كونها صاعقة سماوية نازلة عليهم أماتتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جارٍ عليها إلى ملك روحاني إذا كان هو في مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة إلى الملائكة العمالة. وقوله عليه السلام: إنّهم قد كانوا في الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا كأنه كناية عن تهيُّئهم للموت.

وقد وقع في بعض الروايات في وصف الناقة أنه كانت بين جنبيها مسافة ميل وهو مما يوهن الرواية لاستحالة وقوعه فإن ذلك ممكن الدفع من جهة أن كينونتها كانت عن إعجاز بل لأن اعتبار النسبة بين أعضائها حينئذٍ يوجب بلوغ ارتفاع سنامها مما يقرب من ثلاثة أميال ولا يتصور مع ذلك أن يتمكن واحد من الناس من قتلها بسيفه ولم يقع ذلك عن إعجاز من عاقر الناقة قطعاً، ومع ذلك لا يخلو قوله تعالى: ﴿ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، من دلالة أو إشعار على كون جثتها عظيمة جداً...[1].

❀ ❀ ❀

(١) انظر هذا البحث الروائي في المجلد العاشر ٣٠٢ من الميزان.

قصة إبراهيم عليه السلام

وفيه أبحاث مختلفة قرآنية وأُخرى علمية وتاريخية وغير ذلك.

١ ـ **قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن**: كان إبراهيم عليه السلام في طفوليّته إلى أوائل تمييزه يعيش في معزل من مجتمع قومه ثم خرج إليهم ولحق بأبيه فوجده وقومه يعبدون الأصنام فلم يرتض منه ومنهم ذلك وقد كانت فطرته طاهرة زاكية مؤيدة من الله سبحانه بالشهود الحق وإراءة ملكوت كل شيء وبالجملة وبالقول الحق والعمل الصالح.

فأخذ يحاجّ أباه في عبادته الأصنام ويدعوه إلى رفضها وتوحيد الله سبحانه واتّباعه حتى يهديه إلى مستقيم الصراط ويبعده من ولاية الشيطان، ولم يزل يحاجّه ويلح عليه حتى زبره وطرده عن نفسه وأوعده أن يرجمه إن لم ينته عن ذكر آلهته بسوء والرغبة عنها.

فتلطف إبراهيم عليه السلام إرفاقاً به وحناناً عليه وقد كان ذا خلق كريم وقول مرضي فسلم عليه ووعده أن يستغفر له ويعتزله وقومه وما يعبدون من دون الله[١].

وقد كان من جانب آخر يحاج القوم في أمر الأصنام[٢] ويحاجّ أقواماً آخرين منهم يعبدون الشمس والقمر والكوكب في أمرها حتى ألزمهم الحق وشاع خبره في الانحراف عن الأصنام والآلهة[٣] حتى خرج القوم ذات يوم إلى عبادة جامعة خارج البلد واعتل بالسقم فلم يخرج معهم وتخلف عنهم

---

(١) مريم: ٤١، ٤٨.

(٢) الأنبياء: ٥١، ٥٦، الشعراء: ٦٩، ٧٧، الصافات: ٨٣، ٨٧.

(٣) الأنعام: ٧٤، ٨٢.

فدخل بيت الأصنام فراغ على آلهتهم ضرباً باليمين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون فلما تراجعوا وعلموا بما حدث بآلهتهم وفتشوا عمن ارتكب ذلك قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

فأحضروه إلى مجمعهم فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فاستنطقوه فقالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وقد كان أبقى كبير الأصنام ولم يجذّه ووضع الفاس على عاتقه أو ما يقرب من ذلك ليشهد الحال على أنه هو الذي كسر سائر الأصنام.

وإنّما قال ﷺ ذلك وهو يعلم أنّهم لا يصدقونه على ذلك وهم يعلمون أنّه جماد لا يقدر على ذلك لكنّه قال ما قال ليعقبه بقوله: فاسألوهم إن كانوا ينطقون حتى يعترفوا بصريح القول بأنهم جمادات لا حياة لهم ولا شعور، ولذلك لما سمعوا قوله رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال: أفتعبدون من دون الله ما لا يضركم ولا ينفعكم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون.

قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم فبنوا له بنياناً وأسعروا فيه جحيماً من النار وقد تشارك في أمره الناس جميعاً وألقوه في الجحيم فجعله الله برداً عليه وسلاماً وأبطل كيدهم[1] وقد أُدخل في خلال هذه الأحوال على الملك، وكان يعبده القوم ويتخذونه رباً فحاجّ إبراهيم في ربه فقال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت فغالطه الملك وقال: أنا أُحيي وأُميت كقتل الأسير وإطلاقه فحاجّه إبراهيم بأصرح ما يقطع مغالطته فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[2].

ثم لما أنجاه الله من النار أخذ يدعو إلى الدين الحنيف دين التوحيد

---

(١) الأنبياء: ٥٧، ٦٧، الصافات ٨٨، ٩٨.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

فآمن له شرذمة قليلة وقد سمى الله تعالى منهم لوطاً ومنهم زوجته التي هاجر بها وقد كان تزوج بها قبل الخروج من الأرض إلى الأرض المقدسة[1].

ثم تبرأ هو عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم وتبرأ هو من آزر الذي كان يدعوه أباً ولم يكن بوالده الحقيقي[2] وهاجر ومعه زوجته ولوط إلى الأرض المقدسة ليدعو الله سبحانه من غير معارض يعارضه من قومه الجفاة الظالمين[3] وبشره الله سبحانه هناك بإسماعيل وبإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وقد شاخ وبلغه كبر السن فولد له إسماعيل ثم ولد له إسحاق وبارك الله سبحانه فيه وفي ولديه وأولادهما.

ثم إنه عليه السلام بأمر من ربه ذهب إلى أرض مكة وهي واد غير ذي زرع فأسكن فيه ولده إسماعيل وهو صبي ورجع إلى الأرض المقدسة فنشأ إسماعيل هناك واجتمع عليه قوم من العرب القاطنين هناك وبنيت بذلك بلدة مكة.

وكان عليه السلام ربما يزور إسماعيل في أرض مكة قبل بناء مكة والبيت وبعد ذلك[4] ثم بنى بها الكعبة البيت الحرام بمشاركة من إسماعيل وهي أول بيت وضع للناس من جانب الله مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً[5] وأذّن في الناس بالحج وشرّع نسك الحج[6].

ثم أمره الله بذبح ولده إسماعيل عليه السلام فخرج معه للنسك فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين نودي أن يا

---

(١) الدليل على إيمان جمع من قومه به قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ﴾ (الممتحنة: ٤١) والدليل على تزوجه قبل الخروج إلى الأرض المقدسة سؤاله الولد الصالح من ربه في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الصافات: ١٠٠).

(٢) وقد تقدم استفادة ذلك من دعائه المنقول في سورة إبراهيم.

(٣) الممتحنة: ٤، الأنبياء: ٧١.

(٤) البقرة: ١٢٦، إبراهيم: ٣٥، ٤١.

(٥) البقرة: ١٢٧، ١٢٩، آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

(٦) الحج: ٢٦، ٣٠.

إبراهيم قد صدقت الرؤيا وفداه الله سبحانه بذبح عظيم[1].

وآخرما قص القرآن الكريم من قصصه عليه السلام أدعيته في بعض أيام حضوره بمكة المنقولة في سورة إبراهيم[2] وآخر ما ذكر فيها قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

٢ ـ **منزلة إبراهيم عند الله سبحانه وموقفه العبودي**: أثنى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام في كلامه أجمل ثناء وحمد محنته في جنبه أبلغ الحمد، وكرر ذكره باسمه في نيف وستين موضعاً من كتابه وذكر من مواهبه ونعمه عليه شيئاً كثيراً. وهاك جملاً من ذلك: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾[3] ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4] وهو الذي وجه وجهه إلى ربه ﴿حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[5] وهو الذي اطمأن قلبه بالله وأيقن به بما أراه الله من ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6].

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[7] وجعل رحمته وبركاته عليه وعلى أهل بيته ووصفه بالتوبة[8] ومدحه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[9] ومدحه أنه ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[10].

---

(١) الصافات: ١٠١، ١٠٧.
(٢) إبراهيم: ٣٥، ٤١.
(٣) الأنبياء: ٥١.
(٤) البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١.
(٥) الأنعام: ٧٩.
(٦) البقرة: ٢٦٠، الأنعام: ٧٥.
(٧) النساء: ١٢٥.
(٨) النجم: ٣٧.
(٩) هود: ٧٥.
(١٠) النحل: ١٢٠، ١٢٢.

و ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[1] وعده الله ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾﴾[2] ومن المحسنين وسلم عليه وهو من الذين وصفهم بأنهم ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ و ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾[3].

وقد جعله الله ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[4] وجعله أحد الخمسة أولي العزم الذين آتاهم الكتاب والشريعة[5] وآتاه الله العلم ﴿ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[6] والملك والهداية ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[7] ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾[8] ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾[9] فهذه جمل ما منحه الله سبحانه من المناصب الإلهية ومقامات العبودية ولم يفصل القرآن الكريم في نعوت أحد من الأنبياء والرسل المكرمين وكراماتهم ما فصّل من نعوته وكراماته ﷺ.

وقد حفظ الله سبحانه حياته الكريمة وشخصيته الدينية بما سمى هذا الدين القويم الإسلام كما سماه ﷺ ونسبه إليه قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[10] وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾[11].

وجعل الكعبة البيت الحرام الذي بناها قبلة للعالمين وشرع مناسك الحج وهي في الحقيقة أعمال ممثلة لقصة إسكانه ابنه وأم ولده وتضحية ابنه إسماعيل وما سعى به إلى ربه والتوجه له وتحمل الأذى والمحنة في ذاته.

٣ ـ **أثره المبارك في المجتمع البشري:** ومن منه ﷺ السابغة أن دين

---

(١) مريم: ٤١.
(٢) الصافات: ١١.
(٣) ص: ٤٥ ـ ٤٦.
(٤) البقرة: ١٢٤.
(٥) الأحزاب: ٧، الشورى: ١٣، الأعلى: ١٨ ـ ١٩.
(٦) النساء: ٥٤، الأنعام: ٩٠، الزخرف: ٢٨.
(٧) الحديد: ٢٦.
(٨) الشعراء: ٨٤، مريم: ٥٠.
(٩) الحج: ٧٨.
(١٠) الأنعام: ١٦١.

التوحيد أينما ينتهي إليه كان وعند من كان فإن الدين المنعوت بالتوحيد اليوم هو دين اليهود وينتهي إلى الكليم موسى بن عمران عليه السلام وينتهي نسبه إلى إسرائيل بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ودين النصرانية وينتهي إلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام، ودين الإسلام والصادع به محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وينتهي نسبه إلى إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، فدين التوحيد في الدنيا أثره الطيب المبارك، ويشاهد في الإسلام من شرائعه الصلاة والزكاة والحج وإباحة لحوم الأنعام والتبرؤ من أعداء الله، والسلام. والطهارات العشر الحنيفيّة البيضاء خمس[1] منها في الرأس وخمس منها في البدن: أما التي في الرأس فأخذ الشارب وإعفاء اللحى وطم الشعر والسواك والخلال وأما التي في البدن فحلق الشعر من البدن والختان وتقليم الأظفار والغسل من الجنابة والطهور بالماء.

والبحث المستوفى يؤيد أن السنن الصالحة من الاعتقاد والعمل في المجتمع البشري كائنة ما كانت من آثار النبوة الحسنة فلإبراهيم عليه السلام الأيادي الجميلة على جميع البشر اليوم علموا بذلك أو جهلوا.

٤ ـ **ما تقصه التوراة الموجودة في إبراهيم**: قالت التوراة: «وعاش تارح (أبو إبراهيم) سبعين سنة وولد أبرام وناحور وهاران، وهذه مواليد تارح: ولد تارح أبرام وناحور وهاران، وولد هاران لوطاً، ومات هاران قبل أبيه في أرض ميلاده في «أُور» الكلدانيين واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما امرأتين اسم امرأة أبرام «ساراي» واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي بسكة، وكانت ساراي عاقراً ليس لها ولد وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطاً بن هاران ابن ابنه، وساراي كنته امرأة أبرام ابنه فخرجوا معاً من أُور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين، ومات تارح في حاران.

قالت التوراة: وقال الرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك فأجعلك أُمة عظيمة وأُباركك وأُعظم اسمك وتكون بركة وأُبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه، ويتبارك فيك جميع

---

(١) رواها في مجمع البيان نقلاً عن تفسير القمي.

قبائل الأرض، فذهب أبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط، وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطاً ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى أرض كنعان.

واجتاز أبرام في أرض إلى مكان «شكيم» إلى «بلوطه مورة» وكان الكنعانيون حينئذٍ في الأرض وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أُعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له، ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي «بيت إيل» ونصبت خيمته وله «بيت إيل» من المغرب و«عاي» من المشرق فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب، ثم ارتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب.

وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليغرّب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك، قولي: إنك أُختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك، فحدث لما دخل أبرام مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأُخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجمال.

فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام فدعا فرعون أبرام وقال: ما هذا الذي صنعت لي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت: هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي؟ والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب، فأوصى عليه رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له.

ثم ذكرت التوراة: أن أبرام خرج من مصر ومعه ساراي ولوط ومعهم الأغنام والخدم والأموال العظيمة ووردوا «بيت إيل» المحل الذي كانت فيه خيمته مضروبة بين «بيت إيل» و«عاي» ثم بعد حين تفرق هو ولوط لأن الأرض ما كانت تسعهما فسكن أبرام كنعان، وكان الكنعانيون والفرزيون ساكنين هناك، ونزل لوط أرض سدوم.

ثم ذكرت: أنه في تلك الأيام نشبت حرب في أرض سدوم بين «أمرافل» ملك شنعار ومعه ثلاثة من الملوك، وبين بارع ملك سدوم ومعه أربعة من الملوك المتعاهدين فانهزم ملك سدوم ومن معه انهزاماً فاحشاً وهربوا من الأرض بعد ما قتل من قتل منهم ونهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم، وكان فيمن أسر لوط وجميع أهله ونهبت أمواله.

قالت التوراة: فأتى من نجى وأخبر أبرام العبراني وكان ساكناً عند «بلوطات ممرى» الأموري أخو «أشكول» وأخي «عابر» وكانوا أصحاب عهد مع أبرام، فلما سمع أبرام أن أخاه سبي جرّ غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مائة وثمانية عشر وتبعهم إلى «دان» وانقسم عليهم هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى «حوبة» التي عن شمال دمشق واسترجع كل الأموال واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب.

فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه من كسرة «كدر لعومر» والملوك الذين معه إلى عمق «شوى» الذي هو عمق الملك، وملكي[1] صادق ملك «شاليم» أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه وقال: مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك فأعطاه عشراً من كل شيء.

وقال ملك سدوم لأبرام: أعطني النفوس، وأما الأملاك فخذها لنفسك فقال أبرام لملك سدوم: رفعت يدي إلى الرب الإله العلي ملك السماء والأرض لا آخذن لا خيطاً ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك فلا تقول: أنا أغنيت أبرام ليس لي غير الذي أكله الغلمان وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي «عابر» و«أسلول» و«ممرا» فهم يأخذون نصيبهم.

إلى أن قالت: وأما ساراي فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لأبرام: هو ذا الرب أمسكني عن الولادة ادخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين فسمع أبرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان

---

(١) اسم لأحد الملوك المعاصر له ﷺ.

وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت.

ثم ذكرت: أن هاجر لما حبلت حقرت ساراي واستكبرت عليها فشكت ساراي ذلك إلى أبرام ففوّض أبرام أمرها إليها فهربت هاجر منها فلقيها ملك فأمرها بالرجوع إلى سيدتها وأخبرها أنها ستلد ولداً ذكراً وتدعو اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتها، وأنه يكون إنساناً وحشياً يضادّ الناس ويضادّونه، وولدت هاجر لأبرام ولداً وسمّاه أبرام إسماعيل وكان أبرام ابن ست وسبعين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام.

قالت التوراة: ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملاً فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثّرك كثيراً جداً فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً: أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم، فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً: وملوك منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك وأعطي لك ولنسلك من بعد أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم.

ثم ذكرت: أن الرب جعل في ذلك عهداً بينه وبين إبراهيم ونسله أن يختتن هو وكل من معه ويختتنوا أولادهم اليوم الثامن من الولادة فختن إبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وختن ابنه إسماعيل وهو ابن ثلاث عشرة سنة وسائر الذكور من بنيه وعبيده.

قالت التوراة: وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها ابناً، وأباركها فتكون أمماً وملوك شعوب منها يكونون، فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه: وهل يولد لابن مائة سنة؟ هل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟

وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثّره كثيراً جداً، اثنا عشر رئيساً يلد وأجعله أمّة كبيرة، ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق

الذي تلده سارة في هذا الوقت في السنة الآتية، فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم.

ثم ذكرت قصة نزول الرب مع الملكين لإهلاك أهل سدوم قوم لوط وأنهم وردوا على إبراهيم فضافهم وأكلوا من الطعام الذي عمله لهم من عجل قتله والزبد واللبن اللذين قدّمهما إليهم ثم بشّروه وبشروا سارة بإسحاق وذكروا أمر قوم لوط فجادلهم إبراهيم في هلاكهم فأقنعوه وكان بعده هلاك قوم لوط.

ثم ذكرت أن إبراهيم انتقل إلى أرض «حرار» وتغرّب فيها وأظهر لملكه «أبيمالك» أن سارة أُخته فأخذها الملك منه فعاتبها الرب في المنام فأحضر إبراهيم وعاتبه على أن قوله: إنها أُختي فاعتذر أنه إنما قال ذلك خوفاً من القتل واعترف أنها في الحقيقة أُخته من أبيه دون أُمه تزوج بها فرد إليه سارة وأعطاهما مالاً جزيلاً (نظير ما قص في فرعون).

قالت التوراة: وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما تكلم فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي تكلم الله عنه ودعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته له سارة إسحاق، وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله، وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه، وقالت سارة: فقد صنع إليّ الله ضحكاً كل من يسمع يضحك لي، وقالت من قال لإبراهيم: سارة ترضع بنين حتى ولدت ابناً في شيخوخته فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق.

ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: أطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك في كل ما تقول لك سارة اسمع قولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضاً سأجعله أمّة لأنه نسلك.

فبكّر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً

إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في بريّة بئر سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رميه قوس لأنها قالت: لا أنظر موت الولد فجلست مقابلة ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي واحملي الغلام وشدّي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر[1].

قالت التوراة: وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم فقال: ها أنا ذا فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك، فبكّر إبراهيم صباحاً وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق معه وشقّق حطباً لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله، وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد فقال إبراهيم لغلاميه: إجلسا أنتما ههنا مع الحمار، أمّا أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ونرجع إليكما، فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه وأخذه بيده النار والسكين فذهبا كلاهما معاً، وكلم إسحاق أباه إبراهيم وقال له: يا أبي فقال: ها أنا ذا يا ابني فقال: هوذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟ فقال إبراهيم: الله يرى له الخروف للمحرقة يا بني فذهبا كلاهما معاً.

فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هنالك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مدّ إبراهيم يده وأخذ السكين لذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم! فقال: ها أنا ذا، فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأني الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني فرفع

(١) والواقع في روايات المسلمين أنه تزوج من الجرهم وهم من عشائر العرب اليمنيين.

إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع «يهوه يرأه» حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب «يُرىَ»، ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال: بذاتي أقسمت يقول الرب: إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطىء البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معاً إلى بئر سبع وسكن إبراهيم في بئر سبع.

ثم ذكرت تزويجه إسحاق من عشيرته بكلدان، ثم موت سارة وهي بنت مائة وسبع وعشرين في حبرون، ثم ازدواج إبراهيم بعدها بقطورة وإيلادها عدّة من البنين، ثم موت إبراهيم وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، ودفن ابنيه إسحاق وإسماعيل إيّاه في غار «مكفيلة» وهو مشهد الخليل اليوم.

فهذه خلاصة قصص إبراهيم عليه السلام وتاريخ حياته المورد في التوراة (سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر ـ الإصحاح الخامس والعشرون) وعلى الباحث الناقد أن يطبّق ما ورد منه فيها على ما قصّ القرآن الكريم ثم يرى رأيه.

٥ ـ الذي تشتمل عليه من القصة المسرودة على ما فيها من التدافع بين جملها والتناقض بين أطرافها مما يصدق القرآن الكريم فيما ادّعاه أن هذا الكتاب المقدّس لعبت به أيدي التحريف.

فمن عمدة ما فيها من المغمض أنها أهملت ذكر مجاهداته في أول أمره وحجاجاته قومه وما قاساه منهم من المحن والأذايا، وهي طلائع بارقة لمّاعة من تاريخه عليه السلام.

ومن ذلك إهمالها ذكر بنائه الكعبة المشرفة وجعله حرماً آمناً وتشريعه الحجّ، ولا يرتاب أي باحث دينيّ ولا ناقد اجتماعيّ أن هذا البيت العتيق الذي لا يزال قائماً على قواعدها منذ أربعة آلاف سنة من أعظم الآيات

الإلهية التي تذّكر أهل الدنيا بالله سبحانه وآياته، وتستحفظ كلمة الحق دهراً طويلاً، وهو أوّل بيت لله تعالى وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين.

وليس إهمال ذكره إلا لنزعة إسرائيلية من كتاب التوراة ومؤلّفيها دعتهم إلى الصفح عن ذكر الكعبة، وإحصاء ما بناه من المذابح ومذبح بناه بأرض شكيم، وآخر بشرقيّ بيت إيل، وآخر بجبل الرب.

ثم الذي وصفوا به النبي الكريم إسماعيل: أنه كان غلاماً وحشياً يضادّ الناس ويضادّونه، ولم يكن له من الكرامة إلا أنه كان مطروداً من حضرة أبيه نما رامي قوس! يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره.

ومن ذلك: ما نسبته إليه مما لا يلائم مقام النبوّة ولا روح التقوى والفتوّة كقولها: إن ملكي صادق ملك «شاليم» أخرج إليه خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه[1].

ومن ذلك قولها: إن إبراهيم أخبر تارة رؤساء فرعون مصر أن سارة أخته ووصى سارة أن تصدقه في ذلك إذ قال لها: قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك، وأظهر تارة أخرى لأبي مالك ملك حرار أنها أخته، فأخذها للزوجية فرعون تارة، وأبي مالك أخرى، ثم ذكرت التوراة تأول إبراهيم في قوله: «إنها أختي» مرّة بأنها أختي في الدين، وأخرى أنها ابنة أبي من غير أمي فصارت لي زوجة.

---

(١) ربما وجهوا أن ملكي صادق هذا كاهن الرب هو «امرافل» ملك شنعار المذكور في أول القصة وهو «حمورابي» الملك صاحب الشريعة الذي هو أحد السلالة الأولى من ملوك بابل، وقد اختلف في تاريخ ملكه اختلافاً شديداً لا ينطبق أكثر ما قيل فيه زمان حياة إبراهيم وهو (٢٠٠) ق م فقد ذكر في كتاب العرب قبل الإسلام أنه تملك بابل سنة ٢٢٨٧ ـ ٢٢٣٢ ق م وفي شريعة حمورابي نقلاً عن كتاب أقدم شرائع العالم للاستاذ ف. ادوارد أن سني ملكه ٢٢٠٥ ـ ٢١٦٧ ق. م، وفي قاموس أعلام الشرق والغرب أنه تولى سلطنة بابل سنة ١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق. م وفي قاموس الكتاب المقدس أنه تولاها سنة ١٩٧٥ ـ ١٩٢٠ ق. م.

وأوضح ما ينافي هذا الحديث أن الذي اكتشفوه من النصب في خرائب بابل وعليها شريعة حمورابي تشتمل على ذكر عدة من آلهة البابليين، ويدل على كون حمورابي من الوثنيين، ولا يستقيم عليه أن يكون كاهناً للرب.

وأيسر ما في هذا الكلام أن يكون إبراهيم (وحاشا مقام الخليل) يعرض زوجته سارة لأمثال فرعون وأبي مالك مستغلاً بها حتى يأخذاها زوجة وهي ذات بعل وينال بذلك جزيل العطاء ويستدرها بما عندهما من الخير!

على أن كلام التوراة صريح في أن سارة كانت عندئذٍ وخاصة حينما أخذها أبي مالك عجوزاً قد عمرت سبعين أو أكثر، والعادة تقضي أن المرأة تفتقد في سن العجائز نضارة شبابها ووضاءة جمالها، والملوك والجبابرة المترفون لا يميلون إلى غير الفتيات البديعة جمالاً الطرية حسناً.

وربما وجد ما يشاكل هذا المعنى في بعض الروايات ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأُتي بها فقام إبراهيم إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين[1] الأوليين فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت فأُطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر.

قال فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف وقال لها: مهيم فقالت: خيراً كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً. قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

---

(١) كذا في الأصل المنقول عنه وكأن فيه سقطاً.

وفي صحيح البخاري بطرق كثيرة عن أنس وأبي هريرة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة وحذيفة، وفي مسند أحمد عن أنس وابن عباس وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود والطبراني عن عبادة بن الصامت وابن أبي شيبة عن سلمان، والترمذي عن أبي هريرة، وأبو عوانة عن حذيفة عن أبي بكر حديث شفاعة النبيﷺ يوم القيامة، وهو حديث طويل فيه أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحد يسألونهم الشفاعة عند الله، وكلما أتوا نبياً وسألوه الشفاعة ردّهم إلى من بعده واعتذر بشيء من عثراته حتى ينتهوا إلى خاتم النبيين محمّدﷺ فيجيبهم إلى مسألتهم وفي الحديث: أنهم يأتون إبراهيمﷺ يطلبون منه أن يشفع لهم عند الله فيقول لهم: لست هنا لكم إني كذبت ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله لامرأته «أخبريه أني أخوك».

والاعتبار الصحيح لا يوافق مضمون الحديثين كما ذكره بعض الباحثين إذ لو كان المراد بهما أن الأقاويل الثلاث التي وضعت فيهما أنها كذبات ليست كذبات حقيقية بل من قبيل التوريات والمعاريض البديعية كما ربما يلوح من بعض ألفاظ الحديث كالذي ورد في بعض طرقه من قول النبيﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله» وكذا قولهﷺ: «ما منها كذبة إلا ماحل[1] بها عن دين الله» فما بال إبراهيم في حديث القيامة يعدّها ذنوباً لنفسه ومانعة عن القيام بأمر الشفاعة ويعتذر بها عنها؟ فإنها على هذا التقدير كانت من محنة في ذات الله وحسناته في الدين لو جاز لنبيّ من الأنبياء أن يكذب لمصلحة الدين لكنك قد عرفت أن ذلك مما لا يجوز على الأنبياءﷺ قطعاً لاستيجابه سلب الوثوق عن إخباراتهم وأحاديثهم من أصلها.

على أن هذا النوع من الأخبار لو جاز عده كذباً ومنعه عن الشفاعة عند الله سبحانه كان قولهﷺ لما رأى كوكباً والقمر والشمس: هذا ربي وهذا ربي أولى بأن يعد كذباً مانعاً عن الشفاعة المنبئة عن القرب من الله تعالى.

---

(١) أي جادل.

على أن قوله عليه السلام على ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٩ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ لا يظهر بشيء من قرائن الكلام كونه كذباً غير مطابق للواقع فلعله عليه السلام كان سقيماً بنوع من السقم لا يحجزه عما همّ به من كسر الأصنام.

وكذا قوله عليه السلام للقوم إذ سألوه عن أمر الأصنام المكسورة بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فأجابهم وهم يعلمون أن أصنامهم من الجماد الذي لا شعور فيه ولا إرادة له: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ثم أردفه بقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ لا سبيل إلى عده كذباً فإنه كلام موضوع مكان التبكيت مسوق لإلزام الخصم على الاعتراف ببطلان مذهبه، ولذا لم يجد القوم بداً دون أن اعترفوا بذلك فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

ولو كان المراد أن الأقاويل الثلاث كذبات حقيقية كان ذلك من المخالفة الصريحة لكتاب الله تعالى، ونحيل ذلك إلى فهم الباحث الناقد فليراجع ما تقدم في الفصل الثاني من الكلام في منزلة إبراهيم عليه السلام عند الله تعالى وموقفه العبودي مما أثنى الله عليه بأجمل الثناء وحمد مقامه أبلغ الحمد.

وليت شعري كيف ترضى نفس باحث ناقد أو تجوّز أن ينطبق مثل قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾[2] على رجل كذاب يستريح إلى كذب القول كلما ضاقت عليه المذاهب؟ أو كيف يمدح الله بتلك المدائح الكريمة رجلاً لا يراقب الله سبحانه في حق أو صدق (حاشا ساحة خليل الله عن ذلك).

وأما الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنها تصدق التوراة في أصل القصة غير أنها تجل إبراهيم عليه السلام عما نسب إليه من الكذب وسائر ما لا يلائم قدس ساحته، ومن أجمع ما يتضمن قصة الخليل عليه السلام ما في الكافي

---

(١) الأنبياء: ٦٧.

(٢) مريم: ٤١.

عن علي عن أبيه وعدة من أصحابنا عن سهل جميعاً عن ابن محبوب عن إبراهيم بن زيد الكرخي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إبراهيم عليه السلام كان مولده بكوثار[1] وكان أبوه من أهلها، وكانت أم إبراهيم وأم لوط عليه السلام وسارة وورقة ـ وفي نسخة رقبة ـ اختين وهما ابنتان للاحج، وكان لاحج نبياً منذراً ولم يكن رسولاً.

وكان إبراهيم عليه السلام في شبيبته على الفطرة التي فطر الله عزّ وجلّ الخلق عليها حتى هداه الله تبارك وتعالى إلى دينه واجتباه، وأنه تزوج سارة ابنة لاحج وهي ابنة خالته وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة، وكانت قد ملّكت إبراهيم جميع ما كانت تملكه فقام فيه وأصلحه وكثرت الماشية والزرع حتى لم يكن بأرض كوثاريا رجل أحسن حالاً منه.

وإن إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنام نمروذ وأمر به نمروذ فأُوثق وعمل له حيراً[2] وجمع له فيه الحطب وألهب فيه النار ثم قذف إبراهيم عليه السلام في النار لتحرقه ثم اعتزلوها حتى خمدت النار ثم أشرفوا على الحير فإذا هم بإبراهيم عليه السلام سليماً مطلقاً من وثاقه فأخبر نمروذ خبره فأمرهم أن ينفوا إبراهيم عليه السلام من بلاده، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله فحاجّهم إبراهيم عليه السلام عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي فإن حقي عليكم أن تردوا عليّ ما ذهب من عمري في بلادكم، واختصموا إلى قاضي نمروذ فقضى على إبراهيم عليه السلام أن يسلم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم، وقضى على أصحاب نمروذ أن يردوا على إبراهيم عليه السلام ما ذهب من عمره في بلادهم، وأخبر بذلك نمروذ فأمرهم أن يخلوا سبيله وسبيل ماشيته وماله وأن يخرجوه، وقال: إنه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضر بآلهتكم فأخرجوا إبراهيم ولوطاً عليه السلام معه من بلادهم إلى الشام.

فخرج إبراهيم ومعه لوط لا يفارقه وسارة، وقال لهم: إني ذاهب إلى ربي سيهدين يعني إلى بيت المقدس فتحمّل إبراهيم بماشيته وماله وعمل تابوتاً وجعل فيه سارة وشدّ عليها الأغلاق غيرةً منه عليها ومضى حتى خرج

---

(١) كانت قرية من أعمال الكوفة وضبطه الجزري كوثى.

(٢) الحير مخفف الحاير وهو الحائط.

من سلطان نمرود، وسار إلى سلطان رجل من القبط يقال له «عزارة» فمر بعاشر له فاعترضه العاشر ليعشر ما معه فلما انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لإبراهيم عليه السلام: افتح هذا التابوت لنعشر ما فيه فقال له إبراهيم عليه السلام: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتى نعطي عشره ولا نفتحه. قال: فأبى العاشر إلا فتحه قال: وغضب[1] إبراهيم عليه السلام على فتحه فلما بدت له سارة وكانت موصوفة بالحسن والجمال قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟ قال إبراهيم عليه السلام: هي حرمتي وابنة خالتي، فقال له العاشر: فما دعاك إلى أن خبيتها في هذا التابوت؟ فقال إبراهيم عليه السلام: الغيرة عليها أن يراها أحد فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى أُعلم الملك حالها وحالك.

قال: فبعث رسولاً إلى الملك فأعلمه فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت فأتوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم عليه السلام: إني لست أفارق التابوت حتى يفارق روحي جسدي فأخبروا الملك بذلك فأرسل الملك أن احملوه والتابوت معه فحملوا إبراهيم عليه السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتى أُدخل على الملك فقال له الملك: افتح التابوت فقال له إبراهيم عليه السلام أيها الملك إنّ فيه حرمتي ابنة خالتي وأنا مفتدٍ فتحه بجميع ما معي.

قال: فغضب الملك إبراهيم عليه السلام على فتحه فلما رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مد يده إليها فأعرض إبراهيم عليه السلام وجهه عنها وعنه غيرة منه وقال: اللهم احبس يده عن حرمتي ابنة خالتي فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه فقال له الملك: إن إلهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم إن إلهي غيور يكره الحرام، وهو الذي بينك وبيني ما أردته من الحرام فقال له الملك: فادع إلهك يردّ عليّ يدي فإن أجابك فلم أعرض لها فقال إبراهيم عليه السلام: إلهي رد إليه يده ليكف عن حرمتي. قال: فرد الله عزّ وجلّ إليه يده فأقبل الملك نحوها ببصره ثم عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه، وقال: اللهم احبس يده عنها. قال: فيبست يده ولم تصل إليها.

---

(١) بالمعجمة فالمهملة يقال: غصبه على كذا أي قهره.

فقال الملك لإبراهيم عليه السلام: إن إلهك لغيور وإنك لغيور فادع إلهك يردّ إليّ يدي فإنه إن فعل لم أعد فقال إبراهيم عليه السلام: أسأله ذلك على أنك إن عدت لم تسألني أن أسأله فقال له الملك: نعم فقال إبراهيم عليه السلام: اللهم إن كان صادقاً فرد يده عليه فرجعت إليه يده.

فلما رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى ورأى الآية في يده عظّم إبراهيم عليه السلام وهابه وأكرمه واتّقاه، وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها أو لشيء مما معك فانطلق حيث شئت ولكن لي إليك حاجة فقال إبراهيم عليه السلام: ما هي؟ فقال له: أحب أن تأذن لي أن أخدمها قبطيّة عندي جميلة عاقلة تكون لها خادمة قال: فأذن إبراهيم عليه السلام فدعا بها فوهبها لسارة وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام.

فسار إبراهيم عليه السلام بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم عليه السلام إعظاماً لإبراهيم وهيبة له فأوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قف ولا تمش قدّام الجبار المتسلط ويمشي هو خلفك، ولكن اجعله أمامك وامش خلفه وعظمه وهبه فإنه مسلط ولا بد من إمرة في الأرض برّة أو فاجرة فوقف إبراهيم عليه السلام وقال للملك: امضِ فإن إلهي أوحى إليّ الساعة أن أعظمك وأهابك وأن أقدمك أمامي وأمشي خلفك إجلالاً لك. فقال له الملك: أوحى إليك بهذا؟ فقال إبراهيم عليه السلام: نعم فقال له الملك: أشهد أن إلهك لرفيق حليم كريم وأنك ترغّبني في دينك.

قال: وودعه الملك فسار إبراهيم عليه السلام حتى نزل بأعلى الشامات، وخلّف لوطاً عليه السلام في أدنى الشامات. ثم إن إبراهيم عليه السلام لما أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئت لبعتني هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولداً فيكون لنا خلفاً، فابتاع إبراهيم عليه السلام هاجر من سارة فوقع عليها فولدت إسماعيل عليه السلام.

ومن ذلك ما ذكرته أعني التوراة في قصة الذبح أن الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل عليهما السلام مع أن قصة إسكانه بأرض تهامة وبنائه الكعبة المشرّفة وتشريع عمل الحج الحاكي لما جرى عليه وعلى أمه من المحنة والمشقة في ذات الله، وقد اشتمل على الطواف والسعي والتضحية كل ذلك تؤيد كون الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق عليهما السلام.

وقد وقع في إنجيل برنابا أن المسيح لام اليهود ووبّخهم على قولهم بأن الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل قال في الفصل ٤٤: فكلم الله إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين الفصل ٤٤ آية ١١ ـ ١٢.

وأما القرآن فإن آياته كالصريحة في كون الذبيح هو إسماعيل عليه السلام قال تعالى بعد ما ذكر قصة كسر الأصنام وإلقائه في النار وجعلها برداً وسلاماً: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾[1].

والمتدبر في الآيات الكريمة لا يجد مناصاً دون أن يعترف أن الذبيح هو الذي ذكر الله سبحانه البشارة به في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وأن البشارة الأخرى التي ذكرها أخيراً بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ غير البشارة الأولى، والذي بشر به في الثانية وهو إسحاق عليه السلام غير الذي بشر به في الأولى وأردفها بذكر قصة التضحية به.

وأما الروايات فالتي وردت منها من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تذكر أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، والتي رويت من طرق أهل السنة والجماعة مختلفة: فصنف يذكر إسماعيل وصنف يذكر إسحاق عليهما السلام غير أنك عرفت أن الصنف الأول هو الذي يوافق الكتاب.

قال الطبري في تاريخه: اختلف السلف من علماء أمة نبينا محمّد صلى الله عليه وآله

(١) الصافات: ٩٨ ـ ١١٣.

في الذي أُمر إبراهيم بذبحه من ابنيه فقال بعضهم: هو إسحاق بن إبراهيم، وقال بعضهم: هو إسماعيل بن إبراهيم. وقد روي عن رسول الله ﷺ كلا القولين لو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رويت عنه ﷺ أنه قال: هو إسحاق أوضح وأبين منه على صحة الأخرى.

إلى أن قال: وأما الدلالة من القرآن التي قلنا: إنها على أن ذلك إسحاق أصح فقوله تعالى مخبراً عن دعاء خليله إبراهيم حين فارق قومه مهاجراً إلى ربه إلى الشام مع زوجته سارة قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك قبل أن يعرف هاجر، وقبل أن تصير له أُم إسماعيل ثم أتبع ذلك ربنا عزّ وجلّ الخبر عن إجابة دعائه وتبشيره إياه بغلام حليم ثم عن رؤيا إبراهيم أنه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعي.

ولا نعلم في كتاب الله عزّ وجلّ تبشيراً لإبراهيم بولد ذكر إلا بإسحاق وذلك قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

ثم ذلك كذلك في كل موضع ذكر فيه تبشير إبراهيم بغلام فإنما ذكر تبشير الله إياه به من زوجته سارة فالواجب أن يكون ذلك في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ نظير ما في سائر سور القرآن من تبشيره إياه من زوجته سارة.

وأما اعتلال من اعتل بأن الله لم يأمر بذبح إسحاق وقد أتته البشارة من الله قبل ولادته بولادته وولادة يعقوب منه من بعده فإنها علة غير موجبة صحة ما قال، وذلك أن الله تعالى إنما أمر إبراهيم بذبح إسحاق بعد إدراك إسحاق السعي وجائز أن يكون يعقوب ولد له قبل أن يؤمر أبوه بذبحه.

وكذلك لا وجه لاعتلال من اعتل في ذلك بقرن الكبش أنه رآه معلقاً بالكعبة وذلك أنه غير مستحيل أن يكون حمل من الشام إلى الكعبة فعلق هنالك، انتهى كلامه.

وليت شعري كيف خفي عليه أن إبراهيم ﷺ لما سأل ربه الولد عند مهاجرته إلى الشام وعنده سارة ولا خبر عن هاجر يومئذٍ سأل ذلك بقوله:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ فسأل ربه الولد، ولم يسأل أن يرزقه ذلك من سارة حتى تحمل البشارة المذكورة عقيبه على البشارة بإسحاق فإنما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولم يقل: رب هب لي من سارة.

وأما ما ذكره أن المعروف من سائر مواضع كتاب الله هو البشرى بإسحاق فيجب أن نحمل البشرى في هذا الموضع عليه أيضاً. فمع ما سيجيء من الكلام عليه في سائر الموارد التي أشار إليها هو في نفسه قياس لا دليل عليه بل الدليل على خلافه فإن الله سبحانه في هذه الآيات لما ذكر البشارة بغلام حليم ثم ذكر قصة الذبح استأنف ثانياً ذكر البشارة بإسحاق ولا يرتاب المتدبّر في هذا السياق أن المبشر به ثانياً غير المبشر به أولاً فقد بشر إبراهيم عليه السلام قبل إسحاق بولد له آخر وليس إلا إسماعيل، وقد اتفق الرواة والنقلة وأهل التاريخ أن إسماعيل ولد لإبراهيم قبل إسحاق عليهم السلام جميعاً.

ومن ذلك التدافع البيّن فيما تذكره التوراة من أمر إسماعيل فإنها تصرح أن إسماعيل ولد لإبراهيم عليه السلام قبل أن يولد له إسحاق بما يقرب من أربعة عشر عاماً وأن إبراهيم عليه السلام طرده وأمه هاجر بعد تولد إسحاق لما استهزأ بسارة ثم تسرد قصة إسكانهما الوادي ونفاد الماء الذي حملته هاجر وعطش إسماعيل ثم إراءة الملك إياها الماء، ولا يرتاب الناظر المتدبر في القصة أن إسماعيل كان عندئذٍ صبياً مرضعاً فعليك بالرجوع إليها والتأمل فيها، وهذا هو الذي يوافق المأثور من أخبارنا.

٦ ـ القرآن الكريم يعتني أبلغ الاعتناء بقصة إبراهيم عليه السلام من جهة نفسه ومن جهة ابنيه الكريمين إسماعيل وإسحاق وذرّيتهما معاً بخلاف ما يتعرض له في التوراة فإنها تقصر الخبر عنه بما يتعلق بإسحاق وشعب إسرائيل، ولا يلتفت إلى إسماعيل إلا ببعض ما يهوّن أمره ويحقّر شأنه، ومع ذلك لا يخلو يسير ما تخبر عنه عن التدافع فتارة تذكر خطاب الله سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن نسلك الباقي هو من إسحاق، وتارة أُخرى خطابه أن الله بارك لنسلك من عقب إسماعيل وسيجعله أمة كبيرة، وتارة تعرفه إنساناً وحشياً يضاد الناس ويضاده الناس قد نشأ رامي قوس مطروداً عن بيت أبيه، وتارة تذكر أن الله معه.

وبالتأمل فيما تقدم من قصته ﷺ في القرآن يظهر الجواب عن إشكالين أشكل بهما على الكتاب العزيز.

الإشكال الأول ما ذكره بعض المستشرقين[1] أن القرآن في سوره المكيّة لا يتعرض لشأن إبراهيم وإسماعيل ﷺ إلا كما يتعرض لشأن سائر الرسل من أنهم كانوا على دين التوحيد ينذرون الناس ويدعونهم إلى الله سبحانه من غير أن يذكر بناءه الكعبة وصلته بإسماعيل وكونهما داعيين للعرب إلى دين الفطرة والملة الحنيفية. لكن السور المدنية كالبقرة والحج وغيرهما تذكر إبراهيم وإسماعيل متصلين اتصال الأبوة والبنوة وأبوين للعرب مشرعين لها دين الإسلام بانيين للكعبة البيت الحرام.

وسر هذا الاختلاف أن محمّداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن له بد أن التمس غيرهم ناصراً. هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم فعدّه أباً للعرب مشيداً لدينهم الإسلام بانياً لبيتهم المقدس الذي في مكة لما أن هذه المدينة كانت تشغل جل تفكيره. انتهى ملخصاً.

وقد أزرى المستشكل على نفسه بهذه الفرية التي نسبها إلى الكتاب العزيز الذي له شهرته العالمية التي لا يتحجب معها على شرقي ولا غربي فكل باحث متدبر يشاهد أن القرآن الكريم لم يداهن مشركاً ولا يهودياً ولا نصرانياً ولا غيرهم في سورة مكية ولا مدنية ولم يختلف لحن قوله في تخطئة اليهود ولا غيرهم بحسب مكية السور ومدنيتها.

غير أن الآيات القرآنية لما نزلت نجوماً بحسب وقوع الحوادث المرتبطة بالدعوة الدينية، وكان الابتلاء بأمر اليهود بعد الهجرة كان التعرض لشؤونهم والإبانة عن التشديد في حقهم لا محالة في الآيات النازلة في تضاعيف السور المدنية كتفاصيل الأحكام المشرعة التي أُنزلت فيها حسب مسيس الحاجة بحدوث الحوادث.

---

(١) نقله النجار في قصص الأنبياء عن المستشرق هجرونيه والمستشرق فنسنك. في دائرة المعارف الإسلامية.

وأما ما ذكراه من اختصاص حديث اتصال إسماعيل بإبراهيم عليهما السلام وبناء الكعبة وتأسيس الدين الحنيف بالسور المدنية فيكذبه قوله تعالى في سورة إبراهيم وهي مكية فيما حكاه من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى أن قال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ إلى أن قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[1]. وقد مر نظيره في الآيات المنقولة من سورة الصافات آنفاً المنبئة عن قصة الذبيح.

وأما ما ذكراه من يهودية إبراهيم عليه السلام فإن القرآن يرده بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إلى أن قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

الإشكال الثاني: أن الصابئين وهم عبدة الكواكب الذين يذكر القرآن تعرض إبراهيم عليه السلام لآلهتهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ إلى آخر الآيات إنما كانوا بمدينة حران الذي هاجر إليها إبراهيم عليه السلام من بابل أو من «أور» ولازمه أن يكون حجاجه عبدة الكواكب بعد مدة من حجاجه عبدة الأصنام وكسره الأصنام ودخوله النار، ولا يلائم ذلك ما هو ظاهر الآيات أن قصة الحجاج مع عبدة الأصنام والكواكب وقعت جميعاً في يومين عند أول شخوصه إلى أبيه وقومه.

أقول: وهذا في الحقيقة إشكال على التفسير الذي تقدم إيراده في بيان الآيات لا على أصل الكتاب.

ومع ذلك ففيه غفلة عما يثبته التاريخ ويعطيه الاعتبار الصحيح أما الاعتبار فإن المملكة التي ينتحل في بعض بلاده العظيمة بدين من الأديان

---

(١) إبراهيم: ٣٩.

(٢) آل عمران: ٦٧.

الشائعة المعروفة كالصابئية التي كانت يومئذٍ من الأديان المعروفة في الدنيا لا يخلو من شيوع في سائر بلادها ووجود جماعة من منتحليه منتشرة في أقطارها.

وأما التاريخ فقد ذكر شيوعه كشيوع الوثنية ببابل ووجود معابد كثيرة فيها بنيت على أسماء الكواكب وأصنام لها منصوبة فيها فقد جاء في تاريخ أرض بابل وما والاها ذكر بناء معبد إله الشمس وإله القمر في حدود سنة ثلاثة آلاف ومائتين قبل المسيح، وفي نصب شريعة حمورابي ذكر إله الشمس وإله القمر وهو مما يقرب زمن الخليل إبراهيم عليه السلام.

وفي كتاب الآثار الباقية لأبي ريحان البيروني: أن يوذاسف ظهر عند مضي سنة من ملك طهمورث بأرض الهند، وأتى بالكتابة الفارسية، ودعا إلى ملة الصابئين فاتبعه خلق كثير، وكانت الملوك البيشدادية وبعض الكيانية ممن كان يستوطن بلخ يعظمون النيّرين والكواكب وكليّات العناصر إلى وقت ظهور زرادتشت عند مضي ثلاثين سنة من ملك بشتاسف.

وساق الكلام إلى أن قال: وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها، ويعظمون الأنوار، ومن آثارهم القبة التي فوق المحراب عند المقصورة من جامع دمشق كان مصلاهم، وكان اليونانيون والروم على دينهم، ثم صارت في أيدي اليهود فعملوها كنيستهم، ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة إلى أن جاء الإسلام وأهله فاتخذوها مسجداً.

وكانت لهم هياكل وأصنام بأسماء الشمس معلومة الأشكال كما ذكرها أبو معشر البلخي في كتابه في بيوت العبادات مثل هيكل بعلبك كان لصنم الشمس، وقران فإنها منسوبة إلى القمر وبناؤه على صورته كالطيلسان، وبقربها قرية تسمى سلمسين واسمها القديم: صنم سين أي صنم القمر، وقرية أخرى تسمى ترع عوز أي باب الزهرة.

ويذكرون أن الكعبة وأصنامها كانت لهم، وعبدتها كانوا من جملتهم وأن اللات كان باسم زحل، والعزّى باسم الزهرة، انتهى.

وذكر المسعودي أن مذهب الصابئة كان نوعاً من التحول والتكامل في دين الوثنية وأن الصبوة ربما كانت تتحوّل إلى الوثنية لتقارب مأخذيهما، وأن الوثنية ربما كانوا يعبدون أصنام الشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب تقرباً بها إلى آلهتها ثم إلى إله الآلهة.

قال في مروج الذهب: كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقدون أن الله عزّ وجلّ جسم، وأن الملائكة أجسام لها أقدار وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناماً على صورة الباري عزّ وجلّ وبعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود والأشكال، ومنها على صورة الإنسان وعلى خلافها من الصور يعبدونها، وقربوا لها القرابين، ونذروا لها النذور لشبهها عندهم بالباري تعالى وقربها منه.

فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار حتى نبّههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة تختلف فيهما بينها وبين الله، وأن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم فمكثوا على ذلك دهراً.

فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناماً وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوا لها أصناماً وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة، وكل صنف منهم يعظم كوكباً منها، ويقرب لها نوعاً من القربان خلاف ما للآخر على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون، وبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب.

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام هو بيت زحل، وإنما طال عندهم بقاء هذا البيت على مرور الدهور معظماً في سائر الأعصار لأنه بيت زحل، وأن زحل تولاه لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت، فما كان له فغير زائل ولا دائر، وعن التعظيم غير حائل وذكروا أموراً أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها.

ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله وألغوا عبادة الكواكب فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر يوذاسف بأرض الهند وكان هندياً، وكان يوذاسف خرج من أرض الهند إلى السند ثم سار إلى بلاد سجستان وبلاد زابلستان وهي بلاد فيروز بن كبك ثم دخل السند ثم إلى كرمان.

فتنبّأ وزعم أنه رسول الله، وأنه واسطة بين الله وبين خلقه، وأتى أرض فارس، وذلك في أوائل ملك طهمورث ملك فارس، وقيل: ذلك في ملك جم، وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة.

وقد كان يوذاسف أمر الناس بالزهد في هذا العالم، والاشتغال بما علا من العوالم، إذ كان من هناك بدء النفوس وإليها يقع الصدر من هذا العالم، وجدّد يوذاسف عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها لشبه ذكرها، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع.

وذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم: أن جم الملك أول من عظم النار ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال: إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب لأن النور عنده أفضل من الظلمة، وجعل للنور مراتب. ثم تنازع هؤلاء بعده فعظم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأشياء تقرباً إلى الله بذلك.

ثم ذكر المسعودي البيوت المعظمة عندهم وهي سبعة: الكعبة البيت الحرام باسم زحل، وبيت على جبل مارس بأصفهان، وبيت مندوسان ببلاد الهند، وبيت نوبهار بمدينة بلخ على اسم القمر، وبيت غمدان بمدينة صنعاء من بلاد اليمن على اسم الزهرة، وبيت كاوسان بمدينة فرغانة على اسم الشمس، وبيت بأعالي بلاد الصين على اسم العلة الأولى.

ولليونان والروم القديم والصقالبة بيوت معظمة بعضها مبنية على اسم الكواكب كالبيت الذي بتونس للروم الذي على اسم الزهرة.

ثم ذكر المسعودي أن للصابئين من الحرانيين[1] هياكل على أسماء

(١) يطلق الحرانيون على الصابئين مطلقاً لاشتهار حران بهذا الدين.

الجواهر العقلية والكواكب فمن ذلك هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل. قال: ومن هياكل الصابئة هيكل السلسلة، وهيكل الصورة وهيكل النفس وهذه مدورات الشكل، وهيكل زحل مسدس، وهيكل المشتري مثلث، وهيكل المريخ مربع مستطيل، وهيكل الشمس مربع، وهيكل عطارد مثلث الشكل، وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن الشكل، وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخفونها، انتهى. وقريب منه ما في الملل والنحل للشهرستاني.

وقد تبين مما نقلناه **أولاً**: أن الوثنية كما كانت تعبد أصناماً للآلهة وأرباب الأنواع كذلك كانت تعبد أصنام الكواكب والشمس والقمر، وكانت عندهم هياكل على أسمائها، ومن الممكن أن يكون حجاج إبراهيم عليه السلام في أمر الكواكب والقمر والشمس، مع الوثنية العابدين لها المتقربين بها دون الصابئة كما يمكن أن يكون بعض الصابئين في مدينة بابل أو بلدة أور أو كوثاريا على ما في بعض الروايات المنقولة سالفاً.

على أن ظاهر ما يقصه القرآن الكريم: أن إبراهيم عليه السلام حاجّ أباه وقومه وتحمل أذاهم في الله حتى اعتزلهم وهجرهم بالمهاجرة من أرضهم إلى الأرض المقدسة من غير أن يتغرب من أرضهم إلى حران أولاً ثم من حران إلى الأرض المقدسة، والذي ضبطه كتب التاريخ من مهاجرته إلى حران أولاً ثم من حران إلى الأرض المقدسة لا مأخذ له غير التوراة أو أخبار غير سليمة من نفثة إسرائيلية كما هو ظاهر لمن تدبر تاريخ الطبري وغيره.

على أن بعضهم ذكروا أن حران المذكور في التوراة كان بلداً قرب بابل بين الفرات وخابور، وهو غير حران الواقع قرب دمشق الموجود اليوم.

نعم ذكر المسعودي أن الذي بقي من هياكلهم ـ الصابئة ـ المعظمة في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ بيت لهم بمدينة حران في باب الرقة يعرف «بمغليتيا» وهو هيكل آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السلام عندهم، وللقوم في آزر وابنه إبراهيم كلام كثير، انتهى. ولا حجة في قولهم على شيء.

وثانياً: أنه كما أن الوثنية ربما كانت تعبد الشمس والقمر والكوكب

كذلك الصابئة كانت تبني بيوتاً وهياكل لعبادة غير الكواكب والقمر والشمس كالعلة الأولى والعقل والنفس وغيرها كالوثنية وتتقرب إليها مثلهم وقد ذكر هيرودوتوس في تاريخه في ما يصف معبد بابل أنه كان مشتملاً على ثمانية أبراج بعضها مبنية على بعض وأن آخر الأبراج وهو أعلاها كان مشتملاً على قبة وسيعة ما فيها غير عرش عظيم حياله طاولة من ذهب، وليس في القبة شيء من التماثيل والأصنام ولا يبيت فيها أحد إلا امرأة يزعم الناس أن الله هو اختارها للخدمة ووظفها للملازمة. انتهى[1].

ولعله كان للعلة الأولى المنزّهة عن الهيئات والأشكال وإن كانوا ربما يصورونه بما يتوهمونه من الصور كما ذكره المسعودي. وقد ثبت أن فلاسفتهم كانوا ينزهون الله تعالى عن الهيئات الجسمانية والأشكال والأوضاع المادية ويصفونه بما يليق به من الصفات غير أنهم كانوا يتقون العامة أن يظهروا ما يعتقدونه فيه سبحانه إما لعدم استعداد أفهامهم لتلقي ذلك، أو لمقاصد وأغراض سياسية توجب كتمان الحق[2].

(١) تاريخ هيرودوتوس اليوناني المؤلف في حدود ٥٥٠ ق. م.
(٢) انظر الميزان المجلد ٧ ص ٢٢٢.

الفصل الخامس:

البعد الأخلاقي في قصة إبراهيم عليه السلام

إذا رجعنا إلى قصة إبراهيم عليه السلام وسيره بولده وحرمته إلى أرض مكة، وإسكانهما هناك، وما جرىٰ عليهما من الأمر، حتىٰ آل الأمر، إلى ذبح إسماعيل، وفدائه من جانب الله وبنائهما البيت. وجدنا القصة دورة كاملة من السير العبودي الذي يسير به العبد من موطن نفسه إلى قرب ربه، ومن أرض العبد إلى حظيرة القرب بالإعراض عن زخارف الدنيا، وملاذها، وأمانيها من جاه، ومال، ونساء وأولاد، والانقلاع والتخلص عن دسائس الشياطين، وتكديرهم صفو الإخلاص والإقبال والتوجه إلى مقام الرب ودار الكبرياء.

فها هي وقائع متفرقة مترتبة تسلسلت وتألفت قصة تاريخية تحكي عن سير عبودي من العبد إلى الله سبحانه وتشمل من أدب السير والطلب والحضور ورسوم الحب والوله والإخلاص على ما كلما زدت في تدبره إمعاناً زادك استنارة ولمعاناً.

ثم: إن الله سبحانه أمر خليله إبراهيم، أن يشرع للناس عمل الحج كما قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾[1] إلى آخر الآيات وما شرعه عليه السلام وإن لم يكن معلوماً لنا بجميع خصوصياته لكنه كان شعاراً دينياً عند العرب في الجاهلية إلى أن

(١) الحج: ٢٧.

بعث الله النبي ﷺ وشرّع فيه ما شرع ولم يخالف فيه ما شرعه إبراهيم إلا بالتكميل كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[2]، وكيف كان فما شرعه النبي ﷺ من نسك الحج المشتمل على الإحرام والوقوف بعرفات ومبيت المشعر والتضحية ورمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة والطواف والصلاة بالمقام تحكي قصة إبراهيم، وتمثل مواقفه ومواقف أهله ومشاهدهم ويا لها من مواقف طاهرة إلهية القائد إليها جذبة الربوبية والسائق نحوها ذلة العبودية.

والعبادات المشروعة ـ على مشرعيها أفضل السلام ـ صور لمواقف الكملين من الأنبياء من ربهم، وتماثيل تحكي عن مواردهم ومصادرهم في مسيرهم إلى مقام القرب والزلفىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3]. وهذا أصل.

وفي الأخبار المبينة لحكم العبادات وأسرار جعلها وتشريعها شواهد كثيرة على هذا المعنى، يعثر عليها المتتبع البصير[4].

---

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) انظر المجلد الأول من الميزان ص ٢٩٣ تحت عنوان بحث علمي.

الفصل السادس:

قصة البشرى في القرآن الكريم

قصة البشرى وسماها الله تعالى حديث ضيف إبراهيم عليه السلام وقعت في خمس من السور القرآنية كلها مكيّة وهي على ترتيب القرآن سورة هود والحجر والعنكبوت والصافات والذاريات.

فالأولى ما في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[1].

والثانية ما في سورة الحجر: قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ

(١) الآيات: ٦٩، ٧٦.

إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٣﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾[1].

والثالثة ما في سورة العنكبوت: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[2].

والرابعة ما في سورة الصافات: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[3].

والخامسة ما في سورة الذاريات قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾[4].

---

(١) الآيات: ٥١، ٦٠.

(٢) الآيتان: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) الآيات: ٩٩، ١١٣.

(٤) الآيات: ٢٤، ٣٠.

ويقع البحث في قصة البشرى من وجوه

أحدها: أنها هل هي بشرى واحدة وهي المشتملة على بشرى إبراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب وقد وقعت قبيل هلاك قوم لوط أو أنهما قصتان: إحداهما تشتمل على البشرى بإسماعيل والأخرى تتضمن البشرى بإسحاق ويعقوب.

ربما رجح الثاني بناءً على أن ما وقع من القصة في سورة الذاريات صريح في تقديم العجل المشوي، وأن إبراهيم خافهم لما امتنعوا من الأكل ثم بشروه وامرأته العجوز العقيم وهي سارة أم إسحاق قطعاً، وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك بعد إهلاك قوم لوط حيث يقول الملائكة: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٤﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الآيات، ونظير ذلك ما في سورة هود وقد قال فيها الملائكة لإزالة الروع عن إبراهيم ابتداءً: إنا أُرسلنا إلى قوم لوط.

وأما ما في سورة الحجر فليس يتضمن حديث تقديم العجل المشوي بل ظاهره أن إبراهيم وأهله خافوهم لدى دخولهم عليه فأسكنوا رعبه بالبشارة كما يقول تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك قبل هلاك لوط.

ونظيره ما في سورة العنكبوت من القصة وهي أظهر في كون ذلك قبل الهلاك ويتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط.

لكن الحق أن الآيات في جميع السور الأربع سورة هود والحجر

والعنكبوت والذاريات إنما تقص قصة البشارة بإسحاق ويعقوب دون إسماعيل.

وأمّا ما في ذيل آيات الذاريات من قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ الظاهر في المضي والفراغ عن الأمر فنظيره واقع في آيات الحجر مع تسليمهم أنها تقص ما قبل الفراغ.

على أن قول الملائكة المرسلين وهم بعد في الطريق: «إنا أُرسلنا» لا مانع منه بحسب اللغة والعرف.

وأما قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾ إلى آخر الآيات فهو من كلامه تعالى وليس من تتمة كلام الملائكة لإبراهيم كما يدل عليه سياق القصص الواردة في سورة الذاريات. وأما ذكر الوجل في آيات الحجر في أول قصة بخلاف سورتي الذاريات وهود فالوجه فيه عدم ذكر تقديم العجل المشوي في آيات الحجر بخلافهما، على أن الارتباط التام بين أجزاء قصة مما يجوّز أن يقدم بعضها على بعض حيناً ويعكس الأمر حيناً آخر كما أنه تعالى يذكر إنكار إبراهيم في آيات الذاريات في صدر القصة بعد سلامهم وفي سورة هود في وسط القصة بعد امتناعهم من الأكل، وهذا كثير الورود في نظم القرآن.

على أن آيات هود صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب وهي تتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط في سياق لا يشك معه أنه قبل هلاك لوط، ولازمه كون بشرى إسحاق قبله لا بعده.

على أن من المتفق عليه أن إسماعيل كان أكبر سناً من إسحاق وبين ولادتيهما سنون، ولو كانت هؤلاء الملائكة بشروا إبراهيم بإسماعيل في مسيرهم إلى هلاك قوم لوط قبيل الهلاك وبشّروه بإسحاق في منصرفهم عن هلاكهم بعيده كان الفصل بين البشريين يوماً أو يومين فيكون الفصل بين البشرى بإسحاق وبين ولادته سنون من الزمان والبشرى لا تطلق إلا على الإخبار بالجميل إذا كان مشرفاً على الوقوع إلا إذا كانت هناك عناية خاصة وأما الإخبار بمطلق الجميل فهو وعد ونحو ذلك.

وثانيهما: أنه هل هناك بشرى بإسماعيل؟ والحق أن ما ذكرت من

البشرى في صدر آيات الصافات إنما هي بشرى بإسماعيل وهي غير ما ذكرت في ذيل الآيات من البشرى بإسحاق صريحاً فإن سياق الآيات في ذيل قوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ ثم استئناف البشارة بإسحاق في قوله أخيراً: «وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» لا يدع ريباً لمرتاب أن الغلام الحليم الذي بشّر به أولاً غير إسحاق الذي بشّر به ثانياً، وليس إلا إسماعيل.

وذكر الطبري في تاريخه أن المراد بالبشارة الأولى في هذه السورة أيضاً البشارة بإسحاق قياساً على ذكر من البشارة في سائر السور، وهو كما ترى.

وثالثها: البحث في القصة من جهة تطبيق ما في التوراة الحاضرة منها على ما استفيد من القرآن، وسيوافيك ذلك عند الكلام على قصة لوط عليه السلام.

ورابعها: البحث فيها من جهة جدال إبراهيم الملائكة وقد وقع فيها مثل قوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾.

وقد تقدم أن سياق الآيات وخاصة قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ لا يدل إلا على نعته بالجميل فلم يكن جداله إلا حرصاً منه في نجاة عباد الله رجاء أن يهتدوا إلى صراط الإيمان...[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد العاشر صفحة ٣٢٠ من الميزان.

الفصل السابع

ملخص تاريخ الكعبة

من المتواتر المقطوع به أن الذي بنى الكعبة إبراهيم الخليل عليه السلام وكان القاطنون حولها يومئذٍ ابنه إسماعيل وجرهم من قبائل اليمن وهي بناء مربع تقريباً وزواياها الأربع إلى الجهات الأربع تتكسر عليها الرياح ولا تضرها مهما اشتدت. ما زالت الكعبة على بناء إبراهيم حتىٰ جددها العمالقة ثم بنو جرهم (أو بالعكس) كما مر في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم لما آل أمر الكعبة إلى قصي بن كلاب أحد أجداد النبي صلى الله عليه وآله في القرن الثاني قبل الهجرة هدمها وبناها فأحكم بناءها، وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل وبنىٰ إلى جانبها دار الندوة، وكان في هذه الدار حكومته وشوراه مع أصحابه، ثم قسم جهات الكعبة بين طوائف قريش فبنوا دورهم على المطاف حول الكعبة وفتحوا عليه أبواب دورهم.

وقبل البعثة بخمس سنين هدم السيل الكعبة فاقتسمت الطوائف العمل لبنائها وكان الذي يبنيها ياقوم الرومي، ويساعده عليه نجار مصري ولما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود تنازعوا فيما بينهم أيهم يختص بشرف وضعه فرأوا أن يحكّموا محمّداً صلى الله عليه وآله وسنّه إذ ذاك خمس وثلاثون سنة لما عرفوا من وفور عقله وسداد رأيه فطلب رداء ووضع عليه الحجر وأمر القبائل فأمسكوا بأطرافه ورفعوه حتى إذا وصل إلى مكانه من البناء في الركن الشرقي أخذه هو فوضعه بيده في موضعه. وكانت النفقة قد بهظتهم فقصروا بناءها على ما هي عليه الآن وقد بقي

بعض ساحته خارج البناء من طرف الحجر حجر إسماعيل لاستصفارهم البناء.

وكان البناء على هذه الحال حتىٰ تسلط عبد الله بن الزبير على الحجاز في عهد يزيد بن معاوية فحاربه الحصين قائد يزيد بمكة وأصاب الكعبة بالمنجنيق فانهدمت وأحرقت كسوتها وبعض أخشابها ثم انكشف عنها لموت يزيد فرأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويعيد بناءها فأتىٰ لها بالجص النقي من اليمن وبناها به وأدخل الحجر في البيت وألصق الباب بالأرض وجعل قبالته باباً آخر ليدخل الناس من باب ويخرجوا من آخر وجعل ارتفاع البيت سبعة وعشرين ذراعاً ولما فرغ من بنائها ضمخها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً وكساها بالديباج وكان فراغه من بنائها ١٧ رجب سنة ٦٤ هجرية.

ثم لما تولىٰ عبد الملك بن مروان الخلافة بعث الحجاج بن يوسف قائده فحارب ابن الزبير حتىٰ غلبه فقتله، ودخل البيت فأخبر عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير في الكعبة فأمره بإرجاعها إلىٰ شكلها الأول فهدم الحجاج من جانبها الشمالي ستة أذرع وشبراً وبنىٰ ذلك الجدار على أساس قريش ورفع الباب الشرقي وسد الغربي ثم كبس أرضها بالحجارة التي فضلت منها.

ولما تولى السلطان سليمان العثماني الملك سنة ستين وتسعمأة غيّر سقفها ولما تولى السلطان أحمد العثماني سنة إحدىٰ وعشرين بعد الألف أحدث فيها ترميماً ولما حدث السيل العظيم سنة تسع وثلاثين بعد الألف هدم بعض حوائطها الشمالية والشرقية والغربية فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها ولم يزل على ذلك حتى اليوم وهو سنة ألف وثلاث مائة وخمس وسبعين هجرية قمرية وسنة ألف وثلاث مائة وثمانية وثلاثين هجرية شمسية.

شكل الكعبة: شكل الكعبة مربع تقريباً وهي مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ويبلغ ارتفاعها ستة عشر متراً، وقد كانت في زمن النبيﷺ أخفض منه بكثير على ما يستفاد من حديث رفع النبيﷺ علياً عليه السلام على عاتقه يوم الفتح لأخذ الأصنام التي كانت على الكعبة وكسرها.

وطول الضلع الذي فيه الميزاب والذي قبالته عشرة أمتار وعشرة سانتي مترات وطول الضلع الذي فيه الباب والذي قبالته اثنا عشر متراً والباب على ارتفاع مترين من الأرض وفي الركن الذي على يسار الباب للداخل، الحجر الأسود على ارتفاع متر ونصف من أرض المطاف والحجر الأسود حجر ثقيل بيضي الشكل غير منتظم لونه أسود ضارب إلى الحمرة وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه قطره نحو ثلاثين سانتي متراً.

وتسمى زوايا الكعبة من قديم أيامها بالأركان فيسمى الشمالي بالركن العراقي والغربي بالشامي والجنوبي باليماني والشرقي الذي فيه الحجر الأسود بالأسود وتسمى المسافة التي بين الباب وركن الحجر بالملتزم لالتزام الطائف إياه في دعائه واستغاثته وأما الميزاب على الحائط الشمالي ويسمى ميزاب الرحمة فمما أحدثه الحجاج بن يوسف ثم غيّره السلطان سليمان سنة ٩٥٤ إلى ميزاب من الفضة ثم أبدله السلطان أحمد سنة ١٠٢١ بآخر من فضة منقوشة بالميناء الزرقاء يتخللها نقوش ذهبية ثم أرسل السلطان عبد المجيد من آل عثمان سنة ١٢٧٣ ميزاباً من الذهب فنصب مكانه وهو الموجود الآن.

وقبالة الميزاب حائط قوسي يسمى بالحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت الشمالية والغربية ويبعدان عنهما مقدار مترين وثلاثة سانتيمترات، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصف متر، وهو مبطن بالرخام المنقوش والمسافة بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سانتيمتراً.

والفضاء الواقع بين الحطيم وبين حائط البيت هو المسمى بحجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في الكعبة في بناء إبراهيم والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان في الحجر.

وأما تفصيل ما وقع داخل البيت من تغيير وترميم وما للبيت من السنن والتشريفات فلا يهمنا التعرض إليه.

كسوة الكعبة: من الروايات في قصة هاجر وإسماعيل ونزولهما أرض مكة أن هاجر علقت كساءها على باب الكعبة بعد تمام بنائها.

وأما كسوة البيت نفسه فيقال: إن أول من كساها تبع أبو بكر أسعد كساها بالبرود المطرزة بأسلاك الفضة، وتبعه خلفاؤه ثم أخذ الناس يكسونها بأردية مختلفة فيضعونها بعضها على بعض وكلما بلي منها ثوب وضع عليها آخر إلى زمن قصي ووضع قصي على العرب رفادة لكسوتها سنوياً واستمر ذلك في بنيه وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة وقبائل قريش سنة.

وقد كساها النبي ﷺ بالشياب اليمانية وكان على ذلك حتى إذا حج الخليفة العباسي المهدي شكا إليه سدنة الكعبة من تراكم الأكسية على سطح الكعبة وذكروا أنه يخشىٰ سقوطه فأمر برفع تلك الأكسية وإبدالها بكسوة واحدة كل سنة وجرى العمل على ذلك حتى اليوم وللكعبة كسوة من داخل وأول من كساها من داخل أم العباس بن عبد المطلب لنذر نذرته في ابنها العباس.

منزلة الكعبة: كانت الكعبة مقدسة معظمة عند الأمم المختلفة فكانت الهنود يعظمونها ويقولون: إن روح «سيفا» وهو الأقنوم الثالث عندهم حلت في الحجر الأسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة وربما قيل إنه بيت زحل لقدم عهده وطول بقائه [أما البيوت السبعة المعظمة فهي: ١ ـ الكعبة ٢ ـ مارس على رأس جبل بأصفهان ٣ ـ مندوسان ببلاد الهند ٤ ـ نوبهار بمدينة بلخ ٥ ـ بيت غمدان بمدينة صنعاء ٦ ـ كلوسان بمدينة فرغانة من خراسان ٧ ـ بيت بأعالي بلاد الصين].

وكانت الفرس يحترمون الكعبة أيضاً زاعمين أن روح هرمز حلت فيها وربما حجّوا إليها زائرين.

وكانت اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم وكان بها صور وتماثيل منها تمثال إبراهيم وإسماعيل وبأيديهما الأزلام ومنها صورتا العذراء والمسيح ويشهد ذلك على تعظيم النصارىٰ لأمرها أيضاً كاليهود.

وكانت العرب أيضاً تعظمها كل التعظيم وتعدها بيتاً لله تعالىٰ وكانوا يحجون إليها من كل جهة وهم يعدون البيت بناءً لإبراهيم والحج من دينه الباقي بينهم بالتوارث.

ولاية الكعبة: كانت الولاية على الكعبة لإسماعيل ثم لولده من بعده حتى تغلبت عليهم جرهم فقبضوا بولايتها ثم ملكتها العماليق وهم طائفة من بني كركر بعد حروب وقعت بينهم وقد كانوا ينزلون أسفل مكة كما أن جرهم كانت تنزل أعلىٰ مكة وفيهم ملوكهم.

ثم كانت الدائرة لجرهم على العماليق فعادت الولاية إليهم فتولوها نحواً من ثلاث مائة سنة وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان في بناء إبراهيمﷺ. ثم لما نشأت ولد إسماعيل وكثروا وصاروا ذوي قوة ومنعة وضاقت بهم الدار حاربوا جرهم فغلبوهم وأخرجوهم من مكة ومقدم الإسماعيليّين يومئذٍ عمرو بن لحي وهو كبير خزاعة فاستولىٰ على مكة وتولىٰ أمر البيت.وهو الذي وضع الأصنام على الكعبة ودعا الناس إلى عبادتها وأول صنم وضعه عليها هو (هبل) حمله معه من الشام إلى مكة ووضعه عليها ثم أتبعه بغيره حتى كثرت وشاعت عبادتها بين العرب وهجرت الحنيفية. وفي ذلك يقول شحنة بن خلف الجرهمي يخاطب عمرو بن لحي:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة ... شتىٰ بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبداً ... فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل ... سيصطفي دونكم للبيت حجابا

وكانت الولاية في خزاعة إلى زمن حليل الخزاعي فجعلها حليل من بعده لابنته وكانت تحت قصي بن كلاب وجعل فتح الباب وغلقها لرجل من خزاعة يسمىٰ أبا غبشان الخزاعي فباعه أبو غبشان من قصي بن كلاب ببعير وزق خمر وفي ذلك يضرب المثل السائر «أخسر من صفقة أبي غبشان».

فانتقلت الولاية إلى قريش وجدد قصي بناء البيت كما قدمناه وكان الأمر على ذلك حتى فتح النبيﷺ مكة، ودخل الكعبة وأمر بالصور والتماثيل فمحيت وأمر بالأصنام فهدمت وكسرت، وقد كان مقام إبراهيم

وهو الحجر الذي عليه أثر قدمي إبراهيم موضوعاً بمعجن في جوار الكعبة ثم دفن في محله الذي يعرف به الآن وهو قبة قائمة على أربعة أعمدة يقصدها الطائفون للصلاة.

وأخبار الكعبة وما يتعلق بها من المعاهد الدينية كثيرة طويلة الذيل اقتصرنا منها على ما تمسه حاجة الباحث المتدبر في آيات الحج والكعبة.

ومن خواص هذا البيت الذي بارك الله فيه وجعله هدىً أنه لم يختلف في شأنه أحد من طوائف الإسلام[1].

(١) انظر الميزان المجلد ٣ ص ٤١٠.

الفصل الثامن

قصة لوط عليه السلام وقومه في القرآن الكريم

١ ـ قصته وقصة قومه في القرآن:

كان لوط عليه السلام من كلدان في أرض بابل ومن السابقين الأولين ممن آمن بإبراهيم عليه السلام آمن به وقال: إني مهاجر إلى ربي فنجاه الله مع إبراهيم إلى الأرض المقدسة أرض فلسطين فنزل في بعض بلادها «وهي مدينة سدوم على ما في التواريخ والتوراة وبعض الروايات». وكان أهل المدينة وما والاها من المدائن وقد سماها الله في كلامه بالمؤتفكات يعبدون الأصنام، ويأتون بالفاحشة: اللواط، وهم أول قوم شاع فيهم ذلك حتى كانوا يأتون به في نواديهم من غير إنكار ولم يزل تشيع الفاحشة فيهم حتى عادت سنّة قومية ابتلت به عامتهم وتركوا النساء وقطعوا السبيل.

فأرسل الله لوطاً إليهم فدعاهم إلى تقوى الله وترك الفحشاء والرجوع إلى طريق الفطرة وأنذرهم وخوّفهم فلم يزدهم إلا عتواً ولم يكن جوابهم إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، وهددوه بالإخراج من بلدتهم وقالوا له لئن لم تنته لتكونن من المخرجين وقالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون.

٢ ـ عاقبة أمرهم:

لم يزل لوط عليه السلام يدعوهم إلى سبيل الله وملازمة سنّة الفطرة وترك الفحشاء وهم يصرون على عمل الخبائث حتى استقر بهم الطغيان وحقت

عليهم كلمة العذاب فبعث الله رسلاً من الملائكة المكرمين لإهلاكهم فنزلوا أولاً على إبراهيم عليه السلام وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط فجادلهم إبراهيم عليه السلام لعله يرد بذلك عنهم العذاب، وذكرهم بأن فيهم لوطاً فردوا عليه بأنهم أعلم بموقع لوط وأهله، وأنه قد جاء أمر الله وأن القوم آتيهم عذاب غير مردود

فمضوا إلى لوط في صور غلمان مرد ودخلوا عليه ضيفاً فشق ذلك على لوط وضاق بهم ذرعاً لما كان يعلم من قومه أنهم سيتعرضون لهم وأنهم غير تاركيهم البتة فلم يلبث دون أن سمع القوم بذلك وأقبلوا يهرعون إليه وهم يستبشرون وهجموا على داره فخرج إليهم وبالغ في وعظهم واستثارة فتوّتهم ورشدهم حتى عرض عليهم بناته وقال: يا قوم إن هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي ثم استغاث وقال: أليس منكم رجل رشيد فردوا عليه أنه ليس لهم في بناته إربة وأنهم غير تاركي أضيافه البتة حتى أيس لوط وقال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد. قالت الملائكة عند ذلك: يا لوط إنا رسل ربك طب نفساً إن القوم لن يصلوا إليك فطمسوا أعين القوم فعادوا عمياناً يتخبطون وتفرقوا.

ثم أمروا لوطاً عليه السلام أن يسري بأهله من ليلته بقطع من الليل ويتبع أدبارهم ولا يلتفت منهم أحد إلا امرأته فإنه مصيبها ما أصابهم، وأخبروه أنهم سيهلكون القوم مصبحين. فأخذت الصيحة القوم مشرقين، وأرسل الله عليهم حجارة من طين مسومّة عند ربك للمسرفين، وقلب مدائنهم عليهم فجعل عاليها سافلها وأخرج من كان فيها من المؤمنين فلم يجد فيها غير بيت من المسلمين وهو بيت لوط وترك فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم.

وفي اختصاص الإيمان والإسلام ببيت لوط عليه السلام، وشمول العذاب لمدائنهم دلالة ـ أولاً ـ على أن القوم كانوا كفاراً غير مؤمنين ـ وثانياً ـ على أن الفحشاء ما كانت شائعة فيما بين الرجال منهم فحسب إذ لو كان الأمر على ذلك والنساء بريئات منها وكان لوط يدعو الناس إلى الرجوع إلى سبيل الفطرة وسنّة الخلقة التي هي مواصلة الرجال والنساء

لاتبعته عدّة من النساء واجتمعن حوله وآمنّ به طبعاً ولم يذكر من ذلك شيء في كلامه سبحانه.

وفي ذلك تصديق ما تقدم في الأخبار المأثورة أن الفحشاء شاعت بينهم، واكتفى الرجال بالرجال باللواط، والنساء بالنساء بالسحق.

٣ ـ شخصية لوط المعنوية:

كان عليه السلام رسولاً من الله إلى أهل المؤتفكات وهي مدينة سدوم وما والاها من المدائن ـ ويقال: كانت أربع مدائن: سدوم وعمورة وصوغر وصبوييم وقد أشركه في جميع المقامات الروحية التي وصف بها أنبياءه الكرام.

ومما وصفه به خاصة ما في قوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

٤ ـ لوط وقومه في التوراة:

ذكرت التوراة أن لوطاً كان ابن أخي أبرام ـ إبراهيم ـ هاران بن تارخ وكان هو وأبرام في بيت تارخ في أور الكلدانيين ثم هاجر تارخ أور قاصداً أرض الكنعانيين فأقام ببلدة حاران ومعه أبرام ولوط ومات هناك.

ثم إن أبرام بأمر من الرب خرج من حاران ومعه لوط ولهما مال كثير وغلمان اكتسبا ذلك في حاران فأتى أرض كنعان، وكان يرتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب، ثم أتى مصر، ثم صعد من هناك جنوباً نحو بيت إيل فأقام هناك.

ولوط السائر مع أبرام أيضاً كان له غنم وبقر وخيام ولم تحتملهما الأرض أن يسكنا ووقعت مخاصمة بين رعاة مواشيهما فتفرقا فأحذرا من وقوع النزاع والتشاجر فاختار لوط دائرة الأردن وسكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم، وكان أهل سدوم أشرار وخطاة لدى الرب جداً، ونقل

---

(١) الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥.

أبرام خيامه وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون.

ثم وقعت حرب بين ملوك سدوم وعمورة وإدمة وصبوييم وصوغر من جانب وأربعة من جيرانهم من جانب، انهزم فيها ملك سدوم ومن معه من الملوك، وأخذ العدوّ جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم، وأسر لوط فيمن أسر وسبي جميع أمواله، وانتهى الخبر إلى أبرام فخرج فيمن معه من الغلمان وكانوا يزيدون على ثلاث مائة فحاربهم وهزمهم، وأنجى لوطاً وجميع أمواله من الأسر والسبي، وردّه إلى مكانه الذي كان مقيماً فيه (ملخص ما في التوراة من صدر قصة لوط).

قالت التوراة: وظهر له ـ لأبرام ـ الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار. فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه. فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض. وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت هذه الشجرة. فآخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم. فقالوا: هكذا نفعل كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميداً اعجني واصنعي خبز ملّة، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيّداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله. ثم أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم.

وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا. وقالوا له: أين سارة امرأتك، فقال: ها هي في الخيمة، فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن.

وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه، وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام. وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء. فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعّم وسيّدي قد شاخ؟ فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان

الحياة ويكون لسارة ابن، فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك، لأنها خافت: فقال: لا بل ضحكت.

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم. فقال الرب: هل أُخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله، وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض، لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به.

فقال الرب: إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إليّ وإلا فأعلم. وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم. وأما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب. فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البارّ مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون بارّاً في المدينة. أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارّاً الذين فيه؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البارّ مع الأثيم فيكون البارّ كالأثيم حاشاك. أديّان كل الأرض لا يصنع عدلاً؟ فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين بارّاً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم.

فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد ربما نقص الخمسون بارّاً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة؟ فقال الرب: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين. فعاد يكلمه أيضاً وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون، فقال: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون. فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال: إني قد شرعت أكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون، فقال: لا أُهلك من أجل العشرين.

فقال: لا يسخط المولى وأتكلم هذه المرة فقط عسى أن يوجد هناك عشرة، فقال: لا أُهلك من أجل العشرة. وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه. فجاء الملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض.

وقال: يا سيديّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ثم تبكران وتذهبان في طريقكما، فقالا: لا بل في الساحة نبيت فألح عليهما جداً، فمالا إليه ودخلا بيته، فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا. وقبل ما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها فنادوا لوطاً وقالوا له: أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما. فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه. وقال: لا تفعلوا شراً يا إخوتي. هو ذا لي ابنتان لم يعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم. وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظلّ سقفي.

فقالوا: إبعد إلى هناك. ثم قالوا: جاء هذا الإنسان ليتغرّب وهو يحكم حكماً. الآن نفعل بك شراً أكثر منهما. فألحوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب.

وقال الرجلان للوط: من لك أيضاً ها هنا أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكهم. فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقال: قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة فكان كمازح في أعين أصهاره.

ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوطاً قائلين: قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة. ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة.

وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال: اهرب لحياتك. ولا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة، اهرب إلى الجبل فقال لهما لوط: لا يا سيد هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر يدركني فأموت. هوذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة فتحيا نفسي. فقال له: إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن

لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها. أسرع اهرب إلى هناك لأني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك ـ لذلك دعي اسم المدينة صوغر.

وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً ونارا من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح.

وبكّر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة. ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون. وحدث لما خرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم. وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط.

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلمّ نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً. وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيّين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمّي وهو أبو بني عمون إلى اليوم. انتهى.

هذا ما قصته التوراة في لوط وقومه نقلناه على طوله ليتضح به ما تخالف القرآن الكريم من وجه القصة ومن وجوه غيرها.

ففيها كون الملك المرسل للبشرى والعذاب ملكين اثنين. وقد عبر القرآن بالرسل ـ بلفظ الجمع وأقله ثلاثة ـ.

وفيها أن أضياف إبراهيم أكلوا مما صنعه وقدمه إليهم، والقرآن ينفي

ذلك ويقص أن إبراهيم خاف إذ رأى أن أيديهم لا تصل إليه. وفيها: إثبات بنتين للوط. والقرآن يعبر بلفظ البنات. وفيها كيفية إخراج الملائكة لوطاً وكيفية تعذيب القوم وصيرورة المرأة عموداً من ملح وغير ذلك.

وفيها نسبة التجسيم صريحة إلى الله سبحانه، وما ذكرته من قصة لوط مع بنتيه أخيراً، والقرآن ينزّه ساحة الحق سبحانه عن التجسّم ويبرىء أنبياءه ورسله عن ارتكاب ما لا يليق بساحة قدسهم...[1].

٥ ـ قصة لوط في روايات أهل البيت:

في الكافي بإسناده عن زكريا بن محمّد [عن أبيه] عن عمرو عن أبي جعفرعليه السلام قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم فلم يزل إبليس يعتادهم فكانوا إذا رجعوا خرّب إبليس ما يعملون.

فقالوا بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذي يخرّب متاعنا فرصدوه فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان فقالوا له: أنت الذي تخرّب متاعنا مرة بعد أُخرى. فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيّتوه عند رجل فلما كان الليل صاح له فقال له: ما لك؟ فقال: فإنّ أبي ينوّمني على بطنه فقال له: تعال فنم على بطني.

قال: فلم يزل يدلك الرجل حتى علّمه أن يفعل بنفسه فأولاً علمه إبليس والثاني علمه هو ثم انسل يفر منهم، فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويعجبهم منه وهم لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بعضهم ببعض ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم حتى تنكّب مدينتهم الناس ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان. فلما رأى أنه قد أحكم أمره في الرجال جاء إلى النساء فصيّر نفسه امرأة فقال لهنّ: إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض؟ قلن: نعم رأينا ذلك. وكل ذلك يعظهم لوط ويوصيهم وإبليس يغويهم حتى استغنى النساء بالنساء.

---

(١) انظر هذه القصة في المجلد العاشر صفحة ٣٤١ من الميزان.

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زي غلمان عليهم أقبية فمروا بلوط وهو يحرث. قال: أين تريدون؟ ما رأيت أجمل منكم قط. فقالوا: إنا رسل سيدنا إلى رب هذه البلدة. قال: أولم يبلغ سيدكم ما يفعل أهل هذه القرية؟ إنهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم. قالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها. قال: فلي إليكم حاجة. قالوا: وما هي؟ قال: تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام.

قال: فجلسوا. قال: فبعث ابنته. قال: فجيئي لهم بخبر وجيئي لهم بماء في القرعة وجيئي لهم بعباء يتغطون بها من البرد فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطر والوادي فقال لوط: الساعة تذهب بالصبيان الوادي قال: قوموا حتى نمضي وجعل لوط يمشي في أصل الحائط، وجعل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل يمشون وسط الطريق. قال: يا بنيَّ امشوا هُهنا فقالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها وكان لوط يستغنم الظلام.

ومر إبليس فأخذ من حجر امرأة صبياً فطرحه في البئر فتصايح أهل المدينة كلهم على باب لوط فلما أن نظروا إلى الغلمان في منزل لوط قالوا: يا لوط قد دخلت في عملنا؟ فقال: هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني في ضيفي. قالوا: هم ثلاثة خذ واحداً وأعطنا اثنين. قال: وأدخلهم الحجرة وقال: لو أن لي أهل بيت يمنعوني منكم.

قال: وتدافعوا على الباب وكسروا باب لوط وطرحوا لوطاً فقال له جبرئيل: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأخذ كفاً من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال: شاهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط: يا رسل ربي فما أمركم ربي فيهم؟ قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر. قال: فلي إليكم حاجة. قالوا: وما حاجتك؟ قال تأخذوهم الساعة فإنني أخاف أن يبدو لربي فيهم. فقالوا: يا لوط إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب لمن يريد أن يأخذ فخذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك.

فقال أبو جعفر عليه السلام: رحم الله لوطاً لو علم من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حيث يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أيّ ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة؟ فقال عزّ وجلّ لمحمّد صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ من ظالمي أمتك إن عملوا ما عمل قوم لوط، وقال رسول

الله ﷺ: من ألحّ في وطء الرجال لم يمت حتى يدعو الرجال إلى نفسه.

أقول: والرواية لا تخلو من تشويش ما في اللفظ، وقد ذكر فيها الملائكة المرسلون ثلاثة، وفي بعض الروايات ـ كالرواية المذكورة عن أبي يزيد الحمّار عن أبي عبد الله ﷺ ـ أنهم كانوا أربعة بزيادة كروبيل، وفي بعض الروايات من طرق أهل السنّة أنهم كانوا ثلاثة وهم جبرئيل وميكائيل ورفائيل، والظاهر من الرواية أنها تأخذ قول لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ إلخ خطاباً منه للملائكة لا للقوم.

وقوله ﷺ: رحم الله لوطاً لو علم «إلخ» في معنى قول النبي ﷺ ـ على ما روي عنه ـ رحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد. وقوله ﷺ: فقال عزّ وجلّ لمحمّد ﷺ إلخ إشارة إلى احتمال كون الآية، مسوقة لتهديد قريش.

وفي تفسير القمي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ قال: ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط إلا رماه الله بجندلة من تلك الحجارة تكون منيته فيه ولكن الخلق لا يرونه.

أقول: وروى في الكافي بإسناده عن ميمون البان عنه ﷺ مثله. وفيه من بات مصرّاً على اللواط لم يمت حتى يرميه الله بحجارة تكون فيه منيته ولا يراه أحد، وفي الحديثين إشعار بكون قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ غير خاص بقريش، وإشعار بكون العذاب المذكور روحانياً غير مادي.

وفي الكافي بإسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله ﷺ في قول لوط: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال: عرض عليهم التزويج.

وفي التهذيب عن الرضا ﷺ: عن إتيان الرجل المرأة من خلفها فقال: أحلتها آية من كتاب الله عزّ وجلّ: قول لوط: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قد علم أنهم لا يريدون الفرج. وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ عن علي ﷺ أنه خطب فقال: عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته إنه إن كفّ يده عنهم كف يداً واحدة، وكفوا عنه أيدي كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلا بحسبه

وسأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى فتلا هذه الآية: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

قال عليﷺ: والركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عشيرة فوالذي لا إله غيره ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في ثروة من قومه.

أقول: وآخر الرواية مروي عن طرق أهل السنة والشيعة.

وفي الكافي، في حديث أبي يزيد الحمّار عن أبي جعفرﷺ قال: فأتوا يعني الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه وهم معتمّون فلما رأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قال لهم: المنزل فقالوا: نعم فتقدمهم ومشوا خلفه فندم على عرضه المنزل عليهم فقال: أي شيء صنعت؟ آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟ فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. قال جبرئيل: لا نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات فقال جبرئيل: هذه واحدة فمشى ساعة ثم التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله فقال جبرئيل: هذه ثنتان. ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم ثم قال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرئيل: هذه الثالثة ثم دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله. فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخنت فلما رأوا الدخان أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاءوا على الباب فنزلت إليهم فقالت: عندنا قوم ما رأيت قط قوماً أحسن منهم هيئة فجاءوا إلى الباب ليدخلوا. فلما رآهم لوط قام إليهم فقال لهم: يا قوم اتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد؟ ثم قال: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فدعاهم كلهم إلى الحلال فقالوا: ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، فقال لهم: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، فقال جبرئيل: لو يعلم أي قوة له.

فتكاثروه حتى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل فقال: يا لوط دعهم يدخلون فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ثم ناداه جبرئيل فقال له: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل.

وقال له جبرئيل: إنا بعثنا في إهلاكهم فقال: يا جبرئيل عجّل فقال: إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب.

فأمره يتحمل ومن معه إلا امرأته ثم اقتلعها يعني المدينة جبرئيل بجناحه من سبع أرضين ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب وصراخ الديوك ثم قلبها وأمطر عليها وعل من حول المدينة بحجارة من سجيل.

أقول: وما اشتمل عليه آخر الرواية من اقتلاعها من سبع أرضين ثم رفعها إلى حيث سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وصراخ ديوكهم أمر خارق للعادة، وهو وإن كان لا يستبعد من قدرة الله سبحانه لكنه مما لا يكفي في ثبوته أمثال هذه الرواية وهي من الآحاد.

على أن السنّة الإلهية جارية على أن تقتفي في الكرامات والمعجزات الحكمة وأي حكمة في رفعهم إلى هذا الحد ولا أثر له في عذابهم ولا في تشديده.

وقول بعض أهل الكلام: من الجائز أن يكون هذا الفعال العجيب الخارق للعادة لطفاً من الله ليكون الإخبار بذلك من طريق المعصومين مقرّباً للمؤمنين إلى الطاعة مبعّداً لهم من المعصية كلام مدخول فإن خلق الأمور العظيمة المعجبة والحوادث الخارقة للعادة ليتأكد بها إيمان المؤمنين ويعتبر بها المعتبرون وإن كان لا يخلو من لطف إلا أنه إنما يكون لطفاً فيما كان بلوغه لهم من طريق الحسّ أو أي طريق علمي آخر. وأما رواية واحدة أو ضعيفة وهي خالية عن الحجّية لا يعبأ بها فلا معنى لإيجاد الأمور الخارقة والحوادث العجيبة لأجل حصول اعتبار أو مخافة من طريقها، ولا وجه لتشديد عذاب قوم ليعتبر به قوم آخرون إلا في سنّة الجهّال من طغاة البشر وجبابرتهم.

قال صاحب المنار في تفسيره: وفي خرافات المفسّرين المروية عن الإسرائيليات أن جبرئيل قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج فيها ثم قلبها قلباً مستوياً فجعل عاليها سافلها. وهذا تصوّر مبني على اعتقاد متصوره أن

الأجرام السماوية المأهولة بالسكان مما يكن أن يقرب منهم سكان الأرض وما فيها من الحيوان ويبقون أحياء. وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار الفعلي في هذه الأيام التي يكتب هذا فيها أن الطيارات والمناطيد التي تحلق في الجو تصل إلى حيث يخف ضغط الهواء ويستحيل حياة الناس فيها. وهم يصنعون أنواعاً منها يضعون فيها من أكسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا ويصعدون فيها.

وقد أُشير في الكتاب العزيز إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.

فإن قيل: إن هذا الفعل المروي عن جبرئيل من الممكنات العقلية وكان وقوعه من خوارق العادات فلا يصحّ أن يجعل تصديقه موقوفاً على ما عرف من سنن الكائنات.

قلت: نعم ولكن الشرط الأول لقبول الرواية في أمر جاء على غير السنن والنواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران وخراب أن تكون الرواية عن وحي إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علّة على الأقل، ولم يذكر في كتاب الله تعالى، ولم يرد فيه حديث مرفوع إلى نبيّه ﷺ ولا تظهر حكمة الله فيه. وإنما روي عن بعض التابعين دون الصحابة ولا شك أنه من الإسرائيليات.

ومما قالوه فيها: أن عدد أهلها كان أربعة آلاف ألف وبلاد فلسطين كلها لا تسع هذا العدد، فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الأربع؟ انتهى.

والذي ذكره أن الحديث إنّما روي عن التابعين دون الصحابة فإنه أي هذا المعنى مروّي عن ابن عباس وعن الحذيفة بن اليمان، ففي رواية ابن عباس ـ كما في الدّر المنثور عن إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ومقاتل عن الضحاك عنه ـ «فلما كان عند وجه الصبح عمد جبريل إلى قرى لوط بما فيها من رجالها ونسائها وثمارها وطيرها فحواها وطواها ثم

قلعها من تخوم الثرى ثم احتملها تحت جناحه ثم رفعها إلى السماء الدنيا فسمع سكان سماء الدنيا أصوات الكلاب والطير والنساء والرجال من تحت جناح جبرئيل ثم أرسلها منكوسة ثم أتبعها بالحجارة، وكانت الحجارة للرعاة والتجار ومن كان خارجاً عن مدائنهم» الحديث.

وفي رواية حذيفة بن اليمان ـ على ما في الدر المنثور عن عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ـ «فاستأذن جبرئيل في هلاكهم فأذن له فاحتمل الأرض التي كانوا عليها، وأهوى بها حتى سمع أهل سماء الدنيا صغاء كلابهم وأوقد تحتهم ناراً ثم قلبها بهم فسمعت امرأة لوط الوجبة وهي معهم فالتفتت فأصابها العذاب، وتبعت سفارهم الحجارة» الحديث.

وأما من التابعين فقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي صالح ومحمّد بن كعب القرظيّ وعن السدّي ما هو أغلظ من ذلك قال: «لما أصبحوا نزل جبرئيل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ السماء الدنيا ثم أهوى بها جبرئيل إلى الأرض» الحديث. وأما ما ذكره من أنه «يشترط في قبول الرواية أن تكون منقولة بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علة» فمسألة أصولية.

والذي استقر عليه النظر اليوم في المسألة أن الخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقرينة قطعية فلا ريب في حجّيتها، وأما غير ذلك فلا حجّية فيه إلا الأخبار الواردة في الأحكام الشرعية الفرعية إذا كان الخبر موثوق الصدور بالظنّ النوعي فإن لها حجّية.

وذلك أن الحجية الشرعية من الاعتبارات العقلائية فتتبع وجود أثر شرعي في المورد يقبل الجعل والاعتبار الشرعي والقضايا التاريخية والأمور الاعتقادية لا معنى لجعل الحجية فيها لعدم أثر شرعي ولا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علماً وتعبيد الناس بذلك. والموضوعات الخارجية وإن أمكن أن يتحقق فيها أثر شرعي إلا أن آثارها جزئية والجعل الشرعي لا ينال إلا الكليات وليطلب تفصيل القول في المسألة من علم الأُصول.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أُبي بن كعب قال: قال رسول

الله ﷺ: رحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد.

أقول: مقتضى المقام الذي كان يجاري فيه لوط قومه ويأمرهم بتقوى الله والاجتناب عن الفجور، وظاهر سياق الآيات الحاكية للمشاجرة بينه وبين قومه أن لوطاً إنما كان يتمنى أنصاراً أولي رشد من بين قومه أو من غيرهم فقوله: ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يريد به أنصاراً من غير القوم من عشيرة أو أخلاّء وأصدقاء في الله ينصرونه في الدفع عن أضيافه هذا والركن الشديد معه في داره وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ولذلك لبّوه من غير فصل وقالوا: يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك.

ولم يكن ليغفل في حال من تلك الأحوال عن ربه وأن كل النصر من عنده حتى ينساه ويتمنى ناصراً غيره، وحاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجهل المذموم وقد قال الله تعالى في حقه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ـ إلى أن قال ـ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾[1].

فقول النبي ﷺ: «إن كان ليأوي إلى ركن شديد» معناه أن معه جبرئيل وسائر الملائكة وهو لا يعلم بذلك، وليس معناه أن معه الله سبحانه وهو جاهل بمقام ربه.

فما في بعض الروايات الناقلة للفظة رسول الله ﷺ من الإشعار بأن مراده بالركن الشديد هو الله سبحانه دون الملائكة إنما نشأ عن فهم بعض رواة الحديث كما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله تعالى. الحديث.

وكما عنه من طريق آخر قال: إن النبي ﷺ قال: «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد» ولعل فيه نقلاً بالمعنى وأن النبي ﷺ قال: رحم الله لوطاً فغيّره الراوي إلى قوله: يغفر الله للوط المشعر بكون لوط أهمل أدباً من آداب العبودية أو أذنب ذنباً بجهله مقام ربه ونسيانه ما لم يكن له أن ينساه...[2].

---

(١) الأنبياء: ٥٧.

(٢) انظر هذه البحث الروائي في المجلد العاشر صفحة ٣٣٣ من الميزان.

قصة إسماعيل عليه السلام

١ ـ قصة فدائه عليه السلام بالكبش:

في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي فبشرناه أنا سنرزقه غلاماً حليماً ، وفيه إشارة إلى أنه يكون ذكراً ويبلغ حد الغلمان، وأخذ الغلومة في وصفه مع أنه بلغ مبلغ الرجال للإشارة إلى حاله التي يظهر فيها صفة كماله وصفاء ذاته وهو حلمه الذي مكنه من الصبر في ذات الله إذ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ولم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هذا النبي الكريم في هذه الآية وأبوه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ إلخ الفاء في أول الآية فصيحة تدل على محذوف والتقدير فلما ولد له ونشأ وبلغ معه السعي، والمراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغاً يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سن الرهاق، والمعنى فلما راهق الغلام قال له يا بني إلخ.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ يدل على تكرر هذه الرؤيا له كما في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ إلخ[2].

وقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ هو من الرأي بمعنى الاعتقاد أي فتفكر فيما قلت وعين ما هو رأيك فيه، وهذه الجملة دليل على أن إبراهيم عليه السلام

---

(١) هود: ٧٥.

(٢) يوسف: ٣٣.

فهم من منامه أنه أمر له بالذبح مثّل له في مثال نتيجة الأمر ولذا طلب من ابنه الرأي فيه وهو يختبره بما ذا يجيبه؟.

وقـــولـــه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جواب ابنه، وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ إظهار رضى بالذبح في صورة الأمر وقد قال: افعل ما تؤمر ولم يقل: اذبحني إشارة إلى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره وطاعته.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تطييب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه ولا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المرمل بدمائه، وقد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأشار إلى أن اتصافه بهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه ولا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله ومننه إن يشأ تلبس به وله أن لا يشاء فينزعه منه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ الإسلام الرضا والاستسلام، والتل الصرع والجبين أحد جانبي الجبهة واللام في ﴿لِلْجَبِينِ﴾ لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[1] والمعنى فلما استسلما إبراهيم وابنه لأمر الله ورضيا به وصرعه إبراهيم على جبينه.

وجواب لما محذوف إيماء إلى شدة المصيبة ومرارة الواقعة.

قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ معطوف على جواب لما المحذوف، وقوله: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي أوردتها مورد الصدق وجعلتها صادقة وامتثلت الأمر الذي أمرناك فيها أي إن الأمر فيها كان امتحانياً يكفي في امتثاله تهيؤ المأمور للفعل وإشرافه عليه فحسب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الإشارة بكذلك إلى قصة الذبح بما أنها محنة شاقة وابتلاء شديد والإشارة بهذا إليها أيضاً وهو تعليل لشدة الأمر.

والمعنى: إنا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فنمتحنهم امتحانات

---

(١) الإسراء: ١٠٧.

شاقة صورة هينة معنى فإذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة، وذلك لأن الذي ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين.

قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ أي وفدينا ابنه بذبح عظيم وكان كبشاً أتى به جبريل من عند الله سبحانه فداء على ما في الأخبار، والمراد بعظمة الذبح عظمة شأنه بكونه من عند الله سبحانه وهو الذي فدى به الذبيح.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ تحية منه تعالى عليه، وفي تنكير سلام تفخيم له.

قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ الضمير لإبراهيم عليه السلام.

واعلم أن هذه الآية المتضمنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ المتعقبة بقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ إلى آخر القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أن الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليه السلام وقد فصلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه السلام من سورة الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ المباركة على شيء جعل الخير والنماء والثبات فيه أي وجعلنا فيما أعطينا إبراهيم وإسحاق الخير الثابت والنماء.

ويمكن أن يكون قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ إلخ قرينة على أن المراد بقوله: ﴿بَٰرَكْنَا﴾ إعطاء البركة والكثرة في أولاده وأولاد إسحاق، والباقي ظاهر.

٢ ـ بناؤه الكعبة مع أبيه عليه السلام:

وفي تفسير القمي، عن الصادق عليه السلام قال: إن براهيم كان نازلاً، في بادية الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً، لأنه لم يكن لها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكىٰ إبراهيم ذلك إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ، فأوحىٰ الله إليه: «مثل المرأة مثل الضلع

العوجاء، إن تركتها استمتعت بها، وإن أقمتها كسرتها» ثم أمره: أن يخرج إسماعيل وأمه، فقال: يا رب إلى أيّ مكان؟ فقال إلى حرمي وأمني، وأول بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة، فأنزل الله عليه جبرائيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر وزرع ونخل إلاّ وقال إبراهيم: يا جبرائيل إلى هٰهُنا، إلى هٰهُنا، فيقول جبرائيل: لا امض، امض، حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها، فاستظلوا تحته، فلما سرحهم إبراهيم ووضعهم أراد الإنصراف عنهم إلى سارة، قالت له هاجر: يا إبراهيم أتدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان هو يكفيكم ثم انصرف عنهم، فلما بلغ كداء، (وهو جبل بذي طوى) التفت إبراهيم، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ثم مضى وبقيت هاجر، فلما ارتفع النهار عطش إسماعيل، فقامت هاجر في موضع السعي فصعدت على الصفاء، ولمع لها السراب في الوادي، فظنت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي، وسعت فلما بلغت المروة غاب عنها إسماعيل، عادت حتى بلغت الصفاء، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات، فلما كان في الشوط السابع، وهي على المروة نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه فعادت حتى جمعت حوله رملاً، فإنه كان سائلاً، فزمّته بما جعلت حوله، فلذلك سميت زمزم وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات، فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء، فنظرت جرهم إلى تعكف الطير والوحش على ذلك المكان فاتبعتها حتى نظروا إلى امرأة وصبي نازلين في ذلك الموضع، قد استظلا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما، فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ قالت: أنا أم ولد إبراهيم خليل الرَّحمٰن، وهذا ابنه، أمره الله أن ينزلنا هٰهُنا، فقالوا لها: أتأذنين لنا أن نكون بالقرب منكم؟ فقالت لهم: حتىٰ يأتي إبراهيم، فلما زارهم إبراهيم في اليوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الله إن هٰهُنا قوماً من جرهم يسألونك أن تأذن لهم، حتى يكونوا بالقرب منا، أفتأذن لهم في

ذلك؟ قال إبراهيم: نعم، فأذنت هاجر لهم، فنزلوا بالقرب منهم، وضربوا خيامهم، فأنست هاجر وإسماعيل بهم، فلما زارهم إبراهيم في المرة الثانية نظر إلى كثرة الناس حولهم فسر بذلك سروراً شديداً، فلما تحرك إسماعيل وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كل واحد منهم شاة وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال، أمر الله إبراهيم أن يبني البيت إلى أن قال: فلما أمر الله إبراهيم أن يبني البيت لم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث الله جبرائيل، وخط له موضع البيت إلى أن قال: فبنى إبراهيم البيت، ونقل إسماعيل من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع، ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم ووضعه في موضعه الذي هو فيه الآن، فلما بنى جعل له بابين باباً إلى الشرق، وباباً إلى الغرب، والباب الذي إلى الغرب، يسمّى المستجار، ثم ألقى عليه الشجر والإذخر وألقت هاجر على بابها كساءاً كان معها وكانوا يكونون تحته، فلما بنى وفرغ منه، حج إبراهيم وإسماعيل ونزل عليهما جبرائيل يوم التروية لثمان من ذي الحجة فقال: يا إبراهيم قم وارتو من الماء لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسميت التروية لذلك ثم أخرجه إلى منى فبات بها ففعل به ما فعل بآدم، فقال إبراهيم لما فرغ من بناء البيت: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ الآية، قال ﷺ: من ثمرات القلوب، أي حببهم إلى الناس، ليستأنسوا بهم، ويعودوا إليهم.

أقول: هذا الذي لخصناه من أخبار القصة هو الذي تشتمل عليه الروايات الواردة في خلاصة القصة، وقد اشتملت عدة منها، وورد في أخبار أُخرىٰ: أن تاريخ بناء البيت يتضمن أموراً خارقة للعادة، ففي بعض الأخبار، أن البيت أول ما وضع كان قبة من نور، نزلت على آدم، واستقرت في البقعة التي بنىٰ إبراهيم عليها البيت، ولم تزل حتى وقع طوفان نوح، فلما غرقت الدنيا رفعه الله تعالىٰ، ولم تغرق البقعة، فسمي لذلك البيت العتيق.

وفي بعض الأخبار: أن الله أنزل قواعد البيت من الجنة.

وفي بعضها أن الحجر الأسود نزل من الجنة ـ كان أشد بياضاً من الثلج ـ فاسودّ: لما مسّته أيدي الكفار.

وفي الكافي أيضاً عن أحدهما عليه السلام قال: إن الله أمر إبراهيم ببناء الكعبة، وأن يرفع قواعدها ويري الناس مناسكهم، فبنىٰ إبراهيم وإسماعيل البيت كل يوم ساقاً، حتى انتهى إلى موضع الحجر الأسود، وقال أبو جعفر عليه السلام: فنادى أبو قبيس: إن لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر، فوضعه موضعه.

وفي تفسير العياشي عن الثوري عن أبي جعفر عليه السلام، قال سألته عن الحجر، فقال: نزلت ثلاثة أحجار من الجنة، الحجر الأسود استودعه إبراهيم، ومقام إبراهيم، وحجر بني إسرائيل.

وفي بعض الأخبار: أن الحجر الأسود كان ملكاً من الملائكة.

أقول: ونظائر هذه المعاني كثيرة واردة في أخبار العامة والخاصة، وهي وإن كانت آحاداً غير بالغة حد التواتر لفظاً، أو معنىً، لكنها ليست بعادمة النظير في أبواب المعارف الدينية ولا موجب لطرحها من رأس.

أما ما ورد من نزول القبة على آدم، وكذا سير إبراهيم إلى مكة بالبُراق، ونحو ذلك مما هو كرامة خارقة لعادة الطبيعة، فهي أُمور لا دليل على استحالتها، مضافاً إلى أن الله سبحانه خص أنبياءه بكثير من هذه الآيات المعجزة، والكرامات الخارقة، والقرآن يثبت موارد كثيرة منها.

وأما ما ورد من نزول قواعد البيت من الجنة ونزول الحجر الأسود من الجنة، ونزول حجر المقام ـ ويقال: إنه مدفون تحت البناء المعروف اليوم بمقام إبراهيم ـ من الجنة وما أشبه ذلك، فذلك كما ذكرنا كثير النظائر، وقد ورد في عدة من النباتات والفواكه وغيرها: أنها من الجنة، وكذا ما ورد: أنها من جهنم، ومن فورة الجحيم، ومن هذا الباب أخبار الطينة القائلة: إن طينة السعداء من الجنة، وإن طينة الأشقياء من النار، أو هما من عليّين وسجّين، ومن هذا الباب أيضاً ما ورد: إن جنة البرزخ في بعض الأماكن الأرضية، ونار البرزخ في بعض آخر، وإن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، إلى غير ذلك، مما يعثر عليه المتتبع البصير في مطاوي الأخبار، وهي كما ذكرنا بالغة في الكثرة حداً ليس مجموعها من حيث المجموع بالذي يطرح أو يناقش في صدوره أو صحة انتسابه وإنما هو من إلهيّات المعارف التي سمح بها القرآن الشريف، وانعطف إلى الجري

على مسيرها الأخبار الذي يقضي به كلامه تعالىٰ: إن الأشياء التي في هذه النشأة الطبيعية المشهودة جميعاً نازلة إليها من عند الله سبحانه، فما كانت منها خيراً جميلاً، أو وسيلة خير، أو وعاء لخير، فهو من الجنة، وإليها تعود، وما كان منها شراً، أو وسيلة شر، أو وعاء لشر، فهو من النار، وإليها ترجع، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[1]، أفاد: أن كل شيء موجود عنده تعالىٰ وجوداً غير محدد بحد، ولا مقدر بقدر، وعند التنزيل ـ وهو التدريج في النزول ـ يتقدر بقدره ويتحدد بحده، فهذا على وجه العموم، وقد ورد بالخصوص أيضاً أمثال قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[4]، على ما سيجيء من توضيح معناها إن شاء الله العزيز، فكل شيء نازل إلى الدنيا من عند الله سبحانه، وقد أفاد في كلامه: أن الكل راجع إليه سبحانه، فقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[5]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ ٱلرُّجْعَىٰ﴾[6]، وقال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[7]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[8]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وأفاد: أن الأشياء ـ وهي بين بدئها وعودها ـ تجري على ما يستدعيه بدئها، ويحكم به حظها من السعادة والشقاء، والخير والشر، فقال تعالىٰ: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[9]، وقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[10]، والغرض هٰهُنا مجرد الإشارة إلى ما يتم به البحث، وهو أن هذه الأخبار الحاكية عن كون هذه الأشياء الطبيعية، من الجنة، أو من النار، إذا كانت ملازمة لوجه السعادة أو الشقاوة لا تخلو عن وجه صحة، لمطابقتها لأصول قرآنية ثابتة في الجملة، وإن لم يستلزم ذلك كون كل واحد صحيحاً، يصح الركون إليه، فافهم المراد.

---

(١) الحجر: ٢١.
(٢) الزمر: ٦.
(٣) الحديد: ٢٥.
(٤) الذاريات: ٢٢.
(٥) النجم: ٤٢.
(٦) العلق: ٨.
(٧) المؤمن: ٣.
(٨) الشورى: ٥٣.
(٩) الإسراء: ٨٤.
(١٠) البقرة: ١٤٨.

وربما قال القائل: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ الآية، ظاهر في أنهما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالىٰ في تلك البلاد الوثنية، ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا من ذلك بغير ما قصه الله تعالىٰ علينا وتفننوا في رواياتهم عن قدم البيت وعن حج آدم وعن ارتفاعه إلى السماء وقت الطوفان وعن كون الحجر الأسود من أحجار الجنة، وقد أراد هؤلاء القصاصون أن يزينوا الدين ويرقّشوه برواياتهم هذه، وهذه التزيينات بزخارف القول وإن أثرت أثرها في قلوب العامة، لكن أرباب اللب والنظر من أهل العلم يعلمون أن الشرف المعنوي الذي أفاضه الله سبحانه بتكريم بعض الأشياء على بعض، فشرف البيت إنما هو بكونه بيتاً لله منسوباً إليه، وشرف الحجر الأسود بكونه مورداً للاستلام بمنزلة يد الله سبحانه؛ وأما كون الحجر في أصله ياقوتة، أو درة، أو غير ذلك، فلا يوجب مزية فيه، وشرفاً حقيقياً له، وما الفرق بين حجر أسود وحجر أبيض عند الله تعالىٰ في سوق الحقائق، فشرف هذا البيت بتسمية الله تعالىٰ إيّاه بيته وجعله موضعاً لضروب من عبادته لا تكون في غيره ـ كما تقدم ـ لا بكون أحجاره تفضل سائر الأحجار، ولا بكون موقعه يفضل سائر المواقع، ولا بكونه من السماء، وعالم الضياء وكذلك شرف الأنبياء على غيرهم من البشر ليس لمزية في أجسامهم، ولا في ملابسهم، وإنما هو لاصطفاء الله تعالىٰ إياهم، وتخصيصهم بالنبوة التي هي أمر معنوي، وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة، وأكثر نعمة منهم.

قال: وهذه الروايات فاسدة في تناقضها وتعارضها في نفسها وفاسدة في عدم صحة أسانيدها وفاسدة في مخالفتها لظاهر الكتاب.

قال: وهذه الروايات خرافات إسرائيلية، بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم، وينفروا أهل الكتاب منه.

أقول: ما ذكره لا يخلو من وجه في الجملة، إلاّ أنه أفرط في المناقشة فاعترضه من خبط القول ما أردىٰ وأشنع.

أما قوله: إن هذه الروايات فاسدة أولاً من جهة التناقض والتعارض وثانياً من جهة مخالفة الكتاب، ففيه أن التناقض أو التعارض إنما يضرُّ لو

أخذ بكل واحد منها، وأما الأخذ بمجموعها من حيث المجموع (بمعنىٰ أن لا يطرح الجميع لعدم اشتمالها على ما يستحيل عقلاً أو يمنع نقلاً) فلا يضره التعارض الموجود فيها وإنما نعني بذلك الروايات الموصولة إلى مصادر العصمة، كالنبيﷺ أهل بيته، وأما غيرهم من مفسري الصحابة والتابعين فحالهم حال غيرهم من الناس وحال ما ورد من كلامهم الخالي عن التناقض، حال كلامهم المشتمل على التناقض وبالجملة لا موجب لطرح رواية، أو روايات، إلاّ إذا خالفت الكتاب أو السنّة القطعيّة، أو لاحت منها لوائح الكذب والجعل، كما لا حجية إلاّ للكتاب والسنّة القطعية في أصول المعارف الدينية الإلٰهية.

فهناك ما هو لازم القبول، وهو الكتاب والسنّة القطعية، وهناك ما هو لازم الطرح، وهو ما يخالفهما من الآثار، وهناك ما لا دليل على رده، ولا على قبوله وهو ما لا دليل من جهة العقل على استحالته، ولا من جهة النقل، أعني: الكتاب والسنّة القطعية على منعه.

وبه يظهر فساد اشكاله بعدم صحة أسانيدها، فإن ذلك لا يوجب الطرح ما لم يخالف العقل أو النقل الصحيح.

وأما مخالفتها لظاهر قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ الآية، فليت شعري أن الآية الشريفة كيف تدل على نفي كون الحجر الأسود من الجنة أم كيف تدل على نفي نزول قبة على البقعة في زمن آدم، ثم ارتفاعها في زمن نوح؟ وهل الآية تدل على أزيد من أن هذا البيت المبني من الحجر والطين بناء إبراهيم؟ وأي ربط له إثباتاً أو نفياً بما تتضمنه الروايات التي أشرنا إليها، نعم لا يستحسنه طبع هذا القائل، ولا يرتضيه رأيه لعصبية مذهبية توجب نفي معنويات الحقائق عن الأنبياء، واتكاء الظواهر الدينية على أصول وأعراق معنوية، أو لتبعية غير إرادية للعلوم الطبيعية المتقدمة اليوم، حيث تحكم: أن كل حادثة من الحوادث الطبيعية، أو ما يرتبط بها أي ارتباط من المعنويات يجب أن يعلل بتعليل مادي أو ما ينتهي إلى المادة الحاكمة في جميع شؤون الحوادث كالتعليمات الاجتماعية.

وقد كان من الواجب أن يتدبر في أن العلوم الطبيعية شأنها البحث عن خواص المادة وتراكيبها وارتباط الآثار الطبيعية بموضوعاتها، ذاك الارتباط

الطبيعي وكذا العلوم الاجتماعية إنما تبحث عن الروابط الاجتماعية بين الحوادث الاجتماعية فقط.

وأما الحقائق الخارجة عن حومة المادة وميدان عملها المحيطة بالطبيعة وخواصها وارتباطاتها المعنوية غير المادية مع الحوادث الكونية وما اشتمل عليه عالمنا المحسوس، فهي أمور خارجة عن بحث العلوم الطبيعية والاجتماعية ولا يسعها أن تتكلم فيها أو تتعرض لإثباتها أو تقضي بنفيها، فالعلوم الطبيعية إنما يمكنها أن تقضي أن البيت يحتاج في الطبيعة إلى أجزاء من الطين والحجر، وإلى أن يبنيه ويعطيه بحركاته وأعماله هيئة البيت أو كيف تتكون الحجرة من الأحجار السود وكذا الأبحاث الاجتماعية تعين الحوادث الاجتماعية التي انتجت بناء إبراهيم للبيت، وهي جمل من تاريخ حياته، وحياة هاجر وإسماعيل وتاريخ تهامة ونزول جرهم إلى غير ذلك، وأما أنه ما نسبة هذا الحجر مثلاً إلى الجنة أو النار الموعودتين فليس من وظيفة هذه العلوم أن تبحث عنه أو تنفي ما قيل أو يقال فيه، وقد عرفت أن القرآن الشريف هو الناطق بكون هذه الموجودات الطبيعية نازلة إلى مقرها ومستقرها من عند الله سبحانه ثم راجعه إليه متوجهة نحو «أيما إلى جنة أيما إلى نار»، وهو الناطق بكون الأعمال صاعدة إلى الله، مرفوعة نحوه، نائلة إياه، مع أنها حركات وأوضاع طبيعية، تألفت تألفاً اعتبارياً اجتماعياً من غير حقيقة تكوينية، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[1]، والتقوى فعل أو صفة حاصلة من فعل، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2]، فمن الواجب على الباحث الديني أن يتدبر في هذه الآيات فيعقل أن المعارف الدينية لا مساس لها مع الطبيعيات والاجتماعيات من جهة النظر الطبيعي والاجتماعي على الاستقامة، وإنما اتكائها وركونها إلى حقائق ومعان وراء ذلك.

وأما قوله: إن شرف الأنبياء والمعاهد والأمور المنسوبة إليهم كالبيت والحجر الأسود ليس شرفاً ظاهرياً بل شرف معنوي ناشيء عن التفضيل

---

(١) الحج: ٣٧.

(٢) فاطر: ١٠.

الإلهي فكلام حق، لكن يجب أن يفهم منه حق المعنىٰ الذي يشتمل عليه، فما هذا الأمر المعنوي الذي يتضمن الشرافة؟ فإن كان من المعاني التي يعطيها الاحتياجات الاجتماعية لموضوعاتها وموادها نظير الرتب والمقامات التي يتداولها الدول والملل كالرئاسة والقيادة في الإنسان، وغلاء القيمة في الذهب والفضة، وكرامة الوالدين وحرمة القوانين والنواميس، فإنما هي معان يعتبرها الاجتماعات لضرورة الاحتياج الدنيوي، لا أثر منها في خارج الوهم والاعتبار الاجتماعي، ومن المعلوم أن الاجتماع الكذائي لا يتعدى عالم الاجتماع الذي صنعته الحاجة الحيوية، والله عزّ سلطانه أقدس ساحة من أن يتطرق إليه الحاجة الطارقة على حياة الإنسان، ومع ذلك فإذا جاز أن يتشرف النبي بهذا الشرف غير الحقيقي فليجز أن يتشرف بمثله بيت أو حجر، وإن كان هذا الشرف حقيقياً واقعياً من قبيل النسبة بين النور والظلمة والعلم والجهل والعقل والسفه بأن كان حقيقة وجود النبي غير حقيقة وجود غيره وإن كانت حواسنا الظاهرية لا تنال ذلك وهو اللائق بساحة قدسه من الفعل والحكم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] كان ذلك عائداً إلى نسبة حقيقية معنوية غير مادية إلى ما وراء الطبيعة، فإذا جاز تحققها في الأنبياء بنحو فليجز تحققها في غير الأنبياء كالبيت والحجر ونحوهما، وإن وقع التعبير عن هذه النسب الحقيقية المعنوية بما ظاهره المعاني المعروفة عند العامة التي اصطلحت عليه أهل الاجتماع.

وليت شعري: ماذا يصنعه هؤلاء في الآيات التي تنطق بتزيين الجنة وتشريف أهلها بالذهب والفضة، وهما فلزان ليس لهما من الشرف إلاّ غلاء القيمة المستندة إلى عزة الوجود؟ فماذا يراد من تشريف أهل الجنة بهما؟ وما الذي يؤثره معنىٰ الثروة في الجنة ولا معنىٰ للاعتبار المالي في الخارج من ظرف الاجتماع؟ فهل لهذه البيانات الإلهية والظواهر الدينية وجه غير أنها حجب من الكلام وأستار وراءها أسرار؟ فلئن جاز أمثال هذه البيانات في أمور نشأة الآخرة فليجز نظيرتها في بعض أمور نشأة الدنيا.

---

(١) الدخان: ٣٩.

وفي تفسير العياشي عن الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن أمة محمد صلى الله عليه وآله من هم؟ قال: أمة محمد صلى الله عليه وآله بنو هاشم خاصة، قلت: فما الحجة في أمة محمد صلى الله عليه وآله أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فلما أجاب الله إبراهيم وإسماعيل وجعل من ذريتهما أمة مسلمة وبعث فيها رسولاً منهم يعني من تلك الأمة يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وردف دعوته الأولى دعوته الأخرى فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام ليصح أمره فيهم ولا يتبعوا غيرهم، فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ففي هذا دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأمة المسلمة التي بعث فيها محمداً صلى الله عليه وآله إلاّ من ذرية إبراهيم لقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

أقول: استدلاله عليه السلام في غاية الظهور، فإن إبراهيم عليه السلام إنما سأل أمة مسلمة من ذريته خاصة، ومن المعلوم من ذيل دعوته: ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم، أن هذه الأمة المسلمة هي أمة محمد صلى الله عليه وآله لكن لا أمة محمد بمعنىٰ الذين بعث صلى الله عليه وآله إليهم، ولا أمة محمد بمعنىٰ من آمن بنبوته، فإن هذه الأمة أعم من ذرية إبراهيم وإسماعيل بل أمة مسلمة هي من ذرية إبراهيم عليه السلام ثم سأل ربه أن يجنب ويبعد ذريته وبنيه من الشرك والضلال وهي العصمة، ومن المعلوم أن ذرية إبراهيم وإسماعيل ـ وهم عرب مضر أو قريش خاصة ـ فيهم ضال ومشرك فمراده من بنيه في قوله: وبنيَّ، أهل العصمة من ذريته خاصة، وهم النبي وعترته الطاهرة، فهؤلاء هم أمة محمد صلى الله عليه وآله في دعوة إبراهيم عليه السلام ولعلّ هذه النكتة هي الموجبة للعدول عن لفظ الذرية إلى لفظ البنين، ويؤيده قوله عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية. حيث أتىٰ بفاء التفريع وأثبت من تبعه جزءاً من نفسه وسكت عن غيرهم كأنه ينكرهم ولا يعرفهم، هذا.

وقوله عليه السلام: فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام، إنما سأل إبراهيم عليه السلام التطهير من عبادة الأصنام إلاّ أنه عليه السلام علله بالضلال فأنتج

سؤال التطهير من جميع الضلال من عبادة الأصنام ومن أي شرك حتى المعاصي، فإن كل معصية شرك.

وقوله ﷺ: وفي هذا دلالة على أنه لا يكون الأئمة والأمة المسلمة، إلخ أي إنهما واحد، وهما من ذرية إبراهيم كما مرّ بيانه.

فإن قلت: لو كان المراد بالأمة في هذه الآيات ونظائرها كقوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1]، عدة معدودة من الأمة دون الباقين كان لازمة المجاز في الكلام من غير موجب يصحح ذلك ولا مجوّز لنسبة ذلك إلى كلامه تعالىٰ، على أن كون خطابات القرآن متوجهة إلى جميع الأمة ممن آمن بالنبي ضروري لا يحتاج إلى إقامة حجة.

قلت: إطلاق أمة محمد وإرادة جميع من آمن بدعوته من الاستعمالات المستحدثة بعد نزول القرآن وانتشار الدعوة الإسلامية وإلاّ، فالأمة بمعنىٰ القوم كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾[2]، وربما اطلق على الواحدة كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[3]، وعلى هذا فمعناها من حيث السعة والضيق يتبع موردها الذي استعمل فيها لفظها، أو أُريد فيه معناها.

فقوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ الآية، والمقام مقام الدعاء بالبيان الذي تقدم ـ لا يراد به إلاّ عدة معدودة ممن آمن بالنبي ﷺ وكذا قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وهو في مقام الامتنان وتعظيم القدر وترفيع الشأن لا يشمل جميع الأمة، وكيف يشمل فراعنة هذه الأمة ودجاجلتها الذين لم يجدوا للدين أثراً إلاّ عفوه ومحوه، ولا لأوليائه عظماً إلاّ كسروه، فهو من قبيل قوله تعالىٰ لبني إسرائيل: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[4]، فإن منهم قارون ولا يشمله الآية قطعاً، كما أن قوله

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) هود: ٤٨.

(٣) النحل: ١٢٠.

(٤) البقرة: ٤٧.

تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾[1]، لا يعم جميع هذه الأمة وفيهم أولياء القرآن ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالىٰ.

(١) الفرقان: ٣٠.

قصة ذي القرنين في القرآن الكريم

١ ـ قصة ذي القرنين في القرآن

لم يعترض لاسمه ولا لتاريخ زمان ولادته وحياته ولا لنسبه وسائر مشخصاته على ما هو دأبه في ذكر قصص الماضين بل اكتفى على ذكر ثلاث رحلات منه فرحلة أولى إلى المغرب حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة (أو حامية) ووجد عندها قوماً ورحلة ثانية إلى المشرق حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم يجعل الله لهم من دونها ستراً ورحلة ثالثة حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً فشكوا إليه إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض وعرضوا عليه أن يجعلوا له خرجاً على أن يجعل بين القوم وبين يأجوج ومأجوج سداً فأجابهم إلى بناء السد ووعدهم أن يبني لهم فوق ما يأملون وأبى أن يقبل خرجهم وإنما طلب منهم أن يعينوه بقوة وقد أشير منها في القصة إلى الرجال وزبر الحديد والمنافخ والقطر.

والخصوصيات والجهات الجوهرية التي تستفاد من القصة هي **أولاً** أن صاحب القصة كان يسمى قبل نزول قصته في القرآن بل حتى في زمان حياته بذي القرنين كما يظهر في سياق القصة من قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾.

وثانياً: أنه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر ومتديناً بدين الحق كما يظهر من قوله: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ وقوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ إلخ ويزيد في كرامته الدينية أن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ

أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يدل على تأييده بوحي أو إلهام أو نبي من أنبياء الله كان عنده يسدده بتبليغ الوحي.

وثالثاً: أنه كان ممن جمع الله له خير الدنيا والآخرة، أما خير الدنيا فالملك العظيم الذي بلغ به مغرب الشمس ومطلعها فلم يقم له شيء وقد ذلت له الأسباب، وأما خير الآخرة فبسط العدل وإقامة الحق والصفح والعفو والرفق وكرامة النفس وبث الخير ودفع الشر، وهذا كله مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ مضافاً إلى ما يستفاد من سياق القصة من سيطرته الجسمانية والروحانية.

ورابعاً: أنه صادف قوماً ظالمين بالمغرب فعذبهم.

وخامساً: أن الردم الذي بناه هو في غير مغرب الشمس ومطلعها فإنه بعدما بلغ مطلع الشمس أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين. ومن مشخصات ردمه مضافاً إلى كونه واقعاً في غير المغرب والمشرق أنه واقع بين جبلين كالحائطين، وأنه ساوى بين صدفيهما وأنه استعمل في بنائه زبر الحديد والقطر، ولا محالة هو في مضيق هو الرابط بين ناحيتين من نواحي الأرض المسكونة.

٢ ـ ذكرى ذي القرنين والسد ويأجوج ومأجوج:

في أخبار الماضين، لم يذكر القدماء من المؤرخين في أخبارهم ملكاً يسمى في عهده بذي القرنين أو ما يؤدي معناه من غير اللفظ العربي ولا يأجوج ومأجوج بهذين اللفظين ولا سداً ينسب إليه باسمه نعم ينسب إلى بعض ملوك حمير من اليمنيين أشعار في المباهاة بذكر فيها ذا القرنين وأنه من أسلافه التبابعة، وفيها ذكر سيره إلى المغرب والمشرق وسد يأجوج ومأجوج وستوافيك نبذة منها في بعض الفصول الآتية.

وورد ذكر «مأجوج و«جوج ومأجوج» في مواضع من كتب العهد العتيق ففي الإصحاح العاشر من سفر التكوين من التوراة: «وهذه مواليد بني نوح: سام وحام ويافث، وولد لهم بنون بعد الطوفان. بنو يافث جومر ومأجوج وماداي وياوان وتوبال وماشك وتيراس».

وفي كتاب حزقيال الإصحاح الثامن والثلاثون «وكان إلى كلام الرب قائلاً: يابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك ونوبال، وتنبأ عليه وقل: هكذا قال السيد الرب: ها أنا ذا عليك ياجوج رئيس روش وماشك ونوبال وأرجعك وأضع شكائم في فكيك وأخرجك أنت وكل جيشك خيلاً وفرساناً كلهم لابسين أفخر لباس جماعة عظيمة مع أتراس ومجان كلهم ممسكين السيوف فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة، وجومر وكل جيوشه وبيت توجرمه من أقاصي الشمال مع كل جيشه شعوباً كثيرين معك».

قال: «لذلك تنبأ يابن آدم وقل لجوج: هكذا قال السيد الرب في ذلك اليوم عند سكنى شعب إسرائيل آمنين أفلا تعلم وتأتي من موضعك من أقاصي الشمال» إلخ.

وقال في الإصحاح التاسع والثلاثين ماضياً في الحديث السابق: وأنت يابن آدم تنبأ على جوج وقل: هكذا قال السيد الرب ها أنا ذا عليك يا جوج رئيس روش ماشك ونوبال وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال. وآتي بك على جبال إسرائيل وأضرب قوسك من يدك اليسرى وأسقط سهامك من يدك اليمنى فتسقط على جبال إسرائيل أنت وكل جيشك والشعوب الذين معك أبذلك مأكلاً للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل، على وجه الحقل تسقط لأني تكلمت بقول السيد الرب، وأرسل ناراً على مأجوج وعلى الساكنين في الجزائر آمنين فيعلمون أني أنا الرب» إلخ.

وفي رؤيا يوحنا في الإصحاح العشرين: «ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان، وقيده ألف سنة، وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكيلا يضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لا بد أن يحل زماناً يسيراً.

قال: «ثم متى تمت الألف سنة لن يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر فصعدوا على عرض الأرض، وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء

وأكلتهم وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين».

ويستفاد منها أن «مأجوج» أو «جوج ومأجوج» أمة أو أمم عظيمة كانت قاطنة في أقاصي شمال آسيا من معمورة الأرض يومئذٍ وأنهم كانوا أمماً حربية معروفة بالمغازي والغارات.

ويقرب حينئذٍ أن يحدس أن ذا القرنين هذا هو أحد الملوك العظام الذين سدوا الطريق على هذه الأمم المفسدة في الأرض وأن السد المنسوب إليه يجب أن يكون فاصلاً بين منطقة شمالية من قارة آسيا وجنوبها كحائط الصين أو سد باب الأبواب أو سد «داريال» أو غير هذه.

وقد تسلمت تواريخ الأمم اليوم من أن ناحية الشمال الشرقي من آسيا وهي الأحداب والمرتفعات في شمال الصين كانت موطناً لأمة كبيرة بدوية همجية لم تزل تزداد عدداً وتكثر سواداً فتكر على الأمم المجاورة لها كالصين وربما نسلت من أحدابها، وهبطت إلى بلاد آسيا الوسطى والدنيا وبلغت إلى شمال أوربة فمنهم من قطن في أراض أغار عليها كأغلب سكنة أوربة الشمالية فتمدنين بها واشتغل بالزراعة والصناعة، ومنهم من رجع ثم عاد وعاد. وهذا أيضاً مما يؤيد ما استقربناه آنفاً أن السد الذي نبحث عنه هو أحد الأسداد الموجودة في شمال آسيا الفاصلة بين الشمال وجنوبه.

٣ ـ من هو ذو القرنين؟ وأين سده؟

للمؤرخين وأرباب التفسير في ذلك أقوال بحسب اختلاف أنظارهم في تطبيق القصة:

أ ـ ينسب إلى بعضهم أن السد المذكور في القرآن هو حائط الصين وهو حائط طويل يحول بين الصين وبين منغوليا بناه (شين هوانغ تي) أحد ملوك الصين لصد هجمات المغول عن الصين، طوله ثلاثة آلاف كيلومتر في عرض تسعة أمتار وارتفاع خمسة عشر متراً، وقد بني بالأحجار شرع في بنائه سنة ٢٦٤ ق.م. وقد تم بناؤه في عشر أو عشرين. وعلى هذا فذو القرنين هو الملك المذكور.

ويدفعه أن الأوصاف والمشخصات المذكورة في القرآن لذي القرنين وسده لا تنطبق على هذا الملك وحائط الصين الكبير فلم يذكر من هذا الملك أنه سار من أرضه إلى المغرب الأقصى، والسد الذي يذكره القرآن يصفه بأنه ردم بين جبلين وقد استعمل فيه زبر الحديد والقطر وهو النحاس المذاب والحائط الكبير يمتد ثلاثة آلاف كيلومتر يمر في طريقه على السهول والجبال، وليس بين جبلين وهو مبني بالحجارة لم يستعمل فيه حديد ولا قطر.

ب ـ نسب إلى بعضهم أن الذي بنى السد هو أحد ملوك آشور وقد كان يهجم في حوالي القرن السابع قبل الميلاد أقوام سيث من مضيق جبال قفقاز إلى أرمينستان ثم غربي إيران وربما بلغوا بلاد آشور وعاصمتها نينوا فأحاطوا بهم قتلاً وسبياً ونهباً فبنى ملك آشور السد لصدهم، وكأن المراد به سد باب الأبواب المنسوب تعميره أو ترميمه إلى كسرى أنو شيروان من ملوك الفرس هذا. ولكن الشأن في انطباق خصوصيات القصة عليه.

ج ـ قال في روح المعاني: وقيل: هو ـ يعني ذا القرنين ـ فريدون بن أثفيان بن جمشيد خامس ملوك الفرس الفيشدادية، وكان ملكاً عادلاً مطيعاً لله تعالى وفي كتاب صور الأقاليم لأبي زيد البلخي: أنه كان مؤيداً بالوحي وفي عامة التواريخ أنه ملك الأرض وقسمها بين بنيه الثلاثة: إيرج وسلم وتور فأعطى إيرج العراق والهند والحجاز وجعله صاحب التاج، وأعطى سلم الروم وديار مصر والمغرب، وأعطى تور الصين والترك والمشرق، ووضع لكل قانوناً يحكم به، وسميت القوانين الثلاثة «سياسة» وهي معربة «سي أسيا» أي ثلاثة قوانين.

ووجه تسميته ذا القرنين أنه ملك طرفي الدنيا أو طول أيام سلطنته فإنها كانت على ما في روضة الصفا خمسمائة سنة أو عظم شجاعته وقهره الملوك انتهى.

وفيه أن التاريخ لا يعترف بذلك.

د ـ وقيل: إن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني وهو المشهور في الألسن وسد الإسكندر كالمثل السائر بينهم وقد ورد ذلك في بعض الروايات

كما في رواية قرب الإسناد عن موسى بن جعفر عليه السلام ورواية عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وآله ورواية وهب بن منبه المرويتين في الدر المنثور.

وبه قال بعض قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين كمعاذ بن جبل على ما في مجمع البيان، وقتادة على ما رواه في الدر المنثور، ووصفه الشيخ أبو علي بن سينا عندما ذكره في كتاب الشفاء بذي القرنين وأصّر على ذلك الإمام الرازي في تفسيره الكبير.

قال فيه ما ملخصه: إن القرآن دل على أن ملك الرجل بلغ إلى أقصى المغرب وأقصى المشرق وجهة الشمال، وذلك تمام المعمورة من الأرض، ومثل هذا الملك يجب أن يبقى اسمه مخلداً، والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أن ملكه بلغ هذا المبلغ ليس إلا الإسكندر.

وذلك أنه بعد موت أبيه جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى البحر الأخضر ثم إلى مصر، وبنى الإسكندرية ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس، وذبح في مذبحه.

ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب، ودان له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على إيران، وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ثم رجع إلى العراق ومات في شهرزور أو رومية المدائن وحمل إلى الإسكندرية ودفن بها، وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة، ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة.

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة، وثبت بالتواريخ أن الذي هذا شأنه هو الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر. انتهى.

وفيه **أولاً**: أن الذي ذكره من انحصار ملك معظم المعمورة في الإسكندر المقدوني غير مسلم في التاريخ ففي الملوك من يماثله أو يزيد عليه ملكاً.

وثانياً: أن الذي يذكره القرآن من أوصاف ذي القرنين لا يتسلمه التاريخ للإسكندر أو ينفيه عنه فقد ذكر القرآن أن ذا القرنين كان مؤمناً بالله واليوم الآخر وهو دين التوحيد وكان الإسكندر وثنياً من الصابئين كما يحكى

أنه ذبح ذبيحته للمشتري، وذكر القرآن أن ذا القرنين كان من صالحي عباد الله ذا عدل ورفق والتاريخ يقص للإسكندر خلاف ذلك.

وثالثاً: أنه لم يرد في شيء من تواريخهم أن الإسكندر المقدوني بنى سد يأجوج ومأجوج على ما يذكره القرآن.

وقال في البداية والنهاية في خبر ذي القرنين: وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: إسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة، وكان من ولد سام بن نوح، فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس (وساق نسبه إلى عيص بن إسحاق بن إبراهيم) المقدوني اليوناني المصري باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل.

وكان هذا قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا وأول ملوك الفرس وأوطأ أرضهم.

قال: وإنما نبهنا عليه لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد عريض طويل كثير فإن الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً، وكان وزيره الخضر، وقد كان نبياً، وأما الثاني فكان مشركاً، وقد كان وزيره فيلسوفاً، وقد كان بين زمانيهما، أزيد من ألفي سنة فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور انتهى.

وفيه تعريض بالإمام الرازي في مقاله السابق لكنك لو أمعنت فيما نقلنا من كلامه ثم راجعت كتابه فيما ذكره من قصة ذي القرنين وجدته لا يرتكب من الخطأ مما ارتكبه الإمام الرازي فلا أثر في التاريخ عن ملك كان قبل المسيح بأكثر من ألفين وثلاثمائة سنة ملك الأرض من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وجهة الشمال وبنى السد وكان مؤمناً صالحاً بل نبياً ووزيره الخضر ودخل الظلمات في طلب ماء الحياة سواء كان اسمه الإسكندر أو غير ذلك.

هـ ـ ذكر جمع من المؤرخين أن ذا القرنين أحد التبابعة الأذواء

اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالأصمعي في تاريخ العرب قبل الإسلام وابن هشام في السيرة والتيجان وأبي ريحان البيروني في الآثار الباقية ونشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم ـ على ما نقل عنهم ـ وغيرهم.

وقد اختلفوا في اسمه فقيل اسمه مصعب بن عبد الله، وقيل: صعب ابن ذي المرائد وهو أول التبابعة، وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع، وقيل تبع الأقرن واسمه حسان، وذكر الأصمعي أنه أسعد الكامل الرابع من التبابعة بن حسان الأقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الأول، وقيل: اسمه «شمر يرعش». وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدة من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية ففي البداية والنهاية: أنشد ابن هشام للأعشى:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا ... بالجنو في جدث أشم مقيما

وقد أنشد عثمان بن أبي الحاضر لابن عباس قول بعض الحميريين:

قد كان ذو القرنين جدي مسلما ... ملكاً تدين له الملوك وتحشد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... في عين ذي خلب وثأط حرمد

قال المقريزي في الخطط: اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ الآيات، عربي قد كثر ذكره في أشعار العرب.

وإن اسمه الصعب بن ذي مرائد بن الحارث الرائش بن الهمال ذي سدد بن عاد ذي منح بن عار الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبا ابن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة، ويقال لهم أيضاً العرب العرباء، وكان ذو القرنين تبعاً متوّجاً، ولما ولي الملك تجبّر ثم تواضع لله، واجتمع بالخضر، وقد غلط من ظن أن الإسكندر بن فيلبس هو ذو القرنين

الذي بني السد فإن لفظة ذو عربية، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وذاك رومي يوناني.

قال أبو جعفر الطبري: وكان الخضر في أيام أفريدون الملك بن الضحاك في قول عامة علماء أهل الكتاب الأول، وقيل: موسى بن عمران عليه السلام وقيل: إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان على أيام إبراهيم الخليل عليه السلام وأن الخضر بلغ مع ذي القرنين أيام مسيره في البلاد نهر الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم به ذو القرنين ولا من معه فخلد وهو حي عندهم إلى الآن، وقال آخرون إن ذا القرنين الذي كان على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام هو أفريدون بن الضحاك وعلى مقدمته كان الخضر.

وقال أبو محمّد عبد الملك بن هشام في كتاب التيجان في معرفة ملوك الزمان بعد ما ذكر نسب ذي القرنين الذي ذكرناه: وكان تبعاً متوجاً لما ولي الملك تجبر ثم تواضع واجتمع بالخضر ببيت المقدس، وسار معه مشارق الأرض ومغاربها وأوتي من كل شيء سبباً كما أخبر الله تعالى وبنى السد على يأجوج ومأجوج ومات بالعراق.

وأما الإسكندر فإنه يوناني، ويعرف بالإسكندر المجدوني (ويقال: المقدوني) سئل ابن عباس عن ذي القرنين: ممن كان؟ فقال: من حمير وهو الصعب بن ذي مرائد الذي مكنه الله في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً فبلغ قرني الشمس ورأس الأرض وبنى السد على يأجوج ومأجوج. قيل له: فالإسكندر؟ قال: كان رجلاً صالحاً رومياً حكيماً بنى على البحر في أفريقية مناراً، وأخذ أرض رومة، وأتى بحر العرب، وأكثر عمل الآثار في العرب من المصانع والمدن. وسئل كعب الأحبار عن ذي القرنين فقال: «الصحيح عندنا من أخبارنا وأسلافنا أنه من حمير وأنه الصعب بن ذي مرائد، والإسكندر كان رجلاً من يونان من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ورجال الإسكندر أدركوا المسيح بن مريم منهم جالينوس وأرسطاطاليس.

وقال الهمداني في كتاب الأنساب: وولد كهلان بن سبأ زيداً، فولد زيد عريباً ومالكاً وغالباً وعميكرب، وقال الهيثم: عميكرب بن سبأ أخو حمير وكهلان فولد عميكرب أبا مالك فدرحا ومهيليل ابني عميكرب، وولد

غالب جنادة بن غالب وقد ملك بعد مهليل بن عميكرب بن سبأ وولد عريب عمراً، فولد عمرو زيداً والهميسع ويكنى أبا الصعب وهو ذو القرنين الأول، وهو المساح والبناء، وفيه يقول النعمان بن بشير:

فمن ذا يعاودنا من الناس معشراً كراماً فذو القرنين منا وحاتم

وفيه يقول الحارثي:

سموا لنا واحداً منكم فنعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتبعين وذي القرنين يقبله أهل الحجى فأحق القول ما قبلا

وفيه يقول ابن أبي ذئب الخزاعي:

ومنا الذي بالخافقين تغربا وأصعد في كل البلاد وصوّبا
فقد نال قرن الشمس شرقاً ومغربا وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا
وذلك ذو القرنين تفخر حمير بعسكر فيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمداني: وعلماء همدان تقول: ذو القرنين الصعب بن مالك بن الحارث الأعلى ابن ربيعة بن الحيار بن مالك، وفي ذي القرنين أقاويل كثيرة. انتهى كلام المقريزي، وهو كلام جامع، ويستفاد منه **أولاً**: أن لقب ذي القرنين تسمى به أكثر من واحد من ملوك حمير وأن هناك ذا القرنين الأول (الكبير) وغيره.

وثانياً: أن ذا القرنين الأول وهو الذي بنى سد يأجوج ومأجوج قبل الإسكندر المقدوني بقرون كثيرة سواء كان معاصراً للخليلﷺ أو بعده كما هو مقتضى ما نقله ابن هشام من ملاقاته الخضر ببيت المقدس المبني بعد إبراهيم بعدة قرون في زمن داود وسليمانﷺ فهو على أي حال قبله مع ما في تاريخ ملوك حمير من الإبهام.

ويبقى الكلام على ما ذكره واختاره من جهتين:

أحدهما: أنه أين موضع هذا السد الذي بناه تبع الحميري؟.

وثانيهما: أنه من هم هذه الأمة المفسدة في الأرض التي بنى السد لصدهم فهل هذا السد أحد الأسداد المبنية في اليمن أو ما والاها كسد

مأرب وغيره فهي أسداد مبنية لادخار المياه للشرب والسقي لا للصد على أنها لم يعمل فيها زبر الحديد والقطر كما ذكره الله في كتابه، أو غيرها؟ وهل كان هناك أمة مفسدة مهاجمة، وليس في ما يجاورهم إلا أمثال القبط والآشور وكلدان وغيرهم وهم أهل حضارة ومدنية؟

وذكر بعض أجلة المحققين من معاصرينا في تأييد هذا القول ما محصله: أن ذا القرنين المذكور في القرآن قبل الإسكندر المقدوني بمئات السنين فليس هو هو بل هو أحد الملوك الصالحين من التابعة الأذواء من ملوك اليمن، وكان من شيمة طائفة منهم التسمّي بذي كذي همدان وذي غمدان وذي المنار وذي الأذعار وذي يزن وغيرهم.

وكان مسلماً موحداً وعادلاً حسن السيرة وقوياً ذا هيبة وشوكة سار في جيش كثيف نحو المغرب فاستولى على مصر وما وراءها ثم لم يزل يسير على سواحل البحر الأبيض حتى بلغ ساحل المحيط الغربي فوجد الشمس تغيب في عين حمئة أو حامية.

ثم رجع سائراً نحو المشرق وبنى في مسيره «أفريقية» وكان شديد الولع وذا خبرة في البناء والعمارة، ولم يزل يسير حتى مر بشبه جزيرة وبراري آسيا الوسطى وبلغ تركستان وحائط الصين ووجد هناك قوماً لم يجعل الله لهم من دون الشمس ستراً.

ثم مال إلى الجانب الشمالي حتى بلغ مدار السرطان، ولعله الذي شاع في الألسن أنه دخل الظلمات، فسأله أهل تلك البلاد أن يبني لهم سداً يصد عنهم يأجوج ومأجوج لما أن اليمنيين ـ وذو القرنين منهم ـ كانوا معروفين بعمل السد والخبرة فيه فبنى لهم السد.

فإن كان هذا السد هو الحائط الكبير الحائل بين الصين ومنغوليا فقد كان ذلك ترميماً منه لمواضع تهدمت من الحائط بمرور الأيام وإلا فأصل الحائط إنما بناه بعض ملوك الصين قبل ذلك، وإن كان سداً آخر غير الحائط فلا إشكال ومما بناه ذو القرنين واسمه الأصلي «شمر يرعش» في تلك النواحي مدينة سمرقند على ما قيل.

وأيد ذلك بأن كون ذي القرنين ملكاً عربياً صالحاً يسأل عنه الأعراب

رسول الله ﷺ ويذكره القرآن الكريم للتذكر والاعتبار أقرب للقبول من أن يذكر قصة بعض ملوك الروم أو العجم أو الصين، وهم من الأمم البعيدة التي لم يكن للأعراب هوى في أن يسمعوا أخبارهم أو يعتبروا بآثارهم، ولذا لم يتعرض القرآن لشيء من أخبارهم. انتهى ملخصاً.

والذي يبقى عليه أن كون حائط الصين هو سدّ ذي القرنين لا سبيل إليه فإن ذا القرنين قبل الإسكندر بعدة قرون على ما ذكره وقد بنى حائط الصين بعد الإسكندر بما يقرب من نصف قرن وأما غير الحائط الكبير ففي ناحية الشمال الغربي من الصين بعد أسداد أخر لكنها مبنية من الحجارة على ما يذكر لا أثر فيها من زبر الحديد والقطر.

وقال في تفسير الجواهر بعد ذكر مقدمة ملخصها أن المعروف من دول اليمن بمعونة من النقوش المكشوفة في خرائب اليمن ثلاث دول:

دولة معين وعاصمتها قرناء وقد قدر العلماء أن آثار دولة معين تبتدىء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع أو الثامن قبله، وقد عثروا على بعض ملوك هذه الدولة وهم ستة وعشرون ملكاً مثل «أب يدع» و«أب يدع ينبع» أي المنقذ.

ودولة سبأ وهم من القحطانيين كانوا أولاً أذواء فأقيالاً، والذي نبغ منهم «سبأ» صاحب قصر صرواح شرقي صنعاء فاستولى على الجميع ويبتدىء ملكهم من ٨٥٠ ق.م. إلى ١١٥ ق.م. والمعروف من ملوكهم سبعة وعشرون ملكاً خمسة عشر منهم يسمى مكرباً كالمكرب «يثعمر» والمكرب «ذمر على» واثنا عشر منهم يسمى ملكاً فقط كالملك «ذرح» والملك «يريم أيمن».

ودولة الحميريين وهم طبقتان الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق.م. إلى سنة ٢٧٥ م. وهؤلاء ملوك فقط، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها، وهؤلاء أربعة عشر ملكاً أكثرهم تبابعة أولهم «شمر يرعش» وثانيهم «ذو القرنين» وثالثهم «عمرو» زوج بلقيس وينتهي إلى ذي جدن ويبتدىء ملكهم من سنة ٢٧٥ م إلى سنة ٥٢٥ م.

ثم قال: فقد ظهرت صلة الاتصاف بلقب «ذي» بملوك اليمن ولا نجد في غيرهم كملوك الروم مثلاً من يلقب بذي، فذو القرنين من ملوك اليمن وقد تقدم من ملوكهم من يسمى بذي القرنين، ولكن هل هذا هو ذو القرنين المذكور في القرآن؟

نحن نقول: كلا لأن هذا مذكور في ملوك قريبي العهد منا جداً، ولم ينقل ذلك عنهم اللهم إلا في روايات ذكرها القصاصون في التاريخ مثل أن «شمر برعش» وصل إلى بلاد العراق وفارس وخراسان والصغد وبنى مدينة سمرقند وأصله شمركند، وأن أسعد أبو كرب غزا اذربيجان وبعث حساناً ابنه إلى الصغد، وابنه يعفر إلى الروم، وابن أخيه إلى الفرس وأن من الحميريين من بقوا في الصين لهذا العهد بعد غزو ذلك الملك لها.

وكذب ابن خلدون وغيره هذه الأخبار، ووسموها بأنها مبالغ فيها ونقضوها بأدلة جغرافية وأخرى تاريخية.

إذن يكون ذو القرنين من أمة العرب ولكنه في تاريخ قديم قبل التاريخ المعروف انتهى ملخصاً.

و ـ وقيل: إن ذا القرنين هو كورش أحد ملوك الفرس الهخامنشيّين (٥٣٩ ـ ٥٦٠ ق.م) وهو الذي أسس الأمبراطورية الإيرانية، وجمع بين مملكتي الفارس وماد، وسخر بابل وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم وساعد في بناء الهيكل وسخر مصر ثم اجتاز إلى يونان فغلبهم وبلغ المغرب ثم سار إلى أقاصي المعمورة في المشرق.

ذكره بعض من قارب عصرنا ثم بذل الجهد في إيضاحه وتقريبه بعض محققي الهند في هذه الأواخر ببيان ذلك إجمالاً أن الذي ذكره القرآن من وصف ذي القرنين منطبق على هذا الملك العظيم فقد كان مؤمناً بالله بدين التوحيد عادلاً في رعيته سائراً بالرأفة والرفق والإحسان سائساً لأهل الظلم والعدوان وقد آتاه الله من كل شيء سبباً فجمع بين الدين والعقل وفضائل الأخلاق والعدة والقوة والثروة والشوكة ومطاوعة الأسباب.

وقد سار كما ذكره الله في كتابه مرة نحو المغرب حتى استولى على ليديا وحواليها ثم سار ثانياً نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس ووجد عنده قوماً بدويين همجيين يسكنون في البراري ثم بنى السد وهو على ما تدل عليه الشواهد السد المعمول في مضيق داريال بين جبال قفقاز بقرب «مدينة تفليس» هذا إجمال الكلام ودونك التفصيل.

٤ ـ **إيمانه بالله واليوم الآخر**: يدل على ذلك ما في كتب العهد العتيق ككتاب عزرا (الإصحاح ١) وكتاب دانيال (الإصحاح ٦) وكتاب أشعياء (الإصحاح ٤٤ و٤٥) من تجليله وتقديسه حتى سمّاه في كتاب الأشعياء «راعي الرب» وقال في الإصحاح الخامس والأربعين: «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أمهد أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف. وأُعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابي لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك. لقبتك وأنت لست تعرفني».

ولو قطع النظر عن كونه وحياً فاليهود على ما بهم من العصبية المذهبية لا يعدون رجلاً مشركاً مجوسياً أو وثنياً ـ لو كان كورش كذلك ـ مسيحياً إلهياً مهدياً مؤيداً وراعياً للرب.

على أن النقوش والكتابات المخطوطة بالخط المسماري المأثور عن داريوش الكبير وبينهما من الفصل الزماني ثماني سنين ناطقة بكونه موحداً غير مشرك وليس من المعقول أن يتغير ما كان عليه كورش في هذا الزمن القصير.

وأما فضائله النفسانية فيكفي في ذلك الرجوع إلى المحفوظ من أخباره وسيرته وما قابل به الطغاة والجبابرة الذين خرجوا عليه أو حاربهم كملوك «ماد» و«ليديا» و«بابل» و«مصر» وطغاة البدو في أطراف «بكتريا» وهو البلخ وغيرهم، وكان كلما ظهر على قوم عفا عن مجرميهم، وأكرم كريمهم ورحم ضعيفهم وساس مفسدهم وخائنهم.

وقد أثنى عليه كتب العهد القديم، واليهود يحترمه أعظم الاحترام لما نجاهم من أسارة بابل وأرجعهم إلى بلادهم وبذل لهم الأموال لتجديد بناء الهيكل ورد إليهم نفائس الهيكل المنهوبة المخزونة في خزائن ملوك بابل، وهذا في نفسه مؤيد آخر لكون ذي القرنين هو كورش فإن السؤال عن ذي القرنين إنما كان يتلقين من اليهود على ما في الروايات.

وقد ذكره مؤرخو يونان القدماء كهرودت وغيره فلم يسعهم إلا أن يصفوه بالمروة والفتوة والسماحة والكرم والصفح وقلة الحرص والرحمة والرأفة ويثنوا عليه بأحسن الثناء.

٥ ـ **وأما تسميته بذي القرنين**: فالتواريخ وإن كانت خالية عما يدل على شيء في ذلك لكن اكتشاف تمثاله الحجري أخيراً في مشهد مرغاب في جنوب إيران يزيل الريب في اتصافه بذي القرنين فإنه مثل فيه ذا قرنين نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحد القرنين مائل إلى قدام والآخر آخذ بجهة الخلف. وهذا قريب من قول من قال من القدماء في وجه تسمية ذي القرنين أنه كان له تاج أو خوذة فيه قرنان.

وقد ورد في كتاب دانيال ذكر رؤيا رأى كورش فيه في صورة كبش ذي قرنين قال فيه:

«في السنة الثالثة من ملك «بيلشاصر» الملك ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء. فرأيت في الرؤيا وكأن في رؤياي وأنا في (شوشن) القصر الذي في ولاية عيلام. ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر «أولاي» فرفعت عيني وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طالع أخيراً. رأيت الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً فلم يقف حيوان قدامه ولا منفذ من يده وفعل كمرضاته وعظم.

وبينما كنت متأملاً إذا بتيس من المعز جاء من المغرب على وجه كل الأرض ولم يمس الأرض وللتيس قرن معتبر بين عينيه. وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذي رأيته واقفاً عند النهر وركض إليه بشدة قوّته ورأيته قد وصل إلى جانب الكبش فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر قرنيه فلم تكن

للكبش قوة على الوقوف أمامه وطرحه على الأرض وداسه ولم يكن للكبش منفذ من يده. فتعظم تيس المعز جداً».

ثم ذكر بعد تمام الرؤيا أن جبرئيل تراءى له وعبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش، وقرناه مملكتا الفارس وماد، والتيس ذو القرن الواحد على الإسكندر المقدوني.

وأما سيره نحو المغرب والمشرق فسيره نحو المغرب كان لدفع طاغية «ليديا» وقد سار بجيوشه نحو كورش ظلماً وطغياناً من غير أي عذر يجوز له ذلك فسار إليه وحاربه وهزمه ثم عقبه حتى حاصره في عاصمة ملكه ثم فتحها وأسره ثم عفا عنه وعن سائر أعضاده وأكرمه وإياهم وأحسن إليهم وكان له أن يسوسهم ويبيدهم وانطباق القصة على قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ ولعلها الساحل الغربي من آسيا الصغرى ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ وذلك لاستحقاقهم العذاب بطغيانهم وظلمهم وفسادهم.

ثم إنه سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لإخماد غائلة قبائل بدوية همجية انتهضوا هناك للمهاجمة والفساد وانطباق قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾﴾ عليه ظاهر.

٦ ـ **وأما بناؤه السد**: فالسد الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر الأسود، ويسمى المضيق «داريال» وهو واقع بين بلدة «تفليس» وبين «ولادي كيوكز».

وهذا السد واقع في مضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه وهو وحده الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي والشمالي والجبال مع ما ينضم إليها من بحر الخزر والبحر الأسود حاجز طبيعي في طول ألوف من الكيلومترات يحجز جنوب آسيا من شمالها.

وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى ما يواليها من الجنوب فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم إيران حتى الآشور وكلده، وهجموا في حوالي المائة

السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلاً وسبياً ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وكان ذلك في القرن السابق على عهد كورش تقريباً.

وقد ذكر المؤرخون من القدماء كهرودوت اليوناني سير كورش إلى شمال إيران لإخماد نوائر فتن اشتعلت هناك، والظاهر أنه بنى السد في مضيق داريال في مسيره هذا لاستدعاء من أهل الشمال وتظلم منهم، وقد بناه بالحجارة والحديد وهو الردم الوحيد الذي استعمل فيه الحديد، وهو بين سدين جبلين، وانطباق قوله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ الآيات، عليه ظاهر.

ومما أُيد به هذا المدعى وجود نهر بالقرب منه يسمى «سايروس» وهو اسم كورش عند الغربيين، ونهر آخر يمر بتفليس يسمى «كر» وقد ذكر هذا السد «يوسف» اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته إلى شمال قفقاز وليس هو الحائط الموجود في باب الأبواب على ساحل بحر الخزر فإن التاريخ ينسب بناءه إلى كسرى أنوشيروان وكان يوسف قبله.

على أن سد باب الأبواب غير سد ذي القرنين المذكور في القرآن قطعاً إذ لم يستعمل فيه حديد قط.

٧ ـ **وأما يأجوج ومأجوج**: فالبحث عن التطورات الحاكمة على اللغات يهدينا إلى أنهم المغول فإن الكلمة بالتكلم الصيني «منكوك» أو «منجوك» ولفظتا يأجوج ومأجوج كأنهما نقل عبراني وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق «كوك» و«مأكوك» والشبه الكامل بين «ماكوك» و«منكوك» يقضي بأن الكلمة متطورة من التلفظ الصيني «منكوك» كما اشتق منه «منغول» و«مغول» ولذلك في باب تطورات الألفاظ نظائر لا تحصى.

فيأجوج ومأجوج هما المغول وكانت هذه الأمة القاطنة بالشمال الشرقي من آسيا من أقدم الأعصار أمة كبيرة مهاجمة تهجم برهة إلى الصين وبرهة من طريق داريال قفقاز إلى أرمينستان وشمال إيران وغيرها وبرهة وهي بعد بناء السد إلى شمال أوروبا وتسمى عندهم بسيت ومنهم الأمة الهاجمة على الروم وقد سقطت في هذه الكرة دولة رومان وقد تقدم أيضاً أن

المستفاد من كتب العهد العتيق أن هذه الأمة المفسدة من سكنة أقاصي الشمال.

هذه جملة ما لخصناه من كلامه، وهو وإن لم يخل عن اعتراض ما في بعض أطرافه لكنه أوضح انطباقاً على الآيات وأقرب إلى القبول من غيره.

ز ـ ومما قيل في ذي القرنين ما سمعته عن بعض مشايخي أنه من أهل بعض الأدوار السابقة على هذه الدورة الإنسانية وهو غريب ولعله لتصحيح ما ورد في الأخبار من عجائب حالات ذي القرنين وغرائب ما وقع منه من الوقائع كموته وحياته مرة بعد مرة ورفعه إلى السماء ونزوله إلى الأرض وقد سخر له السحاب يسير به إلى المغرب والمشرق، وتسخير النور والظلمة والرعد والبرق له، ومن المعلوم أن تاريخ هذه الدورة لا يحفظ شيئاً من ذلك فلا بد أن يكون ذلك في بعض الأدوار السابقة هذا، وقد بالغ في حسن الظن بتلك الأخبار.

أمعن أهل التفسير والمؤرخون في البحث حول القصة، وأشبعوا الكلام في أطرافها، وأكثرهم على أن يأجوج ومأجوج أمة كبيرة في شمال آسيا، وقد طبق جمع منهم ما أخبر به القرآن من خروجهم في آخر الزمان وإفسادهم في الأرض على هجوم التتر في النصف الأول من القرن السابع الهجري على غربي آسيا، وإفراطهم في إهلاك الحرث والنسل بهدم البلاد وإبادة النفوس ونهب الأموال وفجائع لم يسبقهم إليها سابق.

وقد أخضعوا أولاً الصين ثم زحفوا إلى تركستان وإيران والعراق والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى، وأفنوا كل ما قاومهم من المدن والبلاد والحصون كسمرقند وبخارا وخوارزم ومرو ونيسابور والري وغيرها، فكانت المدينة من المدن تصبح وفيها مئات الألوف من النفوس، وتمسي ولم يبق من عامة أهلها نافخ نار، ولا من هامة أبنيتها حجر على حجر.

ثم رجعوا إلى بلادهم ثم عادوا وحملوا على الروس ودمروا أهل بولونيا وبلاد المجر وحملوا على الروم وألجأوهم على الجزية كل ذلك في فجائع يطول شرحها.

لكنهم أهملوا البحث عن أمر السد من جهة خروجهم منه وحل مشكلته فإن قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ الآيات، ظاهرها على ما فسروه أن هذه الأمة المفسدة محبوسون فيما وراءه لا مخرج لهم إلى سائر الأرض ما دام معموراً قائماً على ساقه حتى إذا جاء وعد الله سبحانه جعله دكاء مثلماً أو منهدماً فخرجوا منه إلى الناس وساروا بالفساد والشر.

فكان عليهم ـ على هذا ـ أن يقرروا للسد وصفه هذا فإن كانت هذه الأمة المذكورة هي التتر وقد ساروا من شمال الصين إلى إيران والعراق والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى فأين كان هذا السد الموصوف في القرآن الذي وطئوه ثم طلعوا منه إلى هذه البلاد وجعلوا عاليها سافلها؟ وإن لم تكن هي التتر أو غيرها من الأمم المهاجمة في طول التاريخ فأين هذا السد المشيد بالحديد ومن صفته أنه يحبس أمة كبيرة منذ ألوف من السنين من أن تهجم على سائر أقطار الأرض ولا مخرج لهم إلى سائر الدنيا دون السد المضروب دونهم وقد ارتبطت اليوم بقاع الأرض بعضها ببعض بالخطوط البرية والبحرية والهوائية وليس يحجز حاجز طبيعي كجبل أو بحر أو صناعي كسد أو سور أو خندق أمة من أمة فأي معنى لانصداد قوم عن الدنيا بسدّ بين جبلين بأي وصف وصف وعلى أي نحو فرض؟

والذي أرى في دفع هذا الإشكال ـ والله أعلم ـ أن قوله: «دكاء» من الدك بمعنى الذلة، قال في لسان العرب: وجبل دك: ذليل، انتهى. والمراد بجعل السد دكاء جعله ذليلاً لا يعبأ بأمره ولا ينتفع به من جهة اتساع طرق الارتباط وتنوع وسائل الحركة والانتقال براً وبحراً وجواً.

فحقيقة هذا الوعد هو الوعد برقي المجتمع البشري في مدنيته، واقتراب شتى أممه إلى حيث لا يسده سدّ ولا يحوطه حائط عن الانتقال من أي صقع من أصقاع الأرض إلى غيره ولا يمنعه من الهجوم والزحف إلى أي قوم شاءوا. ويؤيد هذا المعنى سياق قوله تعالى في موضع آخر يذكر فيه هجوم يأجوج ومأجوج: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ حيث عبر بفتح يأجوج ومأجوج ولم يذكر السد.

وللدك معنى آخر وهو الدفن بالتراب ففي الصحاح: دككت الركيّ ـ وهو البئر ـ دفنته بالتراب انتهى. ومعنى آخر وهو صيرورة الجبل رابية من طين، قال في الصحاح وتدكدكت الجبال أي صارت روابي من طين واحدتها دكاء إنتهى. فمن الممكن أن يحتمل أن السد من جملة أبنية العهود القديمة التي ذهبت مدفونة تحت التراب عن رياح عاصفة أو غريقة بانتقال البحار أو اتساع بعضها على ما تثبته الأبحاث الجيولوجية، وبذلك يندفع الإشكال لكن الوجه السابق أوجه والله أعلم[1].

(١) انظر المجلد ١٣ ص ٣٧٣.

قصة يعقوب عليه السلام

١ ـ سبب تسميته عليه السلام بيعقوب:

قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ إسحاق هو ابنها من إبراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق عليه السلام فالمراد أن الملائكة بشروها بأنها ستلد إسحاق وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد. هذا على قراءة يعقوب بالفتح وهو منزوع الخافض وقرىء برفع يعقوب وهو بيان لتتمة البشارة، والأولى أرجح.

وكأن في هذا التعبير: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ إشارة إلى وجه تسمية يعقوب عليه السلام بهذا الاسم، وهو أنه كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنه وراءه، ويكون فيها تخطئة لما في التوراة من السبب في تسمية يعقوب به.

قال في التوراة الحاضرة: وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجه «رفقة» بنت بنوئيل الأراميّ أُخت لابان الأراميّ من فدّان الأرام، وصلى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته وتزاحم الولدان في بطنها فقالت: إن كان هكذا فلماذا أنا، فمضت لتسأل الرب فقال لها الرب: في بطنك أُمتان، ومن أحشائك يفترق شعبان: شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد لصغير.

فلما كملت أيامها لتلد إذا في بطنها توأمان فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه يعقوب. انتهى موضع الحاجة وهذا من لطائف القرآن الكريم.

٢ ـ الثناء عليه في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ الضمير ليعقوب أي إن يعقوب لذو علم بسبب ما علمناه من العلم أو بسبب تعليمنا إياه وظاهر نسبة التعليم إليه تعالى أنه علم موهبي غير اكتسابي وقد تقدم أن إخلاص التوحيد يؤدي إلى مثل هذه العناية الإلهية، ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى بعده: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إذ لو كان من العلم الاكتسابي الذي يحكم بالأسباب الظاهرية ويتوصل إليه من الطرق العادية المألوفة لعلمه الناس واهتدوا إليه.

والجملة: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ إلخ، ثناء على يعقوب عليه السلام، والعلم الموهبي لا يضل في هدايته ولا يخطىء في إصابته والكلام كما يفيده السياق يشير إلى ما تفرس له يعقوب عليه السلام من البلاء وتوسل به من الوسيلة وحاجته في يوسف في نفسه ينساها ولا يزال يذكرها، فمن هذه الجهات يعلم أن في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ إلخ، تصديقاً ليعقوب عليه السلام فيما قاله لبنيه وتصويباً لما اتخذه من الوسيلة لحاجته بأمرهم بما أمر وتوكله على الله فقضى الله له حاجته في نفسه.

هذا ما يعطيه التدبر في سياق الآيات وللمفسرين أقوال عجيبة في معنى الآية كقول بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ إلى قوله: ﴿قَضَىٰهَا﴾ أنه لم يكن دخولهم كما أمرهم أبوهم يغني عنهم أو يدفع عنهم شيئاً أراد الله إيقاعه بهم من حسد أو إصابة عين وكان يعقوب عليه السلام عالماً بأن الحذر لا يدفع القدر ولكن كان ما قاله لبنيه حاجة في نفسه فقضى يعقوب تلك الحاجة أي أزال به اضطراب قلبه وأذهب به القلق عن نفسه.

وقول بعضهم: إن المعنى أن الله لو قدر أن تصيبهم العين لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم مجتمعين.

وقول بعضهم: إن معنى قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ إلخ أنه لذو يقين ومعرفة بالله لأجل تعليمنا إياه ولكن أكثر الناس لا يعلمون مرتبته.

قصة يوسف عليه السلام

١ ـ قصته في القرآن:

هو يوسف النبي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل كان أحد أبناء يعقوب الاثني عشر وأصغر إخوته غير أخيه بنيامين أراد الله سبحانه أن يتمّ عليه نعمته بالعلم والحكم والعزة والملك ويرفع به قدر آل يعقوب فبشره وهو صغير برؤيا رآها كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدة له فذكر ذلك لأبيه فوصاه أبوه أن لا يقص رؤياه على إخوته فيحسدوه ثم أول رؤياه أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

كانت هذه الرؤيا نصب عين يوسف آخذة بمجامع قلبه، ولا يزال تنزع نفسه إلى حب ربه والتوله إليه على ما به من علو النفس وصفاء الروح والخصائص الحميدة، وكان ذا جمال بديع يبهر العقول ويدهش الألباب. وكان يعقوب يحبه حباً شديداً لما يشاهد فيه من الجمال البديع ويتفرس فيه من صفاء السريرة ولا يفارقه ولا ساعة فثقل ذلك على إخوته الكبار واشتد حسدهم له حتى أجتمعوا وتآمروا في أمره فمن مشير على قتله، ومن قائل: اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين، ثم اجتمع رأيهم على ما أشار به عليهم بعضهم وهو أن يلقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة وعقدوا على ذلك.

فلقوا أباهم وكلموه أن يرسل يوسف معهم غداً يرتع ويلعب وهم له حافظون فلم يرض به يعقوب واعتذر أنه يخاف أن يأكله الذئب فلم يزالوا به يراودونه حتى أرضوه وأخذوه منه وذهبوا به معهم إلى مراتع أغنامهم بالبر فألقوه في جب هناك وقد نزعوا قميصه.

ثم جاءوا بقميصه ملطخاً بدم كذب إلى أبيهم وهم يبكون فأخبروه أنهم ذهبوا اليوم للاستبقاء وتركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب وهذا قميصه الملطخ بدمه.

فبكى يعقوب وقال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، ولم يقل ذلك إلا بتفرس إلهي ألقي في روعه، ولم يزل يعقوب يذكر يوسف ويبكي عليه ولا يتسلى عنه بشيء حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم.

ومضى بنوه يراقبون الجب حتى جاءت سيارة فأرسلوا واردهم للاستقاء فأدلى دلوه فتعلق يوسف بالدلو فخرج فاستبشروا به فدنا منهم بنو يعقوب وادعوا أنه عبد لهم ثم ساوموهم حتى شروه بثمن بخس دراهم معدودة.

وسارت به السيارة إلى مصر وعرضوه للبيع فاشتراه عزيز مصر وأدخله بيته وقال لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وذلك لما كان يشاهد في وجهه من آثار الجلال وصفاء الروح على ما له من الجمال البديع فاستقر يوسف في بيت العزيز في كرامة وأهنأ عيش، وهذا أول ما ظهر من لطيف عناية الله بيوسف وعزيز ولايته له حيث توسل إخوته بإلقائه في الجب وبيعه من السيارة إلى إماتة ذكره وتحريمه كرامة الحياة في بيت أبيه أما إماتة الذكر فلم ينسه أبوه قط، وأما مزية الحياة فإن الله سبحانه بدل له بيت الشعر وعيشة البدوية قصراً ملكياً وحياة حضرية راقية فرفع الله قدره بعين ما أرادوا أن يحطوه ويضعوه، وعلى ذلك جرى صنع الله به ما سار في مسير الحوادث.

وعاش يوسف في بيت العزيز في أهنأ هيش حتى كبر وبلغ أشده ولم يزل تزكو نفسه ويصفو قلبه ويشتغل بربه حتى توله في حبه وأخلص له فصار لا همّ له إلا فيه فاجتباه الله وأخلصه لنفسه وآتاه حكماً وعلماً وكذلك يفعل بالمحسنين.

وعشقته امرأة العزيز وشغفها حبه حتى راودته عن نفسه وغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها وقالت: هيت لك. فامتنع يوسف واعتصم بعصمة

إلهية وقال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون، واستبقا الباب واجتذبته وقدّت قميصه من خلف وألفيا سيدها لدى الباب فاتهمت يوسف بأنه كان يريد بها سوءً وأنكر يوسف ذلك غير أن العناية الإلهية أدركته فشهد صبي هناك في المهد ببراءته فبرأه الله.

ثم ابتلي بحب نساء مصر ومراودتهن وشاع أمر امرأة العزيز حتى آل الأمر إلى دخوله السجن، وقد توسلت امرأة العزيز بذلك إلى تأديبه ليجيبها إلى ما تريد، والعزيز إلى أن يسكت هذه الأراجيف الشائعة التي كانت تذهب بكرامة بيته وتشوه جميل ذكره.

فدخل يوسف السجن ودخل معه السجن فتيان للملك فذكر أحدهما أنه رأى في منامه أنه يعصر خمراً، والآخر رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، وسألاه أن يؤول منامهما فأول رؤيا الأول أنه سيخرج فيصير ساقياً للملك، ورؤيا الثاني أنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه فكان كما قال. وقال يوسف للذي رأى أنه ناجٍ منهما: اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين.

وبعد بضع من السنين رأى الملك رؤيا هالته فذكرها لملئه وقال: إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون. قالوا أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين وعند ذلك اذكر الساقي يوسف وتعبيره لمنامه فذكر ذلك للملك واستأذنه أن يراجع السجن ويستفتي يوسف في أمر الرؤيا فأذن له في ذلك وأرسله إليه.

ولما جاءه واستفتاه في أمر الرؤيا وذكر أن الناس ينتظرون أن يكشف لهم أمرها قال: تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحسنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.

فلما سمع الملك ما أفتى به يوسف أعجبه ذلك وأمر بإطلاقه وإحضاره ولما جاءه الرسول لتنفيذ أمر الملك أبى الخروج والحضور إلا أن يحقق الملك ما جرى بينه وبين النسوة ويحكم بينه وبينهن ولما أحضرهن وكلمهن

في أمره اتفقن على تبرئته من جميع ما اتهم به وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، وقالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين فاستعظم الملك أمره في علمه وحكمه واستقامته وأمانته فأمر بإطلاقه وإحضاره معززاً وقال: ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما حضر وكلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين وقد محصت أحسن التمحيص واختبرت أدق الاختبار.

قال يوسف: اجعلني على خزائن أرض مصر إني حفيظ عليم حتى أهيىء الدولة في هذه السنين السبع المخصبة التي تجري على الناس لإنجائهم مما يهددهم من السنين السبع المجدبة فأجابه الملك على ذلك فقام يوسف بالأمر وأمر بإجادة الزرع وإكثاره وجمع الطعام والميرة وحفظه في المخازن بالحزم والتدبير حتى إذا دهمهم السنون المجدبة وضع فيهم الأرزاق وقسم بينهم الطعام حتى أنجاهم الله بذلك من المخمصة، وفي هذه السنين انتصب يوسف لمقام عزة مصر، واستولىٰ على سرير الملك فكان السجن طريقاً له يسلك به إلى أريكة العزة والملك بإذن الله، وقد كانوا تسببوا به إلى إخماد ذكره، وإنسائه من قلوب الناس، وإخفائه من أعينهم. وفي بعض تلك السنين المجدبة دخل على يوسف إخوته لأخذ الطعام فعرفهم وهم له منكرون فاستفسرهم عن شأنهم وعن أنفسهم فذكروا له أنهم أبناء يعقوب وأنهم أحد عشر أخاً أصغرهم عند أبيهم يأنس به ولا يدعه يفارقه قط فأظهر يوسف أنه يشتاق أن يراه فيعرف ما باله يخصه أبوه بنفسه فأمرهم أن يأتوه به إن رجعوا إليه ثانياً للامتيار، وزاد في إكرامهم وإيفاء كيلهم فأعطوه العهد بذلك، وأمر فتيانه أن يدسوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون. ولما رجعوا إلى أبيهم حدثوه بما جرى بينهم وبين عزيز مصر وأنه منع منهم الكيل إلا أن يرجعوا إليه بأخيهم بنيامين فامتنع أبوهم من ذلك ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم فراجعوا أباهم وذكروا له ذلك وأصروا على إرسال بنيامين معهم إلى مصر وهو يأبىٰ حتى وافقهم على ذلك بعد أن أخذ منهم موثقاً من الله ليأتنه به إلا أن يحاط بهم.

ثم تجهزوا ثانياً وسافروا إلى مصر ومعهم بنيامين ولما دخلوا على

يوسف آوى إليه أخاه وعرّفه نفسه وقال: إني أنا أخوك وأخبره أنه يريد أن يحبسه عنده فعليه أن لا يبتئس بما سيشاهده من الكيد. ولما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه فأذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون قالوا: ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا تفقدون قالوا: نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم قالوا: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين. قالوا: فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا: جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي السارق فيما بيننا. فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ثم أمر بالقبض عليه واسترقه بذلك.

فراجعه إخوته في إطلاقه حتى سألوه أن يأخذ أحدهم مكانه رحمة بأبيه الشيخ الكبير فلم ينفع فرجعوا إلى أبيهم آيسين غير أن كبيرهم قال لهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين فبقي بمصر وساروا.

فلما رجعوا إلى أبيهم وقصوا عليه القصص قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ثم تولى عنهم وقال: يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم فلما لاموه على حزنه الطويل ووجده ليوسف قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ثم قال لهم: يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله فإني أرجو أن تظفروا بهما.

فسار نفر منهم إلى مصر واستأذنوا على يوسف فلما شخصوا عنده تضرعوا إليه واسترحموه في أنفسهم وأهلهم وأخيهم الذي استرقه قائلين: يا أيها العزيز قد مسنا وأهلنا الضر بالجدب والسنة وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا بأخينا الذي تملكته بالاسترقاق إن الله يجزي المتصدقين.

وعند ذلك حقت كلمته تعالىٰ ليعزّن يوسف بالرغم من استذلالهم له وليرفعن قدره وقدر أخيه وليضعن الباغين الحاسدين لهما فأراد يوسف أن يعرفهم نفسه وقال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟ قالوا: ءإنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه

من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين فاعترفوا بذنبهم وشهدوا أن الأمر إلى الله يعز من يشاء ويذل من يشاء وأن العاقبة للمتقين وأن الله مع الصابرين. فقابلهم يوسف بالعوف والاستغفار وقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وقربهم إليه وزاد في إكرامهم. ثم أمرهم أن يرجعوا إلى أهليهم ويذهبوا بقميصه فيلقوه على وجه أبيه يأت بصيراً فتجهزوا للسير ولما فصلت العير قال يعقوب لمن عنده من بنيه: إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قال من عنده من بنيه: تالله إنك لفي ضلالك القديم ولما جاءه البشير ألقى القميص على وجهه فارتد بصيراً فرد الله سبحانه إليه بصره بعين ما ذهب به وهو القميص قال يعقوب لبنيه: ألم أقل لكم: إني أعلم من الله ما لا تعلمون قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال: سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم.

ثم تجهزوا للمسير إلى يوسف واستقبلهم وضم إليه أبويه وأعطاهم الأمن وأدخلهم دار الملك ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً يعقوب وامرأته وأحد عشر من ولده، قال يوسف يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ثم شكر الله على لطيف صنعه في دفع النوائب العظام عنه وإيتائه الملك والعلم.

وبقي آل يعقوب بمصر، وكان أهل مصر يحبون يوسف حباً شديداً لفضل نعمته عليهم وحسن بلائه فيهم، وكان يدعوهم إلى دين التوحيد وملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام (كما ورد في قصة السجن وفي سورة المؤمن).

٢ ـ ما أثنى الله عليه ومنزلته المعنوية:

كان عليه السلام من المخلصين وكان صديقاً وكان من المحسنين، وقد آتاه الله حكماً وعلماً وعلمه من تأويل الأحاديث وقد اجتباه الله وأتم نعمته عليه، وألحقه بالصالحين (سورة يوسف) وأثنى عليه بما أثنى على آل نوح وإبراهيم عليهم السلام من الأنبياء وقد ذكره فيهم (سورة الأنعام).

٣ ـ قصته في التوراة الحاضرة:

قالت التوراة: وكان بنو يعقوب اثني عشر: بنو ليئة رأُوبين بكر يعقوب وشمعون ولاوي ويهودا ويساكر وزنولون وابنا راحيل يوسف، وبنيامين، وابنا بلهة جارية راحيل دان، ونفتالى وابنا زلفة جارية ليئة جاد، وأشير. هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فدان أرام.

قالت (التوراة): يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه، وأتى يوسف بنميمتهم الردية إلى أبيهم، وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام.

وحلم يوسف حلماً فأخبر إخوته فازدادوا أيضاً بغضاً له فقال لهم: اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت: فها نحن حازمون حزماً في الحقل وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي. فقال له إخوته ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً، وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه. ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته فقال: إني قد حلمت حلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي، وقصه على أبيه وعلى إخوته فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل يأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض فحسده إخوته وأما أبوه فحفظ الأمر. ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل ليوسف: أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأُرسلك إليهم، فقال له: ها أنا ذا فقال له: اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً فأرسله من وطاء حبرون فأتى إلى شكيم فوجده رجل وإذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلاً: ماذا تطلب؟ فقال: أنا طالب إخوتي أخبرني أين يرعون؟ فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون: لنذهب إلى دوثان فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان. فلما أبصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض: هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى هذه الآبار

ونقول: وحش ردي أكله فنرى ماذا يكون أحلامه؟ فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال: لا نقتله وقال لهم رأوبين: لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يداً لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذي عليه وأخذوه وطرحوه في البئر وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء.

ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد، وجمالهم حاملة كتيراء وبلساناً ولادناً ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه؟ تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته.

واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر، ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجوداً، وأنا أين أذهب؟ فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم، وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا: وجدنا هذا، حقق أقميص ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابني وحش ردي أكله افترس يوسف افتراساً فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه.

قالت التوراة: وأما يوسف فأُنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصري من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك، وكان الرب مع يوسف فكان رجلاً ناجحاً وكان في بيت سيده المصري.

ورأى سيده أن الرب معه، وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه فوكله إلى بيته ودفع إلى يده كل ما كان له، وكان من حين وكله على بيته وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف، وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت

وفي الحفل فترك كل ما كان له في يد يوسف ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكل وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر.

وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي فأبى وقال لامرأة سيده: هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدي ليس هو في هذا البيت، ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشرّ العظيم؟ وأُخطىء إلى الله؟ وكان إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها.

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا. دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج.

فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل إليّ العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني وكان لما رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج.

فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمي فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه، وكان هناك في بيت السجن.

ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفاً وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن، وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل، ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما في يده لأن الرب كان معه، ومهما صنع كان الرب ينجحه.

ثم ساقت التوراة قصة صاحبي السجن ورؤياهما ورؤيا فرعون مصر وملخصه أنهما كانا رئيس سقاة فرعون ورئيس الخبازين أذنباه فحبسهما فرعون في سجن رئيس الشرط عند يوسف فرأى رئيس السقاة في منامه أنه يعصر خمراً، والآخر أن الطير تأكل من طعام حمله على رأسه فاستفتيا يوسف فعبر رؤيا الأول برجوعه إلى سقي فرعون شغله السابق، والثاني بصلبه وأكل الطير من لحمه، وسأل الساقي أن يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك.

ثم بعد سنتين رأى فرعون في منامه سبع بقرات سمان حسنة المنظر خرجت من نهر وسبع بقرات مهزولة قبيحة المنظر وقفت على الشاطىء فأكلت المهازيل السمان فاستيقظ فرعون ثم نام فرأى سبع سنابل خضر حسنة سمينة وسبع سنابل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فأكلت الرقيقة السمينة فهال فرعون ذلك وجمع سحرة مصر وحكماءها وقص عليهم رؤياه فعجزوا عن تعبيره.

وعند ذلك ادكر رئيس السقاة يوسف فذكره لفرعون وذكر ما شاهده من عجيب تعبيره للمنام فأمر فرعون بإحضاره فلما أُدخل عليه كلمه واستفتاه فيما رآه في منامه مرة بعد أخرى فقال يوسف لفرعون: حلم فرعون واحد قد أخبر الله فرعون بما هو صانع: البقرات السبع الحسنة في سبع سنين وسنابل سبع الحسنة في سبع سنين هو حلم واحد، والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وراءها سبع سنين والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية يكون سبع سنين جوعاً.

هو الأمر الذي كلمت به فرعون قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع، هو ذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل أرض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً فينسى كل الشبع في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض، ولا يعرف الشبع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده لأنه يكون شديداً جداً، وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من عند الله والله مسرع لصنعه.

فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر يفعل

فرعون فيوكل نظاراً على الأرض ويأخذ خمس غلة أرض مصر في سبع سني الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظونه فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر فلا تنقرض الأرض بالجوع.

قالت التوراة ما ملخصه أن فرعون استحسن كلام يوسف وتعبيره وأكرمه وأعطاه إمارة المملكة في جميع شؤونها وخلع عليه بخاتمه وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه وأركبه في مركبته الخاصة ونودي أمامه: أن اركعوا، وأخذ يوسف يدير الأمور في سني الخصب ثم في سني الجدب أحسن إدارة.

ثم قالت التوراة ما ملخصه أنه لما عمت السنة أرض كنعان أمر يعقوب بنيه أن يهبطوا إلى مصر فيأخذوا طعاماً فساروا ودخلوا على يوسف فعرفهم وتنكر لهم وكلمهم بجفاء وسألهم من أين جئتم؟ قالوا: من أرض كنعان لنشتري طعاماً قال يوسف: بل جواسيس أنتم جئتم إلى أرضنا لتفسدوها قالوا: نحن جميعاً أبناء رجل واحد في كنعان كنا اثني عشر أخاً فقد منا واحد وبقي أصغرنا ها هو اليوم عند أبينا ، والباقون بحضرتك ونحن جميعاً أمناً لا نعرف الفساد والشر.

قال يوسف: لا وحياة فرعون نحن نراكم جواسيس ولا نخلي سبيلكم حتى تحضرونا أخاكم الصغير حتى نصدقكم فيما تدعون فأمر بهم فحبسوا ثلاثة أيام ثم أحضرهم وأخذ من بينهم شمعون وقيده أمام عيونهم وأذن لهم أن يرجعوا إلى كنعان ويجيئوا بأخيهم الصغير.

ثم أمر أن يملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد منهم إلى عدله ففعل فرجعوا إلى أبيهم وقصوا عليه القصص فأبى يعقوب أن يرسل بنيامين معهم وقال: أعدمتموني الأولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تريدون أن تأخذوه لا يكون ذلك أبداً وقال: قد أسأتم في قولكم للرجل: إن لكم أخاً تركتموه عندي قالوا: إنه سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً: هل أبوكم حي بعد؟ وهل لكم أخ آخر فأخبرناه كما سألنا وما كنا نعلم أنه سيقول: جيئوا إلي بأخيكم. فلم يزل يعقوب يمتنع حتى أعطاه يهوذا الموثق أن يرد إليه بنيامين فأذن في ذهابهم به معهم، وأمرهم أن يأخذوا من أحسن

متاع الأرض هدية إلى الرجل وأن يأخذوا معهم أصرة الفضة التي ردت إليهم في أوعيتهم ففعلوا.

ولما وردوا مصر لقوا وكيل يوسف على أموره وأخبروه بحاجتهم وأن بضاعتهم ردت إليهم في رحالهم وعرضوا له هديتهم فرحب بهم وأكرمهم وأخبرهم أن فضتهم لهم وأخرج إليهم شمعون الرهين ثم أدخلهم على يوسف فسجدوا له وقدموا إليه هديتهم فرحب بهم واستفسرهم عن حالهم وعن سلامة أبيهم وعرضوا عليه أخاهم الصغير فأكرمه ودعا له ثم أمر بتقديم الطعام فقدم له وحده، ولهم وحدهم ولمن عنده من المصريين وحدهم.

ثم أمر وكيله أن يملأ أوعيتهم طعاماً وأن يدس فيها هديتهم وأن يضع طاسة في عدل أخيهم الصغير ففعل فلما أضاء الصبح من غد شدوا الرحال على الحمير وانصرفوا.

فلما خرجوا من المدينة ولما يبتعدوا قال لوكيله أدرك القوم وقل لهم: بئس ما صنعتم جازيتم الإحسان بالإساءة سرقتم طاس سيدي الذي يشرب فيه ويتفاءل به فتبهتوا من استماع هذا القول، وقالوا: حاشانا من ذلك، هوذا الفضة التي وجدناها في أفواه عدالنا جئنا بها إليكم من كنعان فكيف نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهباً، من وجد الطاس في رحله فبادروا إلى عدولهم جميعاً عبيد سيدك. فرضي بما ذكروا له من الجزاء فبادروا إلى عدولهم وأنزل كل واحد منهم عدله وفتحه فأخذ يفتشها وابتدأ من الكبير حتى انتهى إلى الصغير وأخرج الطاس من عدله.

فلما رأى ذلك إخوته مزقوا ثيابهم ورجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف وأعادوا عليه قولهم معتذرين متعترفين بالذنب عليهم سيماء الصغار والهوان والخجل فقال: حاشا أن نأخذ إلا من وجد متاعنا عنده، وأما أنتم فارجعوا بسلام إلى أبيكم.

فتقدم إليه يهوذا وتضرع إليه واسترحمه وذكر له قصتهم مع أبيهم حين أمرهم يوسف بإحضار بنيامين فسألوا أباهم ذلك فأبى أشد الإباء حتى آتاه يهوذا الميثاق على أن يرد بنيامين إليه وذكر أنهم لا يستطيعون أن يلاقوا أباهم وليس معهم بنيامين، وأن أباهم الشيخ لو سمع منهم ذلك لمات من

وقته ثم سأله أن يأخذه مكان بنيامين عبداً لنفسه ويطلق بنيامين لتقر بذلك عين أبيهم المستأنس به بعد فقد أخيه من أمه يوسف.

قالت التوراة: فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ أخرجوا كل إنسان عني فلم يقف أحد عنده حين عرّف يوسف إخوته بنفسه فأطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون وسمع بيت فرعون، وقال يوسف لإخوته: أنا يوسف أحي أبي بعد؟ فلما يستطع إخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه.

وقال يوسف لإخوته: تقدموا إليّ، فتقدموا فقال: أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم لأن للجوع في الأرض الآن سنتين وخمس سنين أيضاً لا يكون فيها فلاحة ولا حصاد فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض وليستبقي لكم نجاة عظيمة فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا بل الله وهو قد جعلني أباً لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلط على كل أرض مصر.

أسرعوا واصعدوا إلى أبي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف: أنزل إلي لا تقف فتسكن في أرض جاسان وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بيتك وغنمك وبقرك وكل مالك، وأعولك هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً لئلا تفتقر أنت وبيتك وكل ما لك، وهوذا عيونكم ترى وعينا أخي بنيامين أن فمي هو الذي يكلمكم، وتخبرون أني بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بأبي إلى هنا ثم وقع على عين بنيامين أخيه وبكى، وبكى بنيامين على عنقه وقبل جميع إخوته وبكى عليهم.

ثم قالت التوراة: ما ملخصه أنه جهزهم أحسن التجهيز وسيّرهم إلى كنعان فجاءوا أباهم وبشروه بحياة يوسف وقصوا عليه القصص فسر بذلك وسار بأهله جميعاً إلى مصر وهم جميعاً سبعون نسمة ووردوا أرض جاسان من مصر وركب يوسف إلى هناك يستقبل أباه ولقيه قادماً فتعانقا وبكى طويلاً ثم أنزله وبنيه وأقرهم هناك وأكرمهم فرعون إكراماً بالغاً وآمنهم وأعطاهم ضيعة في أفضل بقاع مصر وعالهم يوسف ما دامت السنون المجدبة وعاش يعقوب في أرض مصر بعد لقاء يوسف سبع عشرة سنة.

هذا ما قصته التوراة من قصة يوسف فيما يحاذي القرآن أوردناها ملخصة إلا في بعض فقراتها لمسيس الحاجة[1].

٤ ـ يوسف عليه السلام في ظل الولاية الإلهية

وفيه فصول:

الفصل الأول: الغرض من سورة يوسف عليه السلام:

غرض السورة بيان ولاية الله لعبده الذي أخلص إيمانه له تعالى له إخلاصاً وامتلأ بمحبته تعالىٰ لا يبتغي له بدلاً ولم يلو إلى غيره تعالى من شيء، وأن الله تعالى يتولى هو أمره فيربيه أحسن تربية فيورده مورد القرب ويسقيه فيرويه من مشرعة الزلفى فيخلصه لنفسه ويحييه حياة إلهية وإن كانت الأسباب الظاهرة أجمعت على هلاكه، ويرفعه وإن توفرت الحوادث على ضعته، ويعزه وإن دعت النوائب ورزايا الدهر إلى ذلته وحط قدره.

وقد بين تعالىٰ ذلك بسرد قصة يوسف الصديق عليه السلام. ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصة من القصص باستقصائها من أولها إلى آخرها غير قصته عليه السلام، وقد خصت السورة بها من غير شركة ما من غيرها.

فقد كان عليه السلام عبداً مخلصاً في عبوديته فأخلصه الله لنفسه وأعزه بعزته وقد تجمعت الأسباب على إذلاله وضعته فكلما ألقته في إحدى المهالك أحياه الله تعالىٰ من نفس السبيل التي كانت تسوقه إلى الهلاكة: حسده إخوته فألقوه في غيابه الجب ثم شروه بثمن بخس دراهم معدودة فذهب به ذلك إلى مصر وأدخله في بيت الملك والعزة، راودته التي هو في بيتها عن نفسه واتهمته عند العزيز ولم تلبث دون أن اعترفت عند النسوة ببراءته ثم اتهمته وأدخلته السجن فكان ذلك سبب قربه عند الملك، وكان قميصه الملطخ بالدم الذي جاءوا به إلى أبيه يعقوب أول يوم هو السبب الوحيد في ذهاب بصره فصار قميصه بعينه وقد أرسله بيد إخوته من مصر إلى أبيه آخر يوم هو

---

(١) انظر ما تقدم من الأبحاث في قصة يوسف عليه السلام في المجلد الحادي عشر صفحة ٢٥٧ من الميزان.

السبب في عود بصره إليه، وعلى هذا القياس.

وبالجملة كلما نازعه شيء من الأسباب المخالفة أو اعترضه في طريق كماله جعل الله تعالىٰ ذلك هو السبب في رشد أمره ونجاح طلبته، ولم يزل سبحانه يحوله من حال إلى حال حتى آتاه الحكم والملك واجتباه وعلمه من تأويل الأحاديث وأتم نعمته عليه كما وعده أبوه. وقد بدأ الله سبحانه قصته بذكر رؤيا رآها في بادىء الأمر وهو صبي في حجر أبيه والرؤيا من المبشرات ثم حقق بشارته وأتم كلمته فيه بما خصه به من التربية الإلهية، وهذا هو شأنه تعالى في أوليائه كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

وفي قوله تعالى بعد ذكر رؤيا يوسف وتعبير أبيه عليه السلام لها: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ إشعار بأنه كان هناك قوم سألوا النبي صلى الله عليه وآله عما يرجع إلى هذه القصة، وهو يؤيد ما ورد أن قوماً من اليهود بعثوا مشركي مكة أن يسألوا النبي صلى الله عليه وآله عن سبب انتقال بني إسرائيل إلى مصر وقد كان يعقوب عليه السلام ساكناً في أرض الشام فنزلت السورة.

وعلى هذا فالغرض بيان قصته عليه السلام وقصة آل يعقوب وقد استخرج تعالىٰ ببيانه ما هو الغرض العالي منها وهو طور ولاية الله لعباده المخلصين كما هو اللائح من مفتتح السورة ومختتمها، والسورة مكية على ما يدل عليه سياق آياتها، وما ورد في بعض الروايات عن ابن عباس أن أربعاً من آياتها مدنية وهي الآيات الثلاث التي في أولها، وقوله: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ مدفوع بما تشتمل عليه من السياق الواحد[2].

ـ يوسف في بيت العزيز:

هو ذا طفل صغير حولته أيدي المقادير إلى بيت العزيز عليه سيما

---

(١) يونس: ٦٤.

(٢) انظر الميزان المجلد ١١ ص ٧٥.

العبيد ولعله لم يسأل إلا عن اسمه، ولم يتكلم إلا أن قال: اسمي يوسف أو قيل عنه ذلك ولم يلح من لهجته إلا أنه كان قد نشأ بين العبريين، ولم يسأل عن بيته ونسبه فليس للعبيد بيوت ولم يكن من المعهود أن يحفظ للأرقاء أنساب وهو ساكت مختوم على لسانه لا يتكلم بشيء وكم من حديث بين جوانحه فلم يعرف نسبه إلا بعد سنين من ذلك حينما قال لصاحبيه في السجن: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولا كشف عما في سره من توحيد العبودية لله بين أولئك الوثنيين إلا ما ذكره لامرأة العزيز حين راودته عن نفسه بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ إلخ.

هو اليوم حليف الصمت والسكوت لكن قلبه مليء بما يشاهده من لطيف صنع الله به فهو على ذكر مما بثه إليه أبوه يعقوب النبي من حقيقة التوحيد ومعنى العبودية ثم ما بشّر به من الرؤيا أن الله سيخلصه لنفسه ويلحقه بآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وليس ينسى ما فعله به إخوته ثم ما وعده به ربه في غيابة الجب حين ما انقطع عن كافة الأسباب: أنه تحت الولاية الإلهية والتربية الربوبية معني بأمره وسينبيء إخوته بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

فكان عليه السلام مملوء الحس مستغرق النفس في مشاهدة ألطاف ربه الخفية يرى نفسه تحت ولاية الله محبوراً بصنائعه الجميلة لا يرد إلا على خير، ولا يواجه إلا جميلاً.

وهذا هو الذي هون عليه ما نزل به من النوائب، وتواتر عليه من المحن والبلايا فصبر عليها على ما بها من المرارة فلم يشك ولم يجزع ولم يضل الطريق وقد ذكر ذلك لإخوته حين عرفهم نفسه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]. فلم يزل يوسف عليه السلام تنجذب نفسه إلى جميل صنائع ربه ويمعن قلبه في لطيف الإشارات إليه، ويزداد كل يوم حباً بما يجده من شواهد الولاية ويشاهد أن ربه هو القائم على كل نفس بما كسبت وهو على كل شيء شهيد حتى تمكنت المحبة الإلهية منه واستقر الوله والهيمان في سره فكان همّه في ربه لا يشغله عنه شاغل ولا يصرفه عنه

(١) الآية: ٩٠.

صارف ولا طرفة عين، وهذا بمكان من الوضوح لمن تدبر فيما تحكي عنه السورة من المحاورات كقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وغير ذلك.

فهذا ما عند يوسف عليه السلام فقد كان شبحاً ما وراءه إلا محبة إلهية أنسته نفسه وشغلته عن كل شيء، وصورة معناها أنها خالصة أخلصها الله لنفسه فلم يشاركه فيه أحد.

ولم يظهر للعزيز منه أول يوم إذ حل في بيته إلا أنه غلام صغير عبري مملوك له غير أن قوله لامرأته: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ يكشف أنه شاهد منه وقاراً وتمكيناً وتفرس فيه عظمة وكبرياء نفسانية أطمعته في أن ينتفع به أو يلحقه بنفسه بالتبني على ما في يوسف من عجيب الجمال والحسن...

ـ امرأة العزيز والانحطاط الأخلاقي:

امرأة العزيز وهي عزيزة مصر «وصاها العزيز يوسف أن تكرم مثواه وأعلمها أن له فيه إربة وأمنية فلم تزل تجتهد في إكرام يوسف وتحسن مثواه وتهتم بأمره لا كما يهتم في أمر رقيق مملوك بل كما يعنى بأمر جوهر كريم أو قطعه كبد وتحبه لبديع جماله وغزير كماله، وتزداد كلما مضت الأيام حباً إلى حب حتى إذا بلغ الحلم واستوى على مستوى الرجال لم تملك نفسها دون أن تعشقه وتذل على ما لها من مناعة الملك والعزة وعصمة العفة والخفارة تجاه هواء القاطن بسرها الآخذ بمجامع قلبها.

وقد كان يوسف يلازمها في العشرة ولا يفارق بيتها من جانب وكانت عزيزة لا يثنى أمرها ولا ترد عزيمتها وكانت فيما تزعم سيدة يوسف وهو عبدها المملوك لا يسعه إلا أن يطيعها وينقاد لها، ولبيوت الملوك والأعزة أن تحتال لشتى مقاصدها ومآربها بأنواع الحيل والمكائد فإن عامة الأسباب وإن عزت وامتنعت ميسّرة لها. وكانت العزيزة ذات جمال وزينة فإن حريم الملوك لا تدخلها كل شوهاء دميمة ولا تحل بها إلا غوانٍ ذوات حسن فتانات. والعادة تحكم أن هذه الأسباب ـ وقد اجتمعت على عزيزة مصر ـ

أسعرت في سرها كل لهيب وأججت كل نار حتى استغرقت في حب يوسف وتولهت في غرامه واشتغلت به عن كل شيء، وقد أحاط بقلبها من كل جانب، هو أول منطقها إذا تكلمت وفي ضميرها إذا سكتت فلا همّ لها إلا يوسف ولا بغية لها إلا فيه: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ وليوسف الجمال الذي يأخذ بمجامع القلوب فكيف إذا امتلأت به عين محب وإله وأدام النظر إليه مهيم ذو غرام...

ـ يوسف وامرأة العزيز:

لم تزل عزيزة مصر تعد نفسها وتمنيها بوصال يوسف والظفر بما تبتغيه منه وتلاطفه في عشرته وتشفع ذلك بما لربات الحسن والزينة من الغنج والدلال لتصطاده بما عندها كما اصطادها بما عنده ولعل الذي كانت تشاهده من صبر يوسف وسكوته كان يغرها فيما ترومه ويغريها عليه.

حتى إذا تاقت نفسها له وبلغت بها وأعيتها المذاهب خلت به في بيتها وقد غلقت الأبواب فلم يبق فيه إلا هي ويوسف. وهي لا تشك أن سيطيعها يوسف في أمرها ولا يمتنع عليها لما كانت ولا تزال تراه بالسمع والطاعة، وتشاهد أن الأوضاع والأحوال الحاضرة تقضي بفوزها ونيلها ما تريده منه.

فتى واله في حبه وفتاة تائقة في غرامها اجتمعا في بيت خالٍ أما هي فمشغوفة بحب يوسف تريد أن تصرفه عن نفسه إلى نفسها وتتوسل إلى ذلك بتغليق الأبواب ومراودته عن نفسه والاعتماد على ما لها من العزة والملك حيث تدعوه إلى نفسها بلفظ الأمر: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لتقهره على ما تريده منه.

وأما هو فقد استغرق في حب ربه وأخلص وصفى ذلك نفسه فلم يترك لشيء في قلبه محلاً غير حبيبه فهو في خلوة مع ربه وحضرة منه يشاهد فيها جماله وجلاله وقد طارت الأسباب الكونية على ما لها من ظاهر التأثير من نظره فهو على خلافها لا يتبجح بالأسباب ولا يركن إلى الأعضاد.

ترى أنها تتوسل عليه بالأسباب بتغليق الأبواب والمراودة والأمر بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأما هو فقد قابلها بقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ فلم يجبها بتهديد ولم يقل: إني أخاف العزيز أو لا أخونه أو إني من بيت النبوة والطهارة أو إن عفتي أو عصمتي تمنعني من الفحشاء، ولم يقل إني أرجو

ثواب الله أو أخاف عذابه إلى غير ذلك، ولو كان قلبه متعلقاً بشيء من الأسباب الظاهرة لذكره وبدأ به عند مفاجأة الشدة ونزول الاضطرار على ما هو مقتضى طبع الإنسان. بل استمسك بعروة التوحيد وأجاب بالعياذ بالله فحسب ولم يكن في قلبه أحد سوى ربه ولا تعدى بصره إياه إلى غيره فهذا هو التوحيد الخالص الذي هدته إليه المحبة الإلهية وأولهه في ربه فأنساه الأسباب كلها حتى أنساه نفسه فلم يقل: إني أعوذ منك بالله أو ما يؤدي معناه، وإنما قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وكم من الفرق بين قوله هذا وبين قول مريم للروح لما تمثل لها بشراً سوياً: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾[1].

وأما قوله لها ثانياً: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإنه يوضح كلمة التوحيد الذي أفاده بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ويجليه، يقول: إن الذي أشاهده أن إكرامك مثواي عن قول العزيز لك: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ فعل من ربي وإحسان منه إلي فربي أحسن مثواي وإن انتسب إليك ذلك بوجه فهو الذي يجب عليّ أن أعوذ به وألوذ إليه، وإنّما أعوذ به لأن إجابتك فيما تسألين وارتكاب هذه المعصية ظلم ولا يفلح الظالمون فلا سبيل إلى ارتكابه.

فقد أفاد عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أولاً: أنه موحد لا يرى شرك الوثنية فليس ممن يتخذ أرباباً من دون الله كما تقول به الوثنية يتخذون مع الله أرباباً أخرى ينسبون إليهم تدبير العالم بل هو يقول بأن الله هو ربه لا رب سواه.

وثانياً: أنه ليس ممن يوحد الله سبحانه قولاً ويشرك به فعلاً بإعطاء الاستقلال لهذه الأسباب الظاهرة تؤثر ما تؤثر بإذن الله بل هو يرى ما ينسب من جميل الآثار إلى الأسباب فعلاً جميلاً لله سبحانه في عين هذا الانتساب فما تراه امرأة العزيز أنها هي التي أكرمت مثواه عن وصية العزيز وأنها وبعلها ربان له يتوليان أمره يرى هو أن الله سبحانه هو الذي أحسن مثواه وأنه ربه الذي يتولى تدبير أمره فعليه أن يعوذ به.

---

(١) مريم: ١٨.

وثالثاً: أنه إنما تعوذ بالله مما تدعوه إليه لأنه ظلم لا يفلح المتلبس به ولا يهتدي إلى سعادته ولا يتمكن في حضرة الأمن عند ربه كما قال تعالىٰ حكاية عن جده إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

ورابعاً: أنه مربوب ـ أي مملوك مدبر ـ لله سبحانه ليس له من الأمر شيء، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله له أو أحب أن يأتي به ولذلك لم يرد ما سألته منه بصريح اللفظ بل بالكناية عنه بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إلخ فلم يقل: لا أفعل ما تأمرينني به ولم يقل: لا أرتكب كذا، ولم يقل: أعوذ بالله منك، وما يشابه ذلك حذراً من دعوى الحول والقوة، وإشفاقاً من وسمة الشرك والجهالة اللهم إلا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ حيث أشار فيه إلى نفسه مرتين وليس فيه إلا تثبيت المربوبية وتأكيد الذلة والحاجة، ولهذه العلة بعينها بدل الإكرام إحساناً فأتى حذاء قول العزيز: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ بقوله: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ لما في الإكرام من الإشعار باحترام الشخصية وتعظيمها.

وبالجملة الواقعة وإن كانت مراجعة ومغالبة بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام بحسب ظاهر الحال فهي كانت تنازعاً بين حب وهيمان إلهي وعشق وغرام حيواني يتشاجران في يوسف كل منهما يجذبه إلى نفسه، وكانت كلمة الله هي العليا فأخذته الجذبة السماوية الإلهية ودافعت عنه المحبة الإلهية والله غالب على أمره...[2].

الهمّ الإلهي وأسباب الإخلاص في قصة يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ التدبر البالغ في أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) انظر الميزان المجلد ١١ ص ١٢٣.

العاملة فيها يعطي أن نجاة يوسف منها لم تكن إلا أمراً خارقاً للعادة وواقعة هي أشبه بالرؤيا منها باليقظة.

فقد كان يوسف عليه السلام رجلاً ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً بالغاً أشده وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب والجمال والملاحة يدعو إلى الهوى والترح، وكان مستغرقاً في النعمة وهنيء العيش محبوراً بمثوى كريم وذلك من أقوى أسباب التهوس والإتراف، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء.

وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر وهي عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان، وقد تعرضت له ودعته إلى نفسها والصبر مع التعرض أصعب، وقد راودته هذه الفتانة وأتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحت عليه فجذبته إلى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معها أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي ربته خصه بها العزيز، وكانا في قصر زاهٍ من قصور الملوك ذي المناظر الرائقة التي تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنيء.

وكانا في خلوة وقد غلقت الأبواب وأرخت الستور وكان لا يأمن الشر مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانتهاك الستر لأنها كانت عزيزة بيدها أسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كان مفتاحاً لعيش هنيء طويل وكان يمكن ليوسف أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانيها كالملك والعزة والمال.

فهذه أسباب وأمور هائلة لو توجهت إلى جبل لهدته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعاً إلا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب يوسف أو قبح الخيانة للعزيز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان في أمن منه ولو كان بدا

من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة أن تؤوله تأويلاً كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشيء وقلبت العقوبة ليوسف حتى سجن.

وأما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عما هو أعظم من الزنا وأشد إثماً فإنهم كانوا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم شرافة النسب من أن يهموا بقتله ويلقوه في غيابة الجب ويبيعوه من السيارة بيع العبيد ويثكلوا فيه أباهم يعقوب النبي عليه السلام فبكى حتى ابيضت عيناه.

وأما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية والقوانين الاجتماعية إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة، وذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة، وأما لو أغفلت القوة المجرية أو فسقت فأهملت أو خفي الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين.

فلم يكن عند يوسف عليه السلام ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه إلا أصل التوحيد وهو الإيمان بالله. وإن شئت فقل المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلاً ولا موضع إصبع، فهذا هو ما يفيده التدبر في القصة. ولنرجع إلى متن الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ لا ريب أن الآية تشير إلى وجه نجاة يوسف من هذه الغائلة، والسياق يعطي أن المراد بصرف السوء والفحشاء عنه إنجاؤه مما أُريد منه وسئل بالمراودة والخلوة، وأن المشار إليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هو ما يشتمل عليه قوله: ﴿أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

فيؤول معنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ إلى آخر الآية إلى أنه عليه السلام لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رأى من برهان ربه فرؤية برهان ربه هي السبب الذي صرف الله سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام.

ولازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هو ارتكاب السوء والفحشاء، ولازم ذلك أن يكون: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ إلخ قيداً لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد إلى المعصية ويكون حينئذٍ همه بها داخلاً تحت الشرط، والمعنى أنه لولا أن رأى برهان ربه لهم بها وأوشك أن يرتكب فإن «لولا» وإن كانت ملحقة بأدوات الشرط وقد منع النحاة تقدم جزائها عليها قياساً على إن الشرطية إلا أن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ وهو في معنى الجزاء استغني به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا: والله لأضربنه إن يضربني والمعنى: والله إن يضربني أضربه.

ومعنى الآية: والله لقد همت به والله لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها وأوشك أن يقع في المعصية، وإنما قلنا: أوشك أن يقع، ولم نقل: وقع لأن الهم ـ كما قيل ـ لا يستعمل إلا فيما كان مقروناً بالمانع كقوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾[1]. وقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[2] وقول صخر:

أهم بأمر الحزم لا أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ ولم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء فتدبر فيه.

ومن هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمّ بها والميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا فهو عليه السلام لم يفعل ولم يكد، ولولا ما أراه الله من البرهان لهمّ وكاد أن يفعل، وهذا المعنى هو الذي يؤيده ما قدمناه من الاعتبار والتأمل في الأسباب والعوامل المجتمعة في هذا الحين القاضية لها عليه.

---

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) آل عمران: ١٢٢.

ـ البرهان الإلهي وأقوال المفسرين فيه:

قال تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ والبرهان هو السلطان ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾[1]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿ءَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3] وهو الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريباً لمرتاب. والذي رآه يوسف عليه السلام من برهان ربه وإن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه ـ على أي حال ـ كان سبباً من أسباب اليقين لا يجامع الجهل والضلال بتاتاً، ويدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف عليه السلام فيما يناجي ربه كما سيأتي: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ويدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال وقبحها ومصلحتها ومفسدتها أن هذا النوع من العلم قد يجامع الضلال والمعصية وهو ظاهر. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[4] وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[5]. فالبرهان الذي أراه به وهو الذي يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعة لا تميل معها إلى معصية أصلاً.

ويظهر من الآية أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، وأن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقترفون معصية ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه، وهذه هي العصمة الإلهية.

ويظهر أيضاً أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفة المعهودة لنا.

وللمفسرين من العامة والخاصة في تفسير الآية أقوال مختلفة:

---

(١) القصص: ٣٢.
(٢) النساء: ١٧٤.
(٣) النمل: ٦٤.
(٤) الجاثية: ٢٣.
(٥) النمل: ١٤.

١ ـ منها: ما ذكره بعضهم ونسب إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وغيرهم: إن المعنى أنها همت بالفاحشة وأنه هم بمثله، لولا أن رأى برهان ربه لفعل.

وقد وصفوا همه ﷺ بما يجل عنه مقام النبوة وينتزه عنه ساحة الصديق فذكروا أنه قصدها بالفاحشة ودنا منها حتى حل السراويل وجلس منها مجلس الخاتن فأدركه برهان من ربه أبطل الشهوة ونجاه من الهلكة، وذكروا في وصف هذا البرهان أموراً كثيرة مختلفة.

قال الغزالي في تفسيره لهذه السورة: اختلفوا فيه ـ يعني في البرهان ـ ما هو؟ قال بعضهم: إن طائراً وقع على كتفه فقال في أذنه: لا تفعله فإن فعلت سقطت من درجة الأنبياء. وقيل: إنه رأى يعقوب عاضاً على إصبعه، وهو يقول: يا يوسف أما تراني. وقال الحسن البصري: رآها وهي تغطي شيئاً فقال لها: ما تصنعين؟ قالت: أغطي وجه صنمي لئلا يراني فقال يوسف: أنت تستحيين الجماد الذي لا يعقل ولا يرى فأنا أولى أن أستحي ممن يراني ويعلم سري وعلانيتي.

قال أرباب اللسان: إنه نودي في سره يا يوسف اسمك مكتوب في ديوان الأنبياء، وتريد أن تفعل فعل السفهاء. وقيل: رأى كفاً قد خرجت من الحائط مكتوب عليها: ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة وساء سبيلاً. وقيل: انفرج سقف البيت فرأى صورة حسنة تقول: يا رسول العصمة لا تفعل فإنك معصوم. وقيل: نكس رأسه فرأى على الأرض مكتوباً: ومن يعمل سوءً يجز به. وقيل: أتاه ملك ومسح جناحيه على ظهره فخرجت شهوته من أصابع رجليه. وقيل: رأى الملك في البيت وهو يقول: ألست ها هنا؟ وقيل: وقع بينهما حجاب فلا يرى أحد صاحبه. وقيل: رأى جارية من جواري الجنة فتحير من حسنها فقال لها: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يزني. وقيل: جاز عليه طائر فناداه: يا يوسف لا تعجل فإنها لك حلال ولك خلقت. وقيل: رأى ذلك الجب الذي كان بحذائه وعليه ملك قائم يقول يا يوسف أنسيت هذا الجب. وقيل: رأى زليخا على صورة قبيحة فهرب منها. وقيل: رأى شخصاً فقال: يا يوسف انظر إلى يمينك فنظر فرأى ثعباناً أعظم ما يكون فقال: الزاني في بطني غداً فهرب منه. انتهى.

ومما قيل فيه أنه تمثل له يعقوب فضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من أطراف أنامله رواه في الدر المنثور عن مجاهد وعكرمة وابن جبير إلى غير ذلك من الوجوه المختلفة التي أوردوها في التفسير بالمأثور.

والجواب عنه مضافاً إلى أنه عليه السلام كان نبياً ذا عصمة إلهية تحفظه من المعصية، وقد تقدم إثبات ذلك، أن الذي أورده الله تعالى من كرائم صفاته وإخلاص عبوديته لا يبقي شكاً في أنه أطهر ساحة وأرفع منزلة من أن ينسب إليه أمثال هذه الألواث فقد ذكر تعالى أنه من عباده الذين أخلصهم لنفسه واجتباهم لعبوديته وآتاهم حكماً وعلماً، وعلمه من تأويل الأحاديث، وأنه كان عبداً متقياً صبوراً في الله غير خائن ولا ظالم ولا جاهل، وكان من المحسنين وقد ألحقه بآبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وكيف تستقيم هذه المقامات العالية والدرجات الرفيعة إلا لإنسان طاهر في وجدانه منزه في أركانه صالح في أعماله مستقيم في أحواله. وأما من ذهب لوجهه في معصية الله وهمّ بما هو من أفحش الإثم في دين الله وهو زنا ذات البعل وخيانة من أحسن إليه أبلغ الإحسان في عرضه وأصر عليه حتى حل التكة وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فأتته لصرفه آية بعد آية فلم ينصرف، وازدجر بنداء بعد نداء من كل جانب فلم يستحي ولم يكف حتى ضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من رؤوس أصابعه، وشاهد ثعباناً أعظم ما يكون من عن يمينه فذعر منه وهرب من هول ما رأى، فمثله أحرى به أن لا يسمى إنساناً فضلاً أن يتكىء على أريكة النبوة والرسالة، ويأتمنه الله على وحيه ويسلم إليه مفاتيح دينه، ويؤتيه حكمه وعلمه ويلحقه بمثل إبراهيم الخليل.

لكن هؤلاء المتعلقين بهذه الأقاويل المختلفة والإسرائيليات والآثار الموضوعة إذ يتهمون جده إبراهيم عليه السلام في زوجته سارة لا يبالون أن يتهموا نجله عليه السلام في زوجة غيره.

قال في الكشاف: وقد فسر همّ يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجامع وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً: إياك وإياها فلم يكترث له فسمعه ثانياً فلم يعمل به فسمع ثالثاً: أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له

يعقوب عاضاً على أنمله، وقيل ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله.

وقيل: كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم، وقيل صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ فلم ينصرف ثم رأى فيها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ فلم ينته ثم رأى فيها: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فلم ينجع فيه فقال الله لجبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟ وقيل: رأى تمثال العزيز، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحيي منه أن يرانا فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحيي من السميع البصير العليم بذات الصدور.

وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل.

ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره كما نعيت على آدم زلته، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون وذكرت توبتهم واستغفارهم كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصاً؟

فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولي القوة والعزم ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها، ولم يقتصر على استيفاء قصته، وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقع العثار.

فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها وفي أن ينهاه ربه ثلاث مرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاه وهو جاثم في مربضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا ينتبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقح الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأجلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ولاعضو يتحرك، فيا له من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه. انتهى ـ.

وما أحسن ما قال بعض أهل التفسير في ذم أصحاب هذا القول إنهم يتهمونه ﷺ في هذه الواقعة وقد شهد ببراءته وطهارته كل من لها تعلق ما بها فالله سبحانه يشهد بذلك إذ يقول: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ والشاهد الذي له من أهلها إذ قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ إلى آخر الآيتين، والعزيز إذ قال لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ وامرأة العزيز إذ قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ والنسوة إذ قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ويوسف ينفي ذلك عن نفسه وقد سماه الله صديقاً إذ قال: ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ وعمدة السبب في تعاطيهم هذا القول أمران:

أحدهما: إفراطهم في الركون إلى الآثار وقبول الحديث كيفما كان وإن خالف صريح العقل ومحكم الكتاب فلعبت بأحلامهم الإسرائيليات وما يلحق بها من الأخبار الموضوعة المدسوسة، وأنستهم كل حق وحقيقة وصرفتهم عن المعارف الحقيقية.

ولذلك تراهم لا يرون لمعارف الدين محتداً وراء الحس، ولا للمقامات المعنوية الإنسانية كالنبوة والولاية والعصمة والإخلاص أصلاً إلا الوضع والاعتبار نظائر المقامات الوهمية الاعتبارية الدائرة في مجتمع الإنسان الاعتباري التي ليس لها وراء التسمية والمواضعة حقيقة تتكىء عليها وتطمئن إليها. فيقيسون نفوس الأنبياء الكرام على سائر النفوس العامية التي تنقلب بين الأهواء وبلغت بها الجهالة والخساسة فإن ارتقت فإنما ترتقي إلى منزلة التقوى ورجاء الثواب وخوف العقاب تصيب كثيراً وتخطىء وإن لحقت

بها عصمة إلهية في مورد أو موارد فإنما هي قوة حاجزة بين الإنسان والمعصية لا تعمل عملها إلا بإبطال سائر الأسباب والقوى التي جهز بها الإنسان وإلجاء الإنسان واضطراره إلى فعل الجميل واقتراف الحسنة ولا جمال لفعل ولا حسن لعمل ولا مدح لإنسان مع الإلجاء والاضطرار.

الثاني: ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ بناء على ما ذكره النحاة أن جزاء «لولا» لا يتقدم عليها قياساً على إن الشرطية، وعلى هذا يصير قوله «وهم بها» جملة تامة غير متعلقة بالشرط. وجواب لولا قولنا «لفعل» أو ما يشبه ذلك والتقدير: ولقد همت امرأة العزيز بيوسف وهم يوسف بها لولا أن رأى برهان ربه لفعل، وهو المطلوب.

٢ ـ ومن الأقوال في الآية أن المراد بهمّه عليه السلام ميل الطبع وانتزاع الغريزة قال في الكشاف: فإن قلت: كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها؟ قلت: المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر إلى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم.

ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همّه كهمّها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين.

ويجوز أن يريد بقوله ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشارفة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه.

ثم قال: فإن قلت: لِمَ جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها وهلا جعلته هو الجواب مقدماً. قلت: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز.

فإن قلت: فلم جعلت لولا متعلقة بهم بها وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا باثنين معاً فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما.

قلت: نعم ما قلت ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمين على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ فكان إغفاله الغاء له فوجب أن يكون التقدير: ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها، على أن المراد بالمخالطتين توصلها إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل إلى حظه من الشهوة فلذلك كانت ﴿لَوْلَآ﴾ حقيقة بأن تعلق بهمّ بها وحده انتهى.

ولخصه البيضاوي في تفسيره حيث قال: المراد بهمه ﷺ ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشارفة الهم كقولك: قتلته لو لم أخف الله. انتهى.

ورد هذا القول بأنه مخالف لما ثبت في اللغة من معنى الهم وهو القصد إلى الفعل مع مقارنته ببعض الأعمال الكاشفة عن ذلك من حركة إلى الفعل المراد أو شروع في بعض مقدماته كمن يريد ضرب رجل فيقوم إليه، وأما مجرد ميل الطبع ومنازعة القوة الشهوانية فليس يسمى هماً البتة والهم بمعناه اللغوي مذموم لا ينبغي صدوره من نبي كريم، والطبع وإن كان غير مذموم لخروجه عن تحت التكليف لكنه لا يسمى هماً.

أقول: هذا إنما يصلح جواباً لقولهم: إن المراد بهمه ﷺ ميل الطبع ومنازعة الشهوة، وأما تجويزه أن يكون المراد بالهم الإشراف على الهم فلا، بل هو قول على حدة في معنى الآية وهو أن يفرق بين الهمين المذكورين فالمراد بهمها القصد العمدي إلى المخالطة وبهمه إشرافه ﷺ على الهم بها من دون تحقق للهم بالفعل والقرينة عليه هو وصفه تعالى إياه بما فيه مدح بالغ، ولو كان همه حقيقياً بالقصد العمدي إلى مخالطتها كان فعلاً مذموماً لا يتعلق به مدح أصلاً فمن هنا يعلم أن المراد بهمه ﷺ إشرافه على الهم لا الهم بالفعل.

والجواب: إنه معنى مجازي لا يصار إليه مع عدم إمكان الحمل على المعنى الحقيقي، وقد تقدم أنه بمكان من الإمكان.

على أن الذي ذكروه في معنى رؤيته برهان ربه وأن المراد بها الرجوع إلى الحجة العقلية القاضية بوجوب الانتهاء عن النواهي الشرعية والمحارم الإلهية معنى بعيد من اللفظ إذ الرؤية لا تستعمل إلا في الإبصار الحسي أو المشاهدة القلبية التي هي بمنزلتها أو أظهر منها، وأما مجرد التفكر العقلي فلا يسمى رؤية البتة.

٣ ـ ومن الأقوال في الآية: إن المراد بالهمين مختلف فهمّها هو قصدها مخالطته وهمه بها هو قصده أن يضربها للدفاع عن نفسه، والدليل على التفرقة بين الهمين شهادته تعالى على أنه من عباده المخلصين وقيام الحجة عقلاً على عصمة الأنبياء عليهم السلام.

قال في مجمع البيان: إن الهم في ظاهر الآية قد تعلق بما لا يصح تعلق العزم به على الحقيقة لأنه قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ فعلق الهم بهما وذاتاهما لا يجوز أن يراد ويعزم عليهما لأن الموجود الباقي لا يصح أن يراد ويعزم عليه فإذا حملنا الهم في الآية على العزم فلا بد من تقدير أمر محذوف يتعلق العزم به. وقد أمكن أن نعلق عزمه بغير القبيح، ونجعله متناولاً لضربها أو دفعها عن نفسه فكأن قال: ولقد همت بالفاحشة منه وأرادت ذلك وهمّ يوسف بضربها ودفعها عن نفسه كما يقال هممت بفلان أي بضربه وإيقاع مكروه به.

وعلى هذا فيكون معنى رؤية البرهان أن الله سبحانه أراه برهاناً على أنه إن أقدم على ما هم به أهلكه أهلها أو قتلوه أو ادعت عليه المراودة على القبيح وقذفته بأنه دعاها إليه وضربها لامتناعها منه، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء والفحشاء اللذين هما القتل وظن اقتراف الفاحشة به، ويكون التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك، ويكون جواب لولا محذوفاً كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ انتهى موضع الحاجة.

والجواب: إنه قول لا بأس به لكنه مبني على التفرقة بين الهمين وهو

خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن حملهما على معنى واحد وقد عرفت إمكان ذلك.

على أن لازمه أن يكون المراد بالبرهان الذي رآه ما يدل على أنه إن ضربها استتبع ذلك هلاكه أو مصيبة أخرى تصيبه ويكون المراد بالسوء والفحشاء القتل والتهمة ـ كما أشار إليه في المجمع ـ وهذا خلاف ما يستفاد من السياق قطعاً.

وأما ما ذكره في المجمع من عدم جواز إرادة العزم على المخالطة من الهمين معاً، ومحصله أن الهم إنما يتعلق بمن لا ينقاد للعازم الهام فيما يريده، وإذا فرض تحقق الهم من أحد الطرفين لم يصح تحققه مع ذلك من الطرف الآخر إذ لا معنى لتعلق الإرادة بالمريد والطلب من الطالب وبعث من هو مبعوث بالفعل.

ففيه أنه لا مانع من تحقق الهم من الطرفين إذا فرض تحققهما دفعة واحدة من دون سبق ولحوق أو قارن ذلك عناية زائدة كإنسانين يريدان الاقتراب والاجتماع فربما يثبت أحدهما ويتحرك إليه الآخر، وربما يتحركان ويقتربان ويتدليان معاً وجسمين يريدان الانجذاب والاتصال فربما يجذب أحدهما وينجذب إليه الآخر وربما يتجاذبان ويتدانيان.

٤ ـ **ومن الأقوال في الآية:** إن المراد بالهم في الموردين معاً الهم بالضرب والدفاع فهي لما راودته وردها بالامتناع والاستنكاف ثارت منها داعية الغضب والانتقام وهاج في باطنها الوجد الممزوج بالسخط والأسف فهمت به لتضربه على تمرده من امتثال ما أمرته به، وهو لما شاهد ذلك استعد للدفاع عن نفسه وضربها إن مّسته بسوء غير أن ضربه إياها ومقاومته لدفعها لما كان ربما يتهمه في أنه راودها عن نفسها ودعاها إلى الفحشاء أراه الله سبحانه بفضله برهاناً فهم منه ذلك وألهم أن يختار للدفاع عن نفسه سبيل الفرار فقصد باب البيت ليفتحه ويخرج من عندها فعقبته فاستبقا الباب.

ولا مساغ لحمل الهم على الهم بالمخالطة أما في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ فلأن الهم لا يكون إلا بفعل للهام، والوقاع ليس من أفعال المرأة

فتهم به، وإنما نصيبها منه قبولها لمن يطلبه منها بتمكينه منه. هذا أولاً.

على أن يوسف لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه هماً لها فإن نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضاً. وهذا ثانياً.

على أن ذلك لو وقع لكان الواجب في التعبير عنه أن يقال: ولقد هم بها وهمت به لأن الأول هو المقدم في الطبع والوضع وهو الهم الحقيقي، والهم الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه. وهذا ثالثاً.

على أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضى له، فإذن لا يصح أن يقال: إنها همت به مطلقاً حتى لو فرضت جدلاً أنه كان قبولاً لطلبه ومواتاة له إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه، وأما الهم بمعنى قصدها له بالضرب تأديباً فيصح ذلك فيه بأهون تقدير. وهذا رابعاً. انتهى ملخصاً مما أورده صاحب المنار في تفسيره.

والجواب: إنه يشارك القول السابق في معنى همه بها فيرد عليه ما أوردناه على سابقه، وأما ما يختص به أن المراد بهمها به قصدها إياه بضرب ونحوه فمما لا دليل عليه أصلاً، وأما مجرد اتفاق ذلك في بعض نظائر القصة فليس يوجب حمل الكلام عليه من غير قرينة تدل على ذلك.

وأما ما ذكره في استبعاد أن يراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ الهم على المخالطة أو عدم صحته فوجوه سخيفة جداً فإن من المعلوم أن هذه المخالطة تتألف عادة من حركات وسكنات شأن المرأة فيها الفعل دون الانفعال والعمل دون القبول فلو همت به بضم أو ما يناظره ليلتهب بذلك ما خمدت من نار غريزته الكامنة، وتلجئه إلى إجابتها فيما تريده منه صح أن يقال: إنها همت به أي بمخالطته وليس من الواجب همها به بقصدها خصوص ما هي قابلة له حتى لا يصح به إطلاق الهم عليه.

وأما ما ذكره أخيراً أنها كانت جازمة غير مترددة فلا يصح أن يراد بهمها الهم على ما تريده من المخالطة ففيه أنها إنما كانت جازمة في إرادتها منه وعزيمتها عليه، وأما في تحقق الفعل ووقوعه على ما قدرته فلا كيف؟

وقد شاهدت من يوسف الامتناع والإباء عن مراودتها، وإنما همت به لما قابلها بالاستنكاف ولا جزم لها مع ذلك بإجابته لها ومطاوعته لما أرادته منه وهو ظاهر.

٥ ـ **ومن الأقوال في الآية:** حمل الكلام على التقديم والتأخير ويكون التقدير: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولما رأى برهان ربه لم يهم بها، ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت لولا أني تداركتك، وقد كنت قتلت لولا أني خلصتك، والمعنى: لولا تداركي لهلكت ـ ولولا تخليصي لقتلت وإن كان لم يقع هلاك وقتل، ومثله قول الشاعر:

فلا تدعني قومي ليوم كريهة لئن لم أعجل ضربة أو أعجل

وفي القرآن الكريم: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ نسبه في المجمع إلى أبي مسلم المفسر.

والجواب: أنه إن كان المراد به ما ربما يقوله المفسرون: إن في القرآن تقديماً وتأخيراً فإنما ذلك فيما يكون هناك جمل متعددة بعضها متقدمة على بعضها بالطبع فأهمل النظم واكتفى بمجرد العدّ من غير ترتيب لعناية تعلقت به كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾[1] إنه من التقديم والتأخير، وأن التقدير: فبشرناها فضحكت وأما قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فالمعنى يختلف فيه بالتقديم والتأخير فهو إذا قدم كان هماً مطلقاً من غير تقييد لعدم جواز كونه جواباً للولا مقدماً عليها على ما ذكروه، وإذا أُخّر كان هماً مقيداً بالشرط.

وإن كان المراد أنه جواب للولا مقدم عليها فالنحاة لا يجوزونه قياساً على إن الشرطية ويؤولون ما سمع من ذلك، اللهم إلا أن يكون ذلك خلافاً منه لهم لعدم الدليل على هذا القياس، ولا موجب لتأويل ما ورد في الكلام مما ظاهره ذلك.

---

(١) هود: ٧١.

٦ ـ **ومن الأقوال في الآية:** ما ذكروا أنها أول ما همت به في منامها وهم بها لأنه رآها في منامه فعند ذلك علم أنها له فلذلك هم بها. أورده الغزالي في تفسيره قال: وهذا وجه حسن لأن الأنبياء كانوا معصومين لا يقصدون المعاصي. انتهى.

والجواب أنه إن أُريد به أن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ حكاية ما رآه يوسف عليه السلام في المنام فهو تحكم لا دليل عليه من جهة اللفظ البتة، وإن أُريد به أنه عليه السلام رآها في المنام وهم بها فيه، واعتقد من هناك أنها له وخاصة بناء على أن رؤيا الأنبياء وحي، ثم هم بها في اليقظة في مجلس المراودة بالمضي على اعتقاده فيها فأدركته رؤية برهان من ربه يبين له أنه قد أخطأ في زعمه ففيه إثبات خطأ الأنبياء في تلقي الوحي، وليس ذلك بأقلّ محذوراً من تجويز إقدامهم على المعاصي.

على أن الآية السابقة ـ وقد عدّ فيها المخالطة ظلماً لا يفلح صاحبه واستعاذ بالله منه ـ تناقض ذلك فكيف يزعم أنها له وهو يعده ظلماً ويستعيذ منه بالله سبحانه؟.

فهذه عمدة الأقوال في الآية وهي مع ما قدمناه أولاً ترتقي إلى سبعة أو ثمانية، وقد علمت أن معنى رؤية البرهان يختلف بحسب اختلاف الأقوال فمن قائل إنه سبب يقيني شاهده يوسف عليه السلام، ومن قائل إنه الآيات والأمور التي ظهرت له فردعته عن اقتراف الخطيئة، ومن قائل إنه العلم بحرمة الزنا وعذابه، ومن قائل إنه ملكة العفة، ومن قائل إنه العصمة والطهارة وقد عرفت ما هو الحق منها[1]...

قصة يوسف عليه السلام في ضوء الروايات

في المعاني بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: صليت مع علي بن الحسين عليهما السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة فلما فرغ من صلاته وتسبيحه نهض إلى منزله وأنا معه فدعا مولاة له تسمى سكينة فقال لها: لا

(١) انظر هذه الأبحاث في المجلد الحادي عشر صفحة ١٢٨ من الميزان.

يعبر على بابي سائل إلا أطعمتموه فإن اليوم يوم الجمعة.

قلت: ليس كل من يسأل مستحقاً فقال: يا ثابت أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقاً فلا نطعمه، ونرده فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله أطعموهم.

إن يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً فيتصدق به ويأكل هو وعياله منه، وإن سائلاً مؤمناً صواماً محقاً له عند الله منزلة ـ وكان مجتازاً غريباً اعتر على باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم. يهتف بذلك على بابه مراراً قد جهلوا حقه ولم يصدقوا قوله. فلما أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكى جوعه إلى الله وبات طاوياً وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم من فضل طعامهم.

قال: فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت يا يعقوب عبدي ذلة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك يا يعقوب إن أحب أنبيائي إلي وأكرمهم علي من رحم مساكين عبادي وقربهم إليه وأطعمهم وكان لهم مأوى وملجأ.

يا يعقوب ما رحمت دميال عبدي المجتهد في عبادته القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس لما اعترّ عند أوان إفطاره ويهتف بكم: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئاً فاسترجع واستعبر وشكى ما به إلي وبات جائعاً وطاوياً حامداً وأصبح لي صائماً وأنت يا يعقوب وولدك شباع وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم.

أو ما علمت يا يعقوب أن العقوبة والبلوى إلى أولياني أسرع منها إلى أعدائي؟ وذلك حسن النظر مني لأوليائي واستدراج مني لأعدائي أما وعزتي لأنزلن بك بلواي، ولأجعلنك وولدك غرضاً لمصابي، ولأؤدبنك بعقوبتي فاستعدوا لبلواي وارضوا بقضائي واصبروا للمصائب.

فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤيا؟

فقال: في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً، وبات فيها دميال طاوياً فلما رأى يوسف الرؤيا وأصبح يقصها على أبيه يعقوب اغتم يعقوب لما سمع من يوسف وبقي مغتماً فأوحى الله إليه أن استعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف: لا تقصص رؤياك على إخوتك فإني أخاف أن يكيدوا لك كيداً فلم يكتم يوسف رؤياه وقصها على إخوته.

قال علي بن الحسين عليه السلام: إن أول بلوى نزل ببيعقوب وآل يعقوب الحسد ليوسف لما سمعوا منه الرؤيا. قال: فاشتدت رقة يعقوب على يوسف وخاف أن يكون ما أوحى الله عزّ وجلّ إليه من الاستعداد للبلاء إنما هو في يوسف خاصة فاشتدت رقته عليه من بين ولده.

فلما رأى إخوة يوسف ما يصنع يعقوب بيوسف، وتكرمته إياه، وإيثاره إياه عليهم اشتد ذلك عليهم وبدا البلاء فيهم فتآمروا فيما بينهم و﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أي تتوبون.

فعند ذلك: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾ فقال يعقوب: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ فانتزعه مقدراً حذراً عليه منه أن يكون البلوى من الله عزّ وجلّ على يعقوب من يوسف خاصة لموقعه في قلبه وحبه له.

قال: فغلب قدرة الله وقضاؤه ونافذ أمره في يعقوب ويوسف وإخوته فلم يقدر يعقوب على دفع البلاء عن نفسه ولا يوسف وولده، فدفعه إليهم وهو لذلك كاره متوقع البلوى من الله في يوسف. فلما خرجوا من منزلهم لحقهم مسرعاً فانتزعه من أيديهم وضمه إليه واعتنقه وبكى ودفعه إليهم فانطلقوا به مسرعين مخافة أن يأخذه منهم ولا يدفعه إليهم فلما أمعنوا به أتوا به غيضة أشجار فقالوا: نذبحه ونلقيه تحت هذه الشجرة فيأكله الذئب الليلة فقال كبيرهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ ولكن ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

فانطلقوا به إلى الجب فألقوه فيه وهم يظنون أنه يغرق فيه فلما صار

في قعر الجب ناداهم: يا ولد رومين أقرئوا يعقوب السلام مني فلما رأوا كلامه قال بعضهم لبعض: لا تزولوا من ههنا حتى تعملوا أنه قد مات فلم يزالوا بحضرته حتى أيسوا ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾.

فلما سمع مقالتهم استرجع واستعبر وذكر ما أوحى الله عزّ وجلّ إليه من الاستعداد للبلاء فصبر وأذعن للبلوى وقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وما كان الله ليطعم لحم يوسف الذئب من قبل أن أرى تأويل رؤياه الصادقة.

قال أبو حمزة: ثم انقطع حديث علي بن الحسين عليه السلام عند هذا.

قال أبو حمزة: فلما كان من الغد غدوت إليه وقلت له: جعلت فداك إنك حدثتني أمس بحديث ليعقوب وولده ثم قطعته فما كان من قصة إخوة يوسف وقصة يوسف بعد ذاك؟ فقال: إنهم لما أصبحوا قالوا: انطلقوا بنا حتى ننظر ما حال يوسف: أمات أم هو حي؟ فلما انتهوا إلى الجب وجدوا بحضرة الجب سيارة وقد أرسلوا واردهم فأدلى دلوه فإذا جذب دلوه فإذا هو غلام معلق بدلوه فقال لأصحابه: يا بشرى هذا غلام فلما أخرجوه أقبل إليهم يوسف فقالوا: هذا عبدنا سقط منا أمس في هذا الجب وجئنا اليوم لنخرجه فانتزعوه من أيديهم ونحوا به ناحية فقالوا له: إما أن تقر لنا أنك عبد لنا فنبيعك بعض السيارة أو نقتلك فقال لهم يوسف: لا تقتلوني واصنعوا ما شئتم.

فأقبلوا به إلى السيارة فقالوا: من يشتري منكم هذا العبد منا؟ فاشتراه رجل منهم بعشرين درهماً وكان إخوته فيه من الزاهدين وسار به الذي اشتراه من البدو حتى أدخله مصر فباعه الذي اشتراه من البدو من ملك مصر وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

قال أبو حمزة: فقلت لعلي بن الحسين عليه السلام: ابن كم كان يوسف يوم ألقوه في الجب؟ فقال: ابن تسع سنين فقلت: كم كان بين منزل يعقوب يومئذٍ وبين مصر فقال: مسيرة اثني عشر يوماً.

قال عليه السلام: وكان يوسف من أجمل أهل زمانه فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه فقال: معاذ الله إنا أهل بيت لا يزنون فغلقت الأبواب عليها وعليه وقالت: لا تخف وألقت نفسها عليه فأفلت منها هارباً إلى الباب ففتحه فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فأخرجته منه فأفلت يوسف منها في ثيابه فألفيا سيدها لدى الباب قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

قال: فهم الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف: ما أردت بأهلك سوءاً بل هي راودتني عن نفسي فسل هذا الصبي أينا راود صاحبه عن نفسه؟ قال: كان عندها من أهلها صبي زائر لها فأنطق الله الصبي لفصل القضاء فقال: أيها الملك انظر إلى قميص يوسف فإن كان مقدوداً من قدامه فهو الذي راودها، وإن كان مقدوداً من خلفه فهي التي راودته.

فلما سمع الملك كلام الصبي وما اقتصه أفزعه ذلك فزعاً شديداً فجيء بالقميص فنظر إليه فلما رآه مقدوداً من خلفه قال لها: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. وقال ليوسف: أعرض عن هذا ولا يسمعه منك أحد واكتمه.

قال: فلم يكتمه يوسف وأذاعه في المدينة حتى قلن نسوة منهن: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه فبلغها ذلك فأرسلت إليهن، وهيأت لهن طعاماً ومجلساً ثم أتتهن باترنج وآتت كل واحدة منهن سكيناً ثم قالت ليوسف: أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن ما قلن يعني النساء فقالت لهن: هذا الذي لمتنني فيه تعني في حبه. وخرجن النسوة من تحتها فأرسلت كل واحدة منهن إلى يوسف سراً من صاحبتها تسأله الزيارة فأبى عليهن وقال: إلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين وصرف الله عنه كيدهن.

فلما شاع أمر يوسف وامرأة العزيز والنسوة في مصر بدا للملك بعد ما سمع قول الصبي ليسجنن يوسف فسجنه في السجن ودخل السجن مع يوسف فتيان، وكان من قصتهما وقصة يوسف ما قصه الله في الكتاب. قال أبو حمزة: ثم انقطع حديث علي بن الحسين عليه السلام.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: الأنبياء على خمسة أنواع منهم من يسمع الصوت مثل صوت السلسلة فيعلم ما عني به، ومنهم من ينبأ في منامه مثل يوسف وإبراهيم عليهما السلام، ومنهم من يعاين، ومنهم من نكت (ينكت ظ) في قلبه ويوقر في أذنه.

وفيه عن أبي خديجة عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما ابتلي يعقوب بيوسف أنه ذبح كبشاً سميناً ورجل من أصحابه يدعى بيوم «بقوم» محتاج لم يجد ما يفطر عليه فأغفله ولم يطعمه فابتلي بيوسف، وكان بعد ذلك كل صباح مناديه ينادي: من لم يكن صائماً فليشهد غداء يعقوب، فإذا كان المساء نادى من كان صائماً فليشهد عشاء يعقوب.

وفي تفسير القمي قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: لا يشعرون أنك أنت يوسف. أتاه جبرئيل وأخبره بذلك. وفيه وفي رواية أبي الجارود في قول الله: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال: إنهم ذبحوا جدياً على قميصه.

وفي أمالي الشيخ بإسناده في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: بلا شكوى.

أقول: وكأن الرواية عن الصادق عليه السلام بقرينة كونه مسبوقاً بحديث عنه، وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن حيان بن جبلة عن النبي ﷺ[1].

وفي العيون بإسناده عن حمدان عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون: قال: بلى ـ وذكر

(١) انظر المجلد ١١ ص ١١٥.

الحديث إلى أن قال فيه: (قال ظ) فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فقال الرضا عليه السلام: لقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها لكنه كان معصوماً، والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه.

ولقد حدثني أبي عن أبيه الصادق عليه السلام أنه قال: همت بأن تفعل وهم بأن لا يفعل فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن.

وفيه بإسناده عن أبي الصلت الهروي قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات من أهل الإسلام ومن الديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وسائر أهل المقالات فلم يقم أحد إلا وقد ألزمه حجته كأنه ألقم حجراً.

قام إليه علي بن محمد بن الجهم فقال: يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ فقال: نعم. فقال له: فما تقول في قوله عزّ وجلّ في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾؟ فقال له: أما قوله تعالى في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ فإنها همت بالمعصية وهم يوسف بقتلها إن أجبرته لعظيم ما تداخله فصرف الله عنه قتلها والفاحشة. وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ والسوء القتل والفحشاء والزنا.

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها، وكان من الطمع أن همّ بحل التكة فقامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه فقال: أي شيء تصنعين؟ فقالت: أستحيي من إلهي أن يراني على هذه الصورة فقال يوسف عليه السلام: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب، ولا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تنالينها مني أبداً. وهو البرهان الذي رأى.

أقول: والرواية من الموضوعات كيف؟ وكلامه وكلام سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام مشحون بذكر عصمة الأنبياء ومذهبهم في ذلك مشهور.

على أن سترها الصنم وانتقاله من ذلك إلى ما ذكره لها من الحجة لا يعد من رؤية البرهان، وقد ورد هذا المعنى في عدة روايات من طرق أهل البيت عليهم السلام لكنها آحاد لا تعويل عليها. نعم لا يبعد أن تقوم المرأة إلى ستر صنم كان هناك فتنزع نفس يوسف عليه السلام إلى مشاهدة آية التوحيد عند ذلك فيرتفع الحجاب بينه وبين ساحة الكبرياء فيرى ما يصرفه عن كل سوء وفحشاء كما كان له ذلك من قبل، وقد قال تعالى في حقه: إنه من عبادنا المخلصين. فإن صح شيء من هذه الروايات فليكن هذا معناه.

وفيه: أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: حين همّ بها فسجن، وحين قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فلبث في السجن بضع سنين فأنساه الشيطان ذكر ربه. وحين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.

أقول: والرواية تخالف صريح كلامه تعالى حيث يذكر أن الله اجتباه وأخلصه لنفسه وأن الشيطان لا سبيل له إلى من أخلصه الله لنفسه وكيف يستقيم لمن همّ على أفحش معصية وأنساه الشيطان ذكر ربه ثم كذب في مقاله فعاقبه الله بالسجن ثم بلبثه فيه بضع سنين وجبه بالسرقة أن يعده الله صديقاً من عباده المخلصين والمحسنين، ويذكر أنه آتاه الحكم والعلم واجتباه وأتم عليه نعمته، وعلى هذا السبيل روايات جمة رواها في الدر المنثور... ولا تعويل على شيء منها.

وفيه أخرج أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم.

وفي تفسير القمي قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ يقول: قد حجبها حبه عن الناس فلا تعقل غيره، والحجاب هو الشغاف، والشغاف هو حجاب القلب.

وفيه في حديث جمعها النسوة وتقطيعهن أيديهن قال: فما أمسى يوسف عليه السلام في ذلك اليوم حتى بعثت إليه كل امرأة رأته تدعوه إلى نفسها

فضجر يوسف في ذلك اليوم فقال: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن. الحديث[1].

(١) انظر المجلد ١١ ص ١٦٨.

قصة أيوب عليه السلام

٧ ـ قصته في القرآن:

لم يذكر من قصته في القرآن إلا ابتلاؤه بالضر في نفسه وأولاده ثم تفريجه تعالىٰ بمعافاته وإيتائه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى للعابدين «الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤. ص ٤١ ـ ٤٤».

٢ ـ جميل ثنائه:

ذكره تعالى في زمرة الأنبياء من ذرية إبراهيم عليهم السلام في سورة الأنعام وأثنى عليهم بكل ثناء جميل «الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠» وذكره في سورة ص فعده صابراً ونعم العبد وأواباً «ص: ٤٤».

٣ ـ قصته في الروايات:

في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن فضّال عن عبد الله بن بحر عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن بلية أيوب التي ابتلي بها في الدنيا لأي علة كانت؟ قال: لنعمة أنعم الله عزّ وجلّ عليه بها في الدنيا وأدى شكرها وكان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس دون العرش فلما صعد ورأى شكر نعمة أيوب حسده إبليس.

فقال: يا رب إن أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمة إلا بما أعطيته من الدنيا ولو حرمته دنياه ما أدى إليك شكر نعمة أبداً فسلطني على دنياه حتى تعلم أنه لم يؤد إليك شكر نعمة أبداً فقيل له: قد سلطتك على ماله وولده.

قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالاً ولا ولداً إلا أعطبه فازداد أيوب

لله شكراً وحمداً، وقال: فسلطني على زرعه يا رب. قال: قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب لله شكراً وحمداً فقال: يا رب سلطني على غنمه فأهلكها فازداد أيوب لله شكراً وحمداً.

فقال: يا رب سلّطني على بدنه فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينيه فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه فبقي في ذلك دهراً طويلاً يحمد الله ويشكره حتى وقع في بدنه الدود فكانت تخرج من بدنه فيردها فيقول لها: ارجعي إلى موضعك الذي خلقك الله منه، ونتن حتى أخرجه أهل القرية من القرية وألقوه في المزبلة خارج القرية.

وكانت امرأته رحمة بنت أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وعليها تتصدق من الناس وتأتيه بما تجده.

قال: فلما طال عليه البلاء ورأى إبليس صبره أتى أصحاباً لأيوب كانوا رهباناً في الجبال وقال لهم: مرّوا بنا إلى هذا العبد المبتلى فنسأله عن بليته فركبوا بغالاً شهباً وجاؤوا فلما دنوا منه نفرت بغالهم من نتن ريحه فنظر بعضهم إلى بعض ثم مشوا إليه وكان فيهم شاب حدث السن فقعدوا إليه فقالوا: يا أيوب لو أخبرتنا بذنبك لعل الله يهلكنا إذا سألناه، وما نرى ابتلاءك بهذا البلاء الذي لم يبتل به أحد إلا من أمر كنت تستره.

فقال أيوب: وعزة ربي إنه ليعلم أني ما أكلت طعاماً إلا ويتيم أو ضعيف يأكل معي، وما عرض لي أمران كلاهما طاعة لله إلا أخذت بأشدهما على بدني. فقال الشاب: سوأة لكم عيرتم نبي الله حتى أظهر من عبادة ربه ما كان يسترها.

فقال أيوب: يا رب لو جلست مجلس الحكم منك لأدليت بحجتي فبعث الله إليه غمامة فقال: يا أيوب أدل بحجتك فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنا ذا قريب ولم أزل.

فقال: يا رب إنك لتعلم أنه لم يعرض لي أمران قط كلاهما لك طاعة إلا أخذت بأشدهما على نفسي. ألم أحمدك؟ ألم أشكرك؟ ألم أسبحك؟

قال: فنودي من الغمامة بعشرة آلاف لسان: يا أيوب من صيرك تعبد الله والناس عنه غافلون؟ وتحمده وتسبحه وتكبّره والناس عنه غافلون؟ أتمن

على الله بما لله فيه المنة عليك؟ قال: فأخذ التراب ووضعه في فيه ثم قال: لك العتبى يا رب أنت فعلت ذلك بي.

فأنزل الله عليه ملكاً فركض برجله فخرج الماء فغسله بذلك الماء فعاد أحسن ما كان وأطرأ، وأنبت الله عليه روضة خضراء، وردّ عليه أهله وماله وولده وزرعه وقعد معه الملك يحدثه ويؤنسه.

فأقبلت امرأته معها الكسرة فلما انتهت إلى الموضع إذا الموضع متغير وإذا رجلان جالسان فبكت وصاحت وقالت: يا أيوب ما دهاك؟ فناداها أيوب فأقبلت فلما رأته وقد رد الله عليه بدنه ونعمه سجدت لله شكراً. فرأى ذؤابتها مقطوعة وذلك أنها سألت قوماً أن يعطوها ما تحمله إلى أيوب من الطعام وكانت حسنة الذوائب فقالوا لها: تبيعينا ذؤابتك هذه حتى نعطيك؟ فقطعتها ودفعتها إليهم وأخذت منهم طعاماً لأيوب، فلما رآها مقطوعة الشعر غضب وحلف عليها أن يضربها مائة فأخبرته أنه كان سببه كيت وكيت. فاغتم أيوب من ذلك فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ فأخذ عذقاً مشتملاً على مائة شمراخ فضربها ضربة واحدة فخرج من يمينه.

أقول: وروي عن ابن عباس ما يقرب منه: وعن وهب أن امرأته كانت بنت ميشا بن يوسف، والرواية ـ كما ترى ـ تذكر ابتلاءه بما تتنفر عنه الطباع وهناك من الروايات ما يؤيد ذلك لكن بعض الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ينفي ذلك وينكره أشد الإنكار كما يأتي.

وعن الخصال: القطان عن السكري عن الجوهري عن ابن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام قال: إن أيوب عليه السلام ابتلي سبع سنين من غير ذنب وإن الأنبياء لا يذنبون لأنهم معصومون مطهّرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً.

وقال: إن أيوب من جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ولا استقذره أحد رآه، ولا استوحش منه أحد شاهده، ولا تدوّد شيء من جسده وهكذا يصنع الله عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه.

وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بما له عند ربه تعالى ذكره من التأييد والفرج، وقد قال النبي ﷺ أعظم بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

وإنما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس لئلا يدّعوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه، وليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله على ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه ولا فقيراً لفقره ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنه يسقم من يشاء، ويشفي من يشاء متى شاء كيف شاء بأي سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء، وشقاوة لمن شاء، وسعادة لمن شاء، وهو عزّ وجلّ في جميع ذلك عدل في قضائه وحكيم في أفعاله لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلا به.

وفي تفسير القمي في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ الآية قال: فرد الله عليه أهله الذين ماتوا قبل البلاء، ورد عليه أهله الذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء كلهم أحياهم الله له فعاشوا معه.

وسئل أيوب بعد ما عافاه الله: أي شيء كان أشد عليك مما مر؟ فقال: شماتة الأعداء.

وفي المجمع في قوله تعالىٰ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الآية قيل: إنه اشتد مرضه حتى تجنبه الناس فوسوس الشيطان إلى الناس أن يستقذروه ويخرجوه من بينهم ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم فكان أيوب يتأذى بذلك ويتألم به ولم يشك الألم الذي كان من أمر الله سبحانه. قال قتادة: دام ذلك سبع سنين وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام...[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد السابع عشر صفحة ٢١٣ من الميزان.

قصة شعيب عليه السلام وقومه

في فصول:

١ ـ شعيب ثالث الرسل:

من العرب الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن وهم هود وصالح وشعيب ومحمّد ﷺ ذكر الله تعالى طرفاً من قصصه في سور الأعراف وهود والشعراء والقصص والعنكبوت.

كان عليه السلام من أهل مدين ـ مدينة في طريق الشام من الجزيرة ـ وكان معاصراً لموسى عليه السلام، وقد زوّجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج وإن أتم عشراً فمن عنده فخدمه موسى عشر سنين ثم ودعه وسار بأهله إلى مصر.

وكان قومه من أهل مدين يعبدون الأصنام وكانوا قوماً منعمين بالأمن والرفاهية والخصب ورخص الأسعار فشاع الفساد بينهم والتطفيف بنقص المكيال والميزان فأرسل الله إليهم شعيباً وأمره أن ينهاهم عن عبادة الأصنام وعن الفساد في الأرض ونقص المكيال والميزان فدعاهم إلى ما أُمر به ووعظهم بالإنذار والتبشير وذكّرهم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط.

وبالغ عليه السلام في الاحتجاج عليهم وعظتهم فلم يزدهم إلا طغياناً وكفراً وفسوقاً ولم يؤمنوا به إلا عدة قليلة منهم فأخذوا في إيذائهم والسخرية بهم وتهديدهم عن اتباع شعيب عليه السلام، وكانوا يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدّون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجاً.

وأخذوا يرمونه عليه السلام بأنه مسحور وأنه كاذب وأخافوه بالرجم، وهددوه

والذين آمنوا به بالإخراج من قريتهم أو ليعودنّ في ملّتهم ولم يزالوا به حتى أيأسوه من إيمانهم فتركهم وأنفسهم ودعا الله بالفتح قال: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

فأرسل الله إليهم عذاب يوم الظّلة وقد كانوا يستهزئون به أن أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين وأخذتهم الصيحة والرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

ونجّى شعيباً ومن معه من المؤمنين فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين.

٢ ـ شخصيته المعنوية:

كان عليه السلام من زمرة الرسل المكرمين وقد أشركه الله تعالى فيما أثناهم به من الثناء الجميل في كتابه، وقد حكى عنه فيما كلم به قومه وخاصة في سور الأعراف وهود والشعراء شيئاً كثيراً من حقائق المعارف والعلوم الإلهية والأدب البارع مع ربه ومع الناس. وقد سمى نفسه الرسول الأمين ومصلحاً وأنه من الصالحين فحكى الله ذلك عنه حكاية إمضاء، وقد خدمه الكليم موسى بن عمران عليه السلام زهاء عشر سنين سلام الله عليه.

٣ ـ ذكره في التوراة:

لم تقصّ التوراة قصته مع قومه وإنما أشارت إليه في ضمن ما ذكرت قصة قتل موسى القبطي وفراره من مصر إلى مديان (القصة) فسمّته «رعوئيل كاهن مديان»...[1]

(١) انظر هذه القصة في المجلد العاشر صفحة ٣٦٦ من الميزان.

قصص موسىٰ وهارون عليهما السلام

١ ـ منزلة موسىٰ عند الله وموقفه العبودي:

كان عليه السلام أحد الخمسة أُولي العزم الذين هم سادة الأنبياء ولهم كتاب وشريعة كما خصهم الله تعالىٰ بالذكر في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[1] وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[2]. ولقد امتنّ الله سبحانه عليه وعلى أخيه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤﴾[3] وسلّم عليهما في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠﴾[4].

وأثنىٰ على موسىٰ عليه السلام بأجمل الثناء في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[5]، وقال: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾[6]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[7].

وذكره في جملة من ذكرهم من الأنبياء في سورة الأنعام الآيات ٨٤ ـ ٨٨ فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين وأنه فضّلهم على العالمين واجتباهم

---

(١) الأحزاب: ٧.
(٢) الشورىٰ: ١٣.
(٣) الصافات: ١١٤.
(٤) الصافات: ١٢٠.
(٥) مريم: ٥٢.
(٦) الأحزاب: ٦٩.
(٧) النساء: ١٦٤.

وهداهم إلى صراط مستقيم. وذكره في جملة الأنبياء في سورة مريم ثم ذكر في الآية ٥٨ منها أنهم الذين أنعم الله عليهم.

فاجتمع بذلك له عليه السلام معنى الإخلاص والتقريب والوجاهة والإحسان والصلاح والتفضيل والاجتباء والهداية والإنعام.

وذكر الكتاب النازل عليه وهو التوراة فوصفها بأنها إمام ورحمة[1] وبأنها فرقان وضياء وذكر[2] وبأن فيها هدىً ونور[3] وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[4].

غير أنه تعالىٰ ذكر في مواضع من كلامه أنهم حرّفوها واختلفوا فيها، وقصة بختنصّر وفتحه فلسطين ثانياً وهدمه الهيكل وإحراقه التوراة وحشره اليهود إلى بابل سنة خمسمائة وثمان وثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملك بابل سنة خمسمائة وثمان وثلاثين قبل المسيح وإذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانياً وكتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ.

٢ ـ قصص موسىٰ عليه السلام في القرآن:

هو عليه السلام أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم فقد ذكر اسمه ـ على ما عدّوه ـ في مائة وستة وستين موضعاً من كلامه تعالىٰ، وأُشير إلى قصته إجمالاً أو تفصيلاً في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن، وقد اختص من بين الأنبياء بكثرة المعجزات، وقد ذكر في القرآن شيء كثير من معجزاته الباهرة كصيرورة عصاه ثعباناً واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع والدم، وفلق البحر، وإنزال المنّ والسلوىٰ، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، وإحياء الموتى، ورفع الطور فوق القوم وغير ذلك.

وقد ورد في كلامه تعالىٰ طرف من قصصه عليه السلام من دون استيفائها في كل ما دقّ وجلّ بل بالاقتصار على فصول منها يهمّ ذكرها لغرض الهداية

---

(١) الأحقاف: ١٢.
(٢) الأنبياء: ٤٨.
(٣) المائدة: ٤٤.
(٤) الأعراف: ١٤٥.

والإرشاد على ما هو دأب القرآن الكريم في الإشارة إلى قصص الأنبياء وأممهم.

وهذه الفصول التي فيها كليات قصصه ﷺ هي: أنه تولّد بمصر في بيت إسرائيلي حينما كانوا يذبحون المواليد الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون وجعلت أمه إياه في تابوت وألقته في البحر وأخذ فرعون إياه ثم ردّه إلى أمه للإرضاع والتربية ونشأ في بيت فرعون. ثم بلغ أشدّه وقتل القبطي وهرب من مصر إلى مدين خوفاً من فرعون وملئه أن يقتلوه قصاصاً.

ثم مكث في مدين عند شعيب النبي ﷺ وتزوّج إحدىٰ بنتيه.

ثم لما قضىٰ موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً وقد ضلّوا الطريق في ليلة شاتية فأوقفهم مكانهم وذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يجد على النار هدىً فلما أتاها ناداه الله من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة وكلّمه واجتباه وآتاه معجزة العصا واليد البيضاء في تسع آيات واختاره للرسالة إلى فرعون وملئه وإنجاء بني إسرائيل وأمره بالذهاب إليه.

فأتىٰ فرعون ودعاه إلى كلمة الحق وأن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذبهم وأراه آية العصا واليد البيضاء فأبىٰ وعارضه بسحر السحرة وقد جاءوا بسحر عظيم من ثعابين وحيّات فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون وأصرَّ فرعون على جحوده وهدد السحرة ولم يؤمن.

فلم يزل موسى ﷺ يدعوه وملأه ويريهم الآية بعد الآية كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وهم يصرون على استكبارهم وكلما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون.

فأمره الله أن يسري بني إسرائيل ليلاً فساروا حتى بلغوا ساحل البحر

فعقّبهم فرعون بجنوده فلما تراءى الفريقان قال أصحاب موسىٰ إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهديني فأمر بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر وأتبعهم فرعون وجنوده حتىٰ إذا ادّاركوا فيها جميعاً أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم عن آخرهم.

ولما أنجاهم الله من فرعون وجنوده وأخرجهم إلى البر ولا ماء فيه ولا كلاء أكرمهم الله فأنزل المنّ والسلوىٰ وأمر موسىٰ فضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أُناس مشربهم فشربوا منها وأكلوا منهما وظلّلهم الغمام.

ثم واعد الله موسىٰ أربعين ليلة لنزول التوراة بجبل الطور فاختار قومه سبعين رجلاً ليسمعوا تكليمه تعالىٰ إياه فسمعوا ثم قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ثم أحياهم الله بدعوة موسىٰ، ولما تمّ الميقات أنزل الله عليه التوراة وأخبره أن السامري قد أضلّ قومه بعده فعبدوا العجل.

فرجع موسىٰ إلى قومه غضبان أسفاً فأحرق العجل ونسفه في اليم وطرد السامري وقال له: اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وأما القوم فأُمروا أن يتوبوا ويقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثم استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتى رفع الله الطور فوقهم.

ثم إنهم ملّوا المن والسلوىٰ وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها فأُمروا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبوا فحرمها الله عليهم وابتلاهم بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنة.

ومن قصص موسىٰ عليه السلام ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيه مع فتاه إلى مجمع البحرين للقاء العبد الصالح وصحبته حتى فارقه.

٣ ـ منزلة هارون عليه السلام عند الله وموقفه العبودي:

أشركه الله تعالىٰ مع موسىٰ عليه السلام في سورة الصافات في المن وإيتاء

الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم وفي التسليم وأنه من المحسنين ومن عباده المؤمنين[1] وعده مرسلاً[2] ونبياً[3] وأنه ممن أنعم عليهم[4] وأشركه مع من عدهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان والصلاح والفضل والاجتباء والهداية[5].

وفي دعاء موسىٰ ليلة الطور: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَارُونَ أَخِي ۝ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[6].

وكان عليه السلام ملازماً لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامة أمره ويعينه على جميع مقاصده.

ولم يرد في القرآن الكريم مما يختص به من القصص إلا خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للميقات وقال لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولما رجع موسىٰ إلى قومه غضبان أسفاً وقد عبدوا العجل ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين.

٤ ـ قصة موسىٰ عليه السلام في التوراة الحاضرة:

قصصه عليه السلام موضوعة فيما عدا السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة وهي: سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية تذكر فيها

---

(١) الصافات: ١١٤، ١٢٢.
(٢) طه: ٤٧.
(٣) مريم: ٥٣.
(٤) مريم: ٥٨.
(٥) الأنعام: ٨٤، ٨٨.
(٦) طه: ٣٥.

تفاصيل قصصه ﷺ من حين ولادته إلى حين وفاته وما أوحي إليه من الشرائع والأحكام، غير أن فيها اختلافات في سرد القصة مع القرآن في أمور غير يسيرة. ومن أهمها أنها تذكر أن نداء موسىٰ وتكليمه من الشجرة كان في أرض مدين قبل أن يسير بأهله وذلك حين كان يرعىٰ غنم يثرون حميه كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فناداه الله وكلّمه بما كلّمه وأرسله إلى فرعون لإنجاء بني إسرائيل.

ومنها ما ذكرت أن فرعون الذي أُرسل إليه موسىٰ غير فرعون الذي أخذ موسىٰ وربّاه ثم هرب منه موسىٰ لمّا قتل القبطي خوفاً من القصاص.

ومنها أنها لم تذكر إيمان السحرة لمّا ألقوا عصيّهم فصارت حيّات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون وعارضوا موسىٰ في آيتي الدم والضفادع فأتوا بسحرهم مثل ما أتىٰ به موسىٰ ﷺ معجزة.

ومنها أنها تذكر أن الذي صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبي أخو موسىٰ ﷺ وذلك أنه لمّا رأى الشعب أن موسىٰ أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا (موسىٰ) الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وائتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل فصنعه عجلاً مسبوكاً فقالوا أهذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. وفي الآيات القرآنية تعريضات للتوراة في هذه المواضع من قصصه ﷺ غير خفيّة على المتدبر فيها.

وهناك اختلافات جزئية كثيرة كما وقع في التوراة في قصة قتل القبطي أن المتضاربين ثانياً كانا جميعاً إسرائيليين. وأيضاً وقع فيها أن الذي ألقى العصا فتلقفت حيّات السحرة هو هارون ألقاها بأمر موسىٰ. وأيضاً لم تذكر فيها قصة انتخاب السبعين رجلاً للميقات ونزول الصاعقة عليهم وإحياءهم بعده.

وأيضاً فيها أن الألواح التي كانت مع موسىٰ لمّا نزل من الجبل وألقاها كانت لوحين من حجر وهما لوحا الشهادة. إلى غير ذلك من الاختلافات...[1].

(١) انظر المجلد السادس عشر ص ٤١.

موسىٰ والخضر من نظرة تاريخية

في ثلاثة فصول:

١ ـ قصة موسى والخضر في القرآن:

أوحى الله سبحانه إلى موسىٰ أن هناك عبداً من عباده عنده من العلم ما ليس عند موسىٰ وأخبره أنه إن انطلق إلى مجمع البحرين وجده هناك، وهو بالمكان الذي يحيى فيه الحوت الميت. (أو يفتقد فيه الحوت).

فعزم موسىٰ أن يلقى العالم ويتعلم منه بعض ما عنده إن أمكن وأخبر فتاه عما عزم عليه فخرجا قاصدين مجمع البحرين وقد حملا معهما حوتاً ميتاً وذهبا حتى بلغا مجمع البحرين وقد تعبا وكانت هناك صخرة على شاطىء البحر فأويا إليها ليستريحا هنيئة وقد نسيا حوتهما وهما في شغل منه. وإذا بالحوت اضطرب ووقع في البحر حياً، أو وقع فيه وهو ميت، وغار فيه والفتىٰ يشاهده ويتعجب من أمره غير أنه نسي أن يذكره لموسىٰ حتى تركا الموضع وانطلقا حتى جاوزا مجمع البحرين وقد نصبا فقال له موسىٰ: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. فذكر الفتىٰ ما شاهده من أمر الحوت، وقال لموسىٰ: إنا إذ أوينا إلى الصخرة حيَّ الحوت ووقع في البحر يسبح فيه حتى غار وكنت أُريد أن أذكر لك أمره لكن الشيطان أنسانيه (أو إني نسيت الحوت عند الصخرة فوقع في البحر وغار فيه).

قال موسىٰ: ذلك ما كنا نبغي ونطلب فلنرجع إلى هناك فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدا عبداً من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه علماً من لدنه فعرض عليه موسىٰ وسأله أن يتبعه فيعلمه شيئاً ذا رشد مما علمه الله. قال العالم: إنك لن تستطيع معي صبراً على ما تشاهده من أعمالي

التي لا علم لك بتأويلها. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ فوعده موسىٰ أن يصبر ولا يعصيه في أمر إن شاء الله فقال له العالم بانياً على ما طلبه منه ووعده به: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً.

فانطلق موسىٰ والعالم حتى ركبا سفينة وفيها ناس من الركاب وموسىٰ خالي الذهن عما في قصد العالم فخرق العالم السفينة خرقاً لا يؤمن معه الغرق فأدهش ذلك موسىٰ وأنساه ما وعده فقال للعالم: أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال له العالم: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟ فاعتذر إليه موسىٰ بأنه نسي ما وعده من الصبر قائلاً: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً.

فانطلقا فلقيا غلاماً فقتله العالم فلم يملك موسىٰ نفسه دون أن تغير وأنكر عليه ذلك قائلاً: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً. قال له العالم ثانياً: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ فلم يكن عند موسىٰ ما يعتذر به ويمتنع به عن مفارقته ونفسه غير راضية بها فاستدعىٰ منه مصاحبة مؤجلة بسؤال آخر إن أتىٰ به كان له فراقه واستمهله قائلاً: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً وقبله العالم.

فانطلقا حتى أتيا قرية وقد بلغ بهما الجوع فاستطعما أهلها فلم يضيّفهما أحد منهم وإذا بجدار فيها يريد أن ينقض ويتحذر منه الناس فأقامه العالم. قال له موسىٰ: لو شئت لاتخذت على عملك منهم أجراً فتوسلنا به إلى سد الجوع فنحن في حاجة إليه والقوم لا يضيفوننا.

فقال له العالم: هذا فراق بيني وبينك سأُنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ثم قال: أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ويتعيشون بها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً فخرقتها لتكون معيبة لا يرغب فيها.

وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين، ولو أنه عاش لأرهقهما بكفره وطغيانه فشملتهما الرحمة الإلهية فأمرني أن أقتله ليبدلهما ولداً خيراً منه زكاة وأقرب رحماً فقتلته.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فشملتهما الرحمة الإلهية لصلاح أبيهما فأمرني أن أُقيمه فيستقيم حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ولو انقض لظهر أمر الكنز وانتهبه الناس.

قال: وما فعلت الذي فعلت عن أمري بل عن أمر من الله وتأويلها ما أنبأتك به ثم فارق موسىٰ.

٢ ـ قصة الخضر عليه السلام:

لم يرد ذكره في القرآن إلا ما في قصة رحلة موسىٰ إلى مجمع البحرين، ولا ذكر شيء من جوامع أوصافه إلا ما في قوله تعالىٰ: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾[1] والذي يتحصل من الروايات النبوية أو الواردة من طرق أئمة أهل البيت في قصته ففي رواية محمّد بن عمارة عن الصادق عليه السلام أن الخضر كان نبياً مرسلاً بعثه الله تبارك وتعالىٰ إلى قومه فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه، وكانت آيته أنه لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراء وإنما سمي خضراً لذلك. وكان اسمه تاليا بن مالك بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح الحديث ويؤيد ما ذكر من وجه تسميته ما في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلىٰ على فروة بيضاء فاهتزت خضراء.

وفي بعض الأخبار ـ كما فيما رواه العياشي عن بريد عن أحدهما عليهما السلام الخضر وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين الحديث لكن الآيات النازلة في قصته مع موسىٰ لا تخلو عن ظهور في كونه نبياً كيف؟ وفيها نزول الحكم عليه. ويظهر من أخبار متفرقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه حي لم يمت بعد وليس بعزيز على الله سبحانه أن يعمر بعض عباده عمراً طويلاً إلى أمد بعيد ولا أن هناك برهاناً عقلياً يدل على استحالة ذلك.

---

(١) الكهف: ٦٥.

وقد ورد في سبب ذلك في بعض الروايات من طرق العامة أنه ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال، وفي بعضها أن آدمﷺ دعا له بالبقاء إلى يوم القيامة. وفي عدة روايات من طريق الفريقين أنه شرب من عين الحياة التي هي في الظلمات حين دخلها ذو القرنين في طلبها وكان الخضر في مقدمته فرزقه الخضر ولم يرزقه ذو القرنين وهذه وأمثالها آحاد غير قطعية من الأخبار لا سبيل إلى تصحيحها بكتاب أو سنة قطعية أو عقل.

وقد كثرت القصص والحكايات وكذا الروايات في الخضر بما لا يعول عليها ذو لب كرواية خصيف: أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في السماء: عيسىٰ وإدريس، واثنان في الأرض الخضر والياس؛ فأما الخضر فإنه في البحر وأما صاحبه فإنه في البر.

ورواية العقيلي عن كعب قال: الخضر على منبر بين البحر الأعلىٰ والبحر الأسفل وقد أُمرت دواب البحر أن تسمع له وتطيع وتعرض عليه الأرواح غدوة وعشية.

ورواية كعب الأحبار أن الخضر بن عاميل ركب في نفر من أصحابه حتى بلغ بحر الهند وهو بحر الصين فقال لأصحابه: يا أصحابي أدلوني فدلوه في البحر أياماً ولياليَ ثم صعد فقالوا: يا خضر ما رأيت؟ فلقد أكرمك الله وحفظ لك نفسك في لجة هذا البحر فقال استقبلني ملك من الملائكة فقال لي: أيها الآدمي الخطاء إلى أين؟ ومن أين؟ فقلت: إني أردت أن أنظر عمق هذا البحر. فقال لي: كيف؟ وقد أهوىٰ رجل من زمان داودﷺ لم يبلغ ثلث قعره حتى الساعة، وذلك منذ ثلاث مائة سنة، إلى غير ذلك من الروايات المشتملة على نوادر القصص.

٣ ـ موسىٰ والخضر في المنهج الروائي:

في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمّد بن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمّدﷺ في حديث: إن موسىٰ لما كلمه الله تكليماً، وأنزل عليه التوراة، وكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وجعل آية في يده وعصاه، وفي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وغرق الله فرعون وجنوده عملت البشرية فيه حتى قال في

نفسه: ما أرى الله عزّ وجلّ خلق خلقاً أعلم مني فأوحى الله إلى جبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يهلك. وقل له: إن عند ملتقى البحرين رجلاً عابداً فاتبعه وتعلم منه.

فهبط جبرئيل على موسىٰ بما أمره به ربه عزّ وجلّ فعلم موسىٰ أن ذلك لما حدثته به نفسه فمضىٰ هو وفتاه يوشع بن نون حتى انتهيا إلى ملتقى البحرين فوجدا هناك الخضر يعبد الله عزّ وجلّ كما قال الله في كتابه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ الحديث.

أقول: والحديث طويل يذكر فيه صحبته للخضر وما جرىٰ بينهما مما ذكره الله في كتابه في القصة.

وروى القصة العياشي في تفسيره بطريقين، والقمي في تفسيره بطريقين مسنداً ومرسلاً، ورواه في الدر المنثور بطرق كثيرة من أرباب الجوامع كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن ابن عباس عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ.

والأحاديث متفقة في معنىٰ ما نقلناه من صدر حديث محمّد بن عمارة، وفي أن الحوت الذي حملاه حيّ عند الصخرة واتخذ سبيله في البحر سرباً لكنها تختلف في أمور كثيرة أضافتها إلى ما في القرآن من أصل القصة.

منها ما يتحصل من رواية ابن بابويه والقمي أن مجمع البحرين من أرض الشامات وفلسطين بقرينة ذكرهما أن القرية التي ورداها هي الناصرة التي تنسب إليها النصارى، وفي بعضها أن الأرض كانت آذربيجان وهو يوافق ما في الدر المنثور عن السدي أن البحرين هما الكر والرس حيث يصبان في البحر وأن القرية كانت تسمى باجروان وكان أهلها لئاماً وروي عن أُبي أنه أفريقية، وعن القرظي أنه طنجة، وعن قتادة أنه ملتقىٰ بحر الروم وفارس. ومنها ما في بعض الروايات أن الحوت كان مشوياً وفي أكثرها أنه كان مملوحاً.

ومنها ما في مرسلة القمي وروايات الشيخين والنسائي والترمذي

وغيرهم أنه كانت عند الصخرة عين الحياة حتى في رواية مسلم وغيره أن الماء كان ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حي فلما نزلا ومس الحوت الماء حيَّ، الحديث. وفي غيرها أن فتىٰ موسىٰ توضأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحيَّ، وفي غيرها أنه شرب منه ولم يكن له ذلك فأخذه الخضر وطابقه في سفينة وتركها في البحر فهو بين أمواجها حتى تقوم الساعة وفي بعضها أنه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر وبقية الروايات خالية من ذكرها.

ومنها ما في رواية الصحاح الأربع وغيرها أن الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، الحديث. وفي بعض هذه الروايات أن موسىٰ بعدما رجع أبصر أثر الحوت فأخذ أثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا إلى جزيرة من جزائر العرب، وفي حديث الطبري عن ابن عباس في القصة: فرجع يعني موسىٰ حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسىٰ يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة، الحديث. وبعضها خال عن ذلك.

ومنها ما في أكثرها أن موسىٰ لقي الخضر عند الصخرة، وفي بعضها أنه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر، وفي بعضها وجده على سطح الماء جالساً أو متكئاً. ومنها اختلافها في أن الفتىٰ هل صحبهما أو تركاه وذهبا.

ومنها اختلافها في كيفية خرق السفينة وفي كيفية قتل الغلام وفي كيفية إقامة الجدار وفي الكنز الذي تحته لكن أكثر الروايات أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه مواعظ، وفي الأب الصالح فظاهر أكثرها أنه أبوهما الأقرب، وفي بعضها أنه أبوهما العاشر وفي بعضها السابع، وفي بعضها بينهما وبينه سبعون أباً وفي بعضها كان بينهما وبينه سبعمائة سنة، إلى غير ذلك من جهات الاختلاف.

وفي تفسير القمي عن محمّد بن علي بن بلال عن يونس في كتاب كتبوه إلى الرضا عليه السلام يسألونه عن العالم الذي أتاه موسىٰ أيهما كان أعلم؟

وهل يجوز أن يكون على موسىٰ حجة في وقته؟ فكتب في الجواب: أتى موسىٰ العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر إما جالساً وإما متكئاً فسلم عليه موسىٰ فأنكر السلام إذ كان الأرض ليس بها سلام.

قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليماً؟ قال: نعم. قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشداً. قال: إني وكلتُ بأمر لا تطيقه، ووكلتَ بأمر لا أُطيقه... الحديث.

أقول: وهذا المعنىٰ مروي في أخبار أُخر من طرق الفريقين. وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه عن أُبي أن النبي ﷺ قال: لما لقي موسى الخضر جاء طير فألقىٰ منقاره في الماء فقال الخضر لموسىٰ: تدري ما يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسىٰ في علم الله إلا كما أخذ منقاري من الماء.

أقول: وقصة هذا الطائر واردة في أغلب روايات القصة.

وفي تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان موسىٰ أعلم من الخضر.

وفيه عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصي موسىٰ يوشع ابن نون، وهو فتاه الذي ذكره في كتابه. وفيه عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام قال: بينما موسىٰ قاعد في ملأ من بني إسرائيل إذ قال له رجل: ما أرى أحداً أعلم بالله منك قال موسىٰ: ما أرىٰ فأوحى الله إليه بلىٰ عبدي الخضر فسأل السبيل إليه وكان له الحوت آية إن افتقده، وكان من شأنه ما قص الله.

أقول: وينبغي أن يحمل اختلاف الروايات في علمهما على اختلاف نوع العلم.

وفيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ خشي إن أدرك الغلام أن يدعو أبويه إلى الكفر فيجيبانه من فرط حبهما به.

وفيه عن عثمان عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن

يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ قال: إنه ولدت لهما جارية فولدت غلاماً فكان نبياً.

أقول: وفي أكثر الروايات أنها ولد منها سبعون نبياً والمراد ثبوت الواسطة.

وفيه عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله. ثم ذكر الغلامين فقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ألم تر أن الله شكر صلاح أبويهما لهما؟

وفيه عن مسعد بن صدقة عن جعفر بن محمّد عن آبائه عليهم السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال: إن الله ليخلف العبد الصالح بعد موته في أهله وماله وإن كان أهله أهل سوء ثم قرأ هذه الآية إلى آخرها: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.

أقول: والروايات في هذا المعنىٰ كثيرة مستفيضة.

في الكافي بإسناده عن صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ فقال: أما إنه ما كان ذهباً ولا فضة، وإنّما كان أربع كلمات: لا إله إلا الله من أيقن بالموت لم يضحك، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلا الله.

أقول: وقد تكاثرت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الكنز الذي تحت الجدار كان لوحاً مكتوباً فيه الكلمات وفي أكثرها أنه كان لوحاً من ذهب، ولا ينافيه قوله في هذه الرواية: ما كان ذهباً ولا فضة، لأن المراد به نفي الدينار والدرهم، كما هو المتبادر. والروايات مختلفة في تعيين الكلمات التي كانت مكتوبة على اللوح لكن أكثرها متفقة في كلمة التوحيد ومسألتي الموت والقدر.

وقد جمع في بعضها بين الشهادتين كما رواه في الدر المنثور عن البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمّد رسول الله عجباً لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح؟ وعجباً لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك؟ وعجباً لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن؟ وعجباً لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟[1]

(١) انظر المجلد الثالث عشر ص ٣٤٦.

قصة إسماعيل صادق الوعد في القرآن الكريم

لم ترد قصة إسماعيل بن حزقيل النبي في القرآن إلا في هاتين الآيتين على أحد التفسيرين[1]، وقد أثنى الله سبحانه عليه بجميل الثناء فعدّه صادق الوعد وآمراً بالمعروف ومرضياً عند ربه، وذكر أنه كان رسولاً نبياً.

وأما الحديث ففي علل الشرائع بإسناده عن ابن أبي عمير ومحمّد بن سنان عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إسماعيل الذي قال الله عزّ وجلّ في كتابه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ لم يكن إسماعيل بن إبراهيم بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله عزّ وجلّ إلى قومه فأخذوه وسلخوا فروة رأسه ووجهه فأتاه ملك فقال: إن الله جلّ جلاله بعثني إليك فمرني بما شئت فقال: لي أسوة بما يصنع بالأنبياء عليهم السلام.

أقول: وروى هذا المعنى أيضاً بإسناده عن أبي بصير عنه عليه السلام وفي آخره: يكون لي أسوة بالحسين عليه السلام.

وفي العيون بإسناده إلى سليمان الجعفري عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: أتدري لم سمّي إسماعيل صادق الوعد؟ قال: قلت: لا أدري قال: وعد رجلاً فجلس له حولاً ينتظره.

أقول: وروي هذا المعنى في الكافي عن ابن أبي عمير عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام، ورواه أيضاً في المجمع مرسلاً عنه عليه السلام.

وفي تفسير القمي في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ قال: وعد وعداً فانتظر صاحبه سنة، وهو إسماعيل بن حزقيل.

---

(١) يعني الآيتين: ٥٤ ـ ٥٥ من سورة مريم.

أقول: وعده ﷺ وهو أن يثبت في مكانه في انتظار صاحبه كان مطلقاً لم يقيده بساعة أو يوم ونحوه فألزمه مقام الصدق أن يفي به بإطلاقه ويصبّر نفسه في المكان الذي وعد صاحبه أن يقيم فيه حتى يرجع إليه.

وصفة الوفاء كسائر الصفات النفسانية من الحب والإرادة والعزم والإيمان والثقة والتسليم ذات مراتب مختلفة باختلاف العلم واليقين فكما أن من الإيمان ما يجتمع مع أي خطيئة وإثم وهو أنزل مراتبه ولا يزال ينمو ويصفو حتى يخلص من كل شرك خفي فلا يتعلق القلب بشيء غير الله ولو بالتفات إلى من دونه وهو أعلى مراتبه كذلك الوفاء بالوعد ذو مراتب فمن مراتبه في المقال مثلاً إقامة ساعة أو ساعتين حتى تعرض حاجة أُخرى توجب الانصراف إليها وهو الذي يصدق عليه الوفاء عرفاً، وأعلى منه مرتبة الإقامة بالمكان حتى يوأس من رجوع الصديق إليه عادة بمجيء الليل ونحوه فيقيد به إطلاق الوعد، وأعلى منه مرتبة الأخذ بإطلاق القول والإقامة حتى يرجع وإن طال الزمان فالنفوس القوية التي تراقب قولها وفعلها لا تلقي من القول إلا ما في وسعها أن تصدقه بالفعل ثم إذا لفظت لم يصرفها عن إتمام الكلمة وإنفاذ العزيمة أي صارف.

وفي الرواية أن النبي ﷺ وعد بعض أصحابه بمكة أن ينتظره عند الكعبة حتى يرجع إليه فمضى الرجل لشأنه ونسي الأمر فبقي ﷺ ثلاثة أيام هناك ينتظره فاطّلع بعض الناس عليه فأخبر الرجل بذلك فجاء واعتذر إليه وهذا مقام الصديقين لا يقولون إلا ما يفعلون...[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد الرابع عشر صفحة ٦٣ من الميزان.

قصة إلياس عليه السلام

١ ـ قصته في القرآن الكريم:

لم يذكر اسمه عليه السلام في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع[١] وفي سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء حيث قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢].

ولم يذكر تعالى من قصته في هذه السورة ـ الصافات ـ إلا أنه كان يدعو إلى عبادة الله سبحانه قوماً كانوا يعبدون بعلاً فآمن به وأخلص الإيمان قوم منهم وكذبه آخرون وهم جل القوم وإنهم لمحضرون.

وقد أثنى الله سبحانه عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامة وأثنى عليه في هذه السورة بأنه من عباده المؤمنين المحسنين وحياه بالسلام بناء على القراءة المشهورة «سلام على إل ياسين».

٢ ـ الأحاديث فيه:

ورد في عليه السلام أخبار مختلفة متهافتة كغالب الأخبار الواردة في قصص الأنبياء الحاكية للعجائب كالذي روي عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس وما عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الخضر هو إلياس، وما عن وهب وكعب الأحبار وغيرهما أن إلياس حي لا يموت إلى النفخة الأولى، وما عن وهب أن إلياس سأل الله أن يريحه من قومه فأرسل الله إليه دابة كهيئة الفرس في لون النار فوثب إليه فانطلق به فكساه الله الريش والنور وقطع عنه

---

(١) يعني في سورة الصافات الآية: ١٢٣.

(٢) الأنعام: ٨٥.

لذة المطعم والمشرب فصار في الملائكة، وما عن كعب الأحبار أن إلياس صاحب الجبال والبر وأنه الذي سماه الله بذي النون، وما عن الحسن أن إلياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالجبال وما عن أنس أن إلياس لاقى النبي ﷺ في بعض أسفاره فقعدا يتحدثان ثم نزل عليهما مائدة من السماء فأكلا وأطعماني ثم ودعه وودعني ثم رأيته مر على السحاب نحو السماء إلى غير ذلك.

وفي بعض أخبار الشيعة أنه ﷺ حي مخلد لكنها ضعاف وظاهر آيات القصة لا يساعد عليه.

وفي البحار في قصة إلياس ﷺ عن قصص الأنبياء بالإسناد عن الصدوق بإسناده إلى وهب بن منبه، ورواه الثعلبي في العرائس عن ابن إسحاق وعلماء الأخبار أبسط منه ـ والحديث طويل جداً، وملخصه ـ أنه بعد انشعاب ملك بني إسرائيل وتقسمه بينهم سار سبط منهم إلى بعلبك وكان لهم ملك منهم يعبد صنماً اسمه بعل ويحمل الناس على عبادته.

وكانت له امرأة فاجرة قد تزوجت قبله بسبعة من الملوك وولدت تسعين ولداً سوى أبناء الأبناء، وكان الملك يستخلفها إذا غاب فتقضي بين الناس، وكان له كاتب مؤمن حكيم قد خلص من يدها ثلاث مائة مؤمن تريد قتله، وكان في جوار قصر الملك رجل مؤمن له بستان وكان الملك يحترم جواره ويكرمه.

ففي بعض ما غاب الملك قتلت المرأة الجار المؤمن وغصبت بستانه فلما رجع وعلم به عاتبها فاعتذرت إليه وأرضته فآلى الله تعالى على نفسه أن ينتقم منهما إن لم يتوبا فأرسل إليهم إلياس ﷺ يدعوهم إلى عبادة الله وأخبرهما بما آلى الله فاشتد غضبهم عليه وهموا بتعذيبه وقتله فهرب منهم إلى أصعب جبل هناك فلبث فيه سبع سنين يعيش بنبات الأرض وثمار الشجر.

فأمرض الله ابناً للملك يحبه حباً شديداً فاستشفع ببعل فلم ينفعه فقيل له: إنه غضبان عليك إذ لم تقتل إلياس فأرسل إليه فئة من قومه ليخدعوه ويقبضوا عليه فأرسل الله إليهم ناراً فأحرقتهم ثم أرسل إليه فئة أخرى من

ذوي البأس مع كاتبه المؤمن فذهب معه إلياس صوناً له من غضب الملك لكن الله سبحانه أمات ابنه فشغله حزنه عن إلياس فرجع سالماً.

ثم لما طال الأمر نزل إلياس من الجبل واستخفى عند أُم يونس بن متى في بيتها ويونس طفل رضيع ثم خرج بعد ستة أشهر إلى الجبل ثانياً واتفق أن مات بعده يونس ثم أحياه الله بدعاء إلياس بعدما خرجت أُمه في طلبه فوجدته فتضرعت إليه.

ثم إنه سأل الله أن ينتقم له من بني إسرائيل ويمسك عنهم الأمطار فأُجيب وسلط الله عليهم القحط فأجهدوا سنين فندموا فجاءوه فتابوا وأسلموا فدعا الله فأرسل عليهم المطر فسقاهم وأحيا بلادهم.

فشكوا إليه هدم الجدران وعدم البذر من الحبوب فأوحى إليه أن يأمرهم أن يبذروا الملح فأنبت لهم الحمص وأن يبذروا الرمل فأنبت لهم منه الدخن.

ثم لما كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد وعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه فأملّ ذلك إلياس فدعا الله أن يريحه منهم فأرسل الله إليه فرساً من نار فوثب عليه إلياس فرفعه الله إلى السماء وكساه الريش والنور فكان مع الملائكة.

ثم سلط الله على الملك وامرأته عدواً فقصدهما وظهر عليهما فقتلهما وألقى جيفتيهما في بستان ذلك الرجل المؤمن الذي قتلاه وغصبوا بستانه.

وأنت بالتأمل فيما تقصه الرواية لا ترتاب
فـي ضـعـفـهـا...[1]

(١) انظر هذه القصة في المجلد السابع عشر صفحة ١٦٠ من الميزان تحت عنوان كلام في قصة الياس عليه السلام.

قصة داود عليه السلام

١ ـ قصته في القرآن:

لم يقع من قصته في القرآن إلا إشارات فقد ذكر سبحانه أنه كان في جيش طالوت الملك حين حارب جالوت فقتله داود فآتاه الله الملك بعد طالوت والحكمة وعلمه مما يشاء وجعله خليفة له يحكم بين الناس وآتاه فصل الخطاب وقد أيد الله ملكه وسخر معه الجبال والطير يسبحن معه وألان له الحديد يعمل وينسج منه الدروع.

٢ ـ جميل الثناء عليه في القرآن:

عده سبحانه من الأنبياء وأثنى عليه بما أثنى عليهم وخصه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[1] وآتاه فضلاً وعلماً وآتاه الحكمة وفصل الخطاب وجعله خليفة في الأرض ووصفه بأنه أوّاب وأن له عنده الزلفى وحسن مآب.

٣ ـ التدبر في آيات الكتاب المتعرضة لقصة دخول المتخاصمين على داود عليه السلام لا يعطي أزيد من كونه امتحاناً منه تعالى له عليه السلام في ظرف التمثل ليربيه تربية إلهية ويعلمه رسم القضاء العدل فلا يجور في الحكم ولا يعدل عن العدل.

وأما ما تضمنته غالب الروايات من قصة أوريا وامرأته فهو مما يجل عنه الأنبياء ويتنزه عنه ساحتهم...[2].

---

(١) النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٤، ٨٧.

(٢) انظر هذه القصة في المجلد السابع عشر صفحة ٢٠٢ من الميزان.

٤ ـ قصة دخول الخصم على داود في ضوء الروايات

روى في الدر المنثور بطريق عن أنس وعن مجاهد والسدي وبعدة طرق عن ابن عباس قصة دخول الخصم على داود عليه السلام على اختلاف ما في الروايات وروى مثلها القمي في تفسيره ورواها في العرائس وغيره وقد لخصها في مجمع البيان كما يأتي:

إن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت علي إبراهيم فاتخذته خليلاً وفضلت علي موسى فكلمته تكليماً فقال: يا داود إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليتك فقال: نعم يا رب فابتلني.

فبينا هو في محرابه ذات يوم إذ وقعت حمامة فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهمّ بتزويجها فبعث بأوريا إلى بعض سرايا وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك وقتل.

فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان فبينا هو ذات يوم في محرابه إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما فقالا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ـ إلى قوله ـ وقليل ما هم، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبّه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه.

ثم قال في المجمع ـ ونعم ما قال ـ: إنه مما لا شبهة في فساده فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أُمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه.

أقول: والقصة مأخوذة من التوراة غير أن التي فيها أشنع وأفظع فعدلت بعض التعديل على ما سيلوح لك.

ففي التوراة ما ملخصه: وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره

وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً.

فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل: إنها بتشبع امرأة أوريا الحثي فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى.

وكان أوريا في جيش لداود يحاربون بني عمون فكتب داود إلى يوآب أمير جيشه يأمره بإرسال أوريا إليه ولما أتاه وأقام عنده أياماً كتب مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ففعل به ذلك فقتل وأخبر داود بذلك.

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات ندبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب.

فأرسل الرب ناثان النبي إلى داود فجاء إليه وقال له: كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه وبقره ليهيىء للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ لضيفه، فحمي غضب داود على الرجل جداً وقال لناثان: حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك وترد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق.

فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل يعاتبك الرب ويقول: سأقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع معهن قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس جزاء لما فعلت بأوريا وامرأته.

فقال داود لناثان: قد أخطأت إلى الرب فقال ناثان لداود: الرب أيضاً قد نقل عنك خطيئتك. لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر

أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك من المرأة يموت، فأمرض الله الصبي سبعة أيام ثم قبضه ثم ولدت امرأة أوريا بعده لداود ابنه سليمان.

وفي العيون في باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل والمقالات قال الرضاعليه السلام لابن جهم: وأما داود فما يقول من قبلكم فيه؟ قال: يقولون: إن داود كان يصلي في محرابه إذ تصور له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور فقطع صلاته وقام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في إثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان. فاطلع داود في إثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل فلما نظر إليها هواها وكان قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدم أوريا أمام التابوت فقدم فظفر أوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية أن قدمه أمام التابوت فقدم فقتل أوريا وتزوج داود بامرأته.

قال: فضرب الرضاعليه السلام يده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لقد نسبتم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في إثر الطير ثم بالفاحشة ثم بالقتل.

فقال يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك إن داودعليه السلام إنما ظن أنه ما خلق الله خلقاً هو أعلم منه فبعث الله عزّ وجلّ إليه الملكين فتسورا المحراب فقال: خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب فعجل داود على المدعى عليه فقال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ولم يسأل المدعي البينة على ذلك ولم يقبل على المدعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه ألا تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية.

فقال: يا ابن رسول الله فما قصته مع أوريا؟ قال الرضاعليه السلام: إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أوقتل لا تتزوج بعده أبداً فأول من أباح الله عزّ وجلّ له أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داودعليه السلام فتزوج بامرأة أوريا

لما قتل وانقضت عدتها فذلك الذي شق على الناس من قتل أوريا.

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لعلقمة: إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود عليه السلام إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة أوريا فهواها، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها، الحديث...[1].

(١) انظر هذا البحث الروائي في المجلد السابع عشر صفحة ١٩٨ من الميزان.

قصة سليمان عليه السلام

١ ـ ما ورد من قصصه في القرآن:

لم يرد من قصصه عليه السلام في القرآن الكريم إلا نبذة يسيرة غير أن التدبر فيها يهدي إلى عامة قصصه ومظاهر شخصيته الشريفة.

منها: وراثته لأبيه داود قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾[1]، وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[2].

ومنها: إيتاؤه الملك العظيم وتسخير الجن والطير والريح له وتعليمه منطق الطير وقد تكرر ذكر هذه النعم في كلامه تعالى كما في سورة البقرة الآية ١٠٢ والأنبياء الآية ٨١، والنمل الآيات ١٦ ـ ١٨ وسبأ ١٢ ـ ١٣ وص الآيات ٣٥ ـ ٣٩.

ومنها: الإشارة إلى قصة إلقاء جسد على كرسيه كما في سورة ص الآية ٣٣.

ومنها: الإشارة إلى عرض الصافنات الجياد عليه كما في سورة ص الآيات ٣١ ـ ٣٣.

ومنها: الإشارة إلى تفهيمه الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث كما في سورة الأنبياء الآيتان ٧٨ ـ ٧٩.

ومنها: الإشارة إلى حديث النملة كما في سورة النمل الآيتان ١٨ ـ ١٩.

---

(١) ص: ٣٠.

(٢) النمل: ١٦.

ومنها: قصة الهدهد وما يتبعها من قصته ﷺ مع ملكة سبأ (كما في) سورة النمل الآيات ٢٠ ـ ٤٤.

ومنها: الإشارة إلى كيفية موته ﷺ كما في سورة سبأ الآية ١٤.

٢ ـ الثناء عليه في القرآن:

ورد اسمه ﷺ في بضعة عشر موضعاً من كلامه تعالى وقد أكثر الثناء عليه فسماه عبداً أوّاباً قال تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1] ووصفه بالعلم والحكم قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2] وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾[3] وقال: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾[4]، وعده من النبيين المهديين قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾[5] وقال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾[6].

٣ ـ ذكره ﷺ في العهد العتيق:

وقعت قصته في كتاب الملوك الأول وقد أُطيل فيه في حشمته وجلالة أمره وسعة ملكه ووفور ثروته وبلوغ حكمته غير أنه لم يذكر فيه شيء من قصصه المشار إليها في القرآن إلا ما ذكر أن ملكة سبأ لما سمعت خبر سليمان وبناءه بيت الرب بأورشليم وما أُوتيه من الحكمة أتت إليه ومعها هدايا كثيرة فلاقته وسألته عن مسائل تمتحنه بها فأجاب عنها ثم رجعت.

وقد أساء العهد العتيق القول فيه ﷺ فذكر أنه ﷺ انحرف في آخر عمره عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام فسجد لأوثان كانت تعبدها بعض أزواجه.

---

(١) ص: ٣٠.
(٢) الأنبياء: ٧٩.
(٣) النمل: ١٥.
(٤) النمل: ١٦.
(٥) النساء: ١٦٣.
(٦) الأنعام: ٨٤.

وذكر أن والدته كانت زوج أوريّا الحتي فعشقها داود عليه السلام ففجر بها فحبلت منه فاحتال في قتل زوجها أوريا حتى قتل في بعض الحروب فضمّها إلى أزواجه فحبلت منه ثانياً وولدت له سليمان.

والقرآن الكريم ينزّه ساحته عليه السلام عن أول الرميتين بما ينزه به ساحة جميع الأنبياء بالنص على هدايتهم وعصمتهم وقال فيه خاصة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾[1].

وعن الثانية بما يحكيه من دعائه عليه السلام لما سمع قول النملة: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[2]، ففيه دلالة على أن والدته كانت من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

٤ ـ الروايات الواردة في قصصه عليه السلام:

الأخبار المرويّة في قصصه وخاصة في قصة الهدهد وما يتبعها من أخباره مع ملكة سبأ يتضمن أكثرها أموراً غريبة قلّما يوجد نظائرها في الأساطير الخرافية يأباها العقل السليم ويكذبها التاريخ القطعي وأكثرها مبالغة ما روي عن أمثال كعب ووهب.

وقد بلغوا من المبالغة أن ما رووا أنه عليه السلام ملك جميع الأرض وكان ملكه سبعمائة سنة، وأن جميع الإنس والجن والوحش والطير كانوا جنوده، وأنه كان يوضع في مجلسه حول عرشه ستمائة ألف كرسي يجلس عليها ألوف من النبيين ومئات الألوف من أمراء الإنس والجن.

وأن ملكة سبأ كانت أمها من الجن، وكانت قدمها كحافر الحمارة وكانت تستر قدميها عن أعين النظار حتى كشفت عن ساقيها حينما أرادت دخول الصرح فبان أمرها، وقد بلغ من شوكتها أنه كان تحت يدها أربعمائة

---

(١) البقرة: ١٠٢.

(٢) النمل: ١٩.

ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك أربعمائة ألف مقاتل ولها ثلاثمائة وزير يدبّرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل إلى غير ذلك من أعاجيب الأخبار التي لا يسعنا إلا أن نعدّها من الإسرائيليات ونصفح عنها...[1].

ما ورد في القرآن من عجائب اخبار سليمان عليه السلام

وقوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بالتفضيل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤيده سياق الآية، وإما التفضيل بمطلق ما خصّهما الله به من المواهب كتسخير الجبال والطير لداود وتليين الحديد له وأيتائه الملك، وتسخير الجن والوحش والطير وكذا الريح لسليمان وتعليمه منطق الطير وإيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل.

والآية أعني قوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الخ، على أي حال بمنزلة حكاية اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدّعي الذي تشير إليه بشارة صدر السورة أن الله سبحانه سيخص المؤمنين بما تقرُّ به عيونهم ومثلها ما سيأتي من اعترافات سليمان في مواضع من كلامه.

قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ الخ، أي ورثه ماله وملكه، وأما قول بعضهم: المراد به وراثة النبوة والعلم ففيه أن النبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصحّ في العلم الفكري الاكتسابي والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامةً من الله لهم وهبيّ ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي.

وقوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ ظاهر السياق أنه عليه السلام يباهي عن نفسه وأبيه وهو منه عليه السلام تحديث بنعمة الله كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[2]، وأما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير في قوله: ﴿عُلِّمْنَا﴾ و﴿وَأُوتِينَا﴾ لنفسه لا له ولأبيه على ما هو عادة الملوك

---

(١) انظر هذه القصة في المجلد الخامس عشر صفحة ٣٦٨ من الميزان.

(٢) الضحى، ١١.

والعظماء في الإخبار عن أنفسهم ـ فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعاية لسياسة الملك ـ فالسياق السابق لا يساعد عليه كل المساعدة.

والمراد بالناس ظاهر معناه وهو عامة المجتمعين من غير تميّز لبعضهم من بعض وقول بعضهم إن المراد به عظماء أهل مملكته أو علماؤهم غير سديد.

والمنطق والنطق على ما نتعارفه هو الصوت أو الأصوات المؤلّفة الدالّة بالوضع على معان مقصودة للناطق المسماة كلاماً ولا يكاد يقال ـ على ما ذكره الراغب ـ إلا للإنسان لكن القرآن الكريم يستعمله في معنى أوسع من ذلك وهو دلالة الشيء على معنى المقصود لنفسه، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]. وهو إما من باب تحليل المعنى كما يستعمله القرآن في أغلب المعاني والمفاهيم المقصورة في الاستعمالات على المصاديق الجسمانية المادية كالرؤية والنظر والسمع واللوح والقلم والعرش والكرسي وغيرها، وإما لأن للّفظ معنى أعمّ واختصاصه بالإنسان من باب الانصراف لكثرة الاستعمال.

وكيف كان فمنطق الطير هو ما تدل به الطير بعضها على مقاصدها، والذي نجده عند التأمل في أحوالها الحيوية هو أن لكل صنف أو نوع منها أصواتاً ساذجة خاصة في حالاتها الخاصة الاجتماعية حسب تنوُّع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد وحال المغالبة والغلبة وحال الوحشة والفزع وحال التضرع أو الاستغاثة إلى غير ذلك ونظير الطير في ذلك سائر الحيوان.

لكن لا ينبغي الإرتياب في أن المراد بمنطق الطير في الآية معنى أدقّ وأوسع من ذلك.

أما أولاً: فلشهادة سياق الآية على أنه ﷺ يتحدث عن أمر اختصاصي ليس في وسع عامة الناس أن ينالوه وإنما ناله بعناية خاصة إلهية، وهذا

---

(١) حم السجدة: ٢١.

المقدار المذكور من منطق الطير مما يسع لكل أحد أن يطّلع عليه ويعرفه.

وأما ثانياً: فلأن ما حكاه الله تعالى في الآيات التالية من محاورة سليمان والهدهد يتضمن معارف عالية متنوعة لا يسع لما نجده عند الهدهد من الأصوات المعدودة أن تدل عليها بتميّز لبعضها من بعض ففي كلام الهدهد ذكر لله سبحانه ووحدانيته وقدرته وعلمه وربوبيته وعرشه العظيم وذكر الشيطان وتزيينه الأعمال والهدى والضلال وغير ذلك، وفيه ذكر الملك والعرش والمرأة وقومها وسجدتهم للشمس، وفي كلام سليمان أمره بالذهاب بالكتاب وإلقائه إليهم ثم النظر فيما يرجعون، وهذه كما لا يخفى على الباحث في أمر المعاني المتعمق فيها معارف جمّة لها أُصول عريقة يتوقف الوقوف عليها على أُلوف وأُلوف من المعلومات، وأنّى تفي على إفادة تفصيلها أصوات ساذجة معدودة.

على أنه لا دليل على أن كل ما يأتي بها الحيوان في نطقه من الأصوات أو خصوصيات الصوت يفي حسناً بإدراكه أو تمييزه، ويؤيده ما نقل من قول النملة في الآيات التالية وهو من منطق الحيوان قطعاً ولا صوت للنملة يناله سمعنا ويؤيده أيضاً ما يراه علماء الطبيعة اليوم أن الذي يناله سمع الإنسان من الصوت عدد خاص من الارتعاش المادي وهو ما بين ستة عشر ألفاً إلى اثنين وثلاثين ألفاً في الثانية، وأن الخارج من ذلك في جانبي القلة والكثرة لا يقوى عليه سمع الإنسان وربما ناله سائر الحيوان أو بعضها.

وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان من عجيب الفهم ولطيف الإدراك عند أنواع من الحيوان كالفرس والكلب والقرد والدب والزنبور والنملة وغيرها على أُمور لا يكاد يعثر على نظائرها عند أكثر أفراد الإنسان.

وقد تبين بما مر أن ظاهر السياق أن للطير منطقاً علمه الله سليمان، وظهر به فساد قول من قال إن نطق الطير كان معجزة لسليمان وأما هي في نفسها فليس لها نطق هذا.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي أُعطينا من كل شيء، و ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، وإن كان شاملاً لجميع ما يفرض موجوداً ـ لأن مفهوم شيء من

أعمُّ المفاهيم وقد دخل عليه كلمة الاستغراق ـ لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كل نعمة بل النعم التي يمكن أن يؤتاها الإنسان فيتنعم بها تقيد به معنى كل شيء وكان معنى الجملة: وأعطانا الله من كل نعمة يمكن أن يعطاها الإنسان فيتنعم بها مقداراً معتداً به كالعلم والنبوة والملك والحكم وسائر النعم المعنوية والمادية.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ شكر وتأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر واختيال لإسناده الجميع إلى الله بقوله: ﴿عُلِّمْنَا﴾ و ﴿وَأُوتِينَا﴾، واحتمل بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان والسياق يأباه.

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ الحشر هو جمع الناس وإخراجهم لأمر بإزعاج والوزع المنع وقيل الحبس، والمعنى كما قيل: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يمنعون من التفرّق واختلاط كل جمع بآخر برد أولهم إلى آخرهم وحبس كل في مكانه.

ويستفاد من الآية أنه كان له جنود من الجن والطير يسيرون معه كجنوده من الإنس.

وكلمة الحشر ووصف المحشورين بأنهم جنود، وسياق الآيات التالية كل ذلك دليل على أن جنوده كانوا طوائف خاصة من الجن والإنس والطير وسواء كانت ﴿مِّن﴾ في الآية للتبعيض أو للبيان.

وقد أغرب في التفسير الكبير فزعم أن الآية تدل على أن جميع الجن والإنس والطير كانوا جنوده وقد ملك الأرض كلها وأن الله تعالى جعل الطير في زمانه عقلاء مكلّفين ثم عادت بعد زمانه على ما كانت عليه قبله وقال بمثله في النملة التي تكلّمت، قال في تفسير الآية: والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده، ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرّف على مراده، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصحُّ معه التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف، فلذلك قلنا: إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان

فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصّت بالحاجة إليها أو خصّها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره. انتهى.

ووجوه التحكم فيه غنيّة عن البيان.

وتقديم الجن في الذكر على الإنس والطير لكون تسخيرهم ودخولهم تحت الطاعة عجيباً، وذكر الإنس بعده دون الطير مع كون تسخيرها أيضاً عجيباً رعاية لأمر المقابلة بين الجنّ والإنس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ الآية، ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لما يفهم من الآية السابقة، وضمير الجمع لسليمان وجنوده، وتعدية الإتيان بعلى قيل: لكون الإتيان من فوق، ووادي النمل وادٍ بالشام على ما قيل، وقيل: في أرض الطائف، وقيل: في أقصى اليمن، والحطم الكسر.

والمعنى: فلما سار سليمان وجنوده حتى أتوا على وادي النمل قالت نملة مخاطبة لسائر النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنكم سليمان وجنوده أي لا يطأنكم بأقدامهم وهم لا يشعرون. وفيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إلى آخر الآية، قيل: التبسّم دون الضحك، وعلى هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازاً.

ولا منافاة بين قوله عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ وبين فهمه كلام النملة إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان أو كلام بعضها كالنملة.

وقد تسلّم جمع منهم دلالة قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ على نفي ما عداه فتكلفوا في توجيه فهمه عليه السلام قول النملة تارة بأنه كانت قضية في واقعة، وأخرى بتقدير أنها كانت نملة ذات جناحين وهي من الطير، وثالثة بأن كلامها كان من معجزات سليمان عليه السلام، ورابعة بأنه عليه السلام لم يسمع منها صوتاً قط وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى هذا.

وما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام. على أن سياق الآيات وحده كافٍ في دفعها.

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ الإيزاع الإلهام. تبسَّم ﷺ مبتهجاً مسروراً بما أنعم الله عليه حتى أوقفه هذا الموقف وهي النبوَّة والعلم بمنطق الحيوان والملك والجنود من الجنّ والإنس والطير فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته وأن يعمل بما فيه رضاه سبحانه.

وقد جعل الشكر للنعمة التي أنعم الله تعالى بها على نفسه مختصة به، وللنعمة التي أنعم بها على والديه فإن الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما وقد أنعم الله تعالى على أبيه داود بالنبوة والملك والحكمة وفصل الخطاب وغيرها وأنعم على أمه حيث زوَّجها من داود النبي ورزقها سليمان النبي وجعلها من أهل بيت النبوة.

وفي كلامه هذا دليل على أن والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم[1] وهم إحدى الطوائف الأربع. المذكورين في قوله تعالى: ﴿أَلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ومسألته هذه: ﴿أَوْزِعْنِيٓ وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ الخ، أمر أرفع قدراً وأعلى منزلة من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجية بترتيبها بحيث توافق سعادة الإنسان والإيزاع الذي سأله دعوة باطنية في الإنسان إلى السعادة، وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذي أكرم الله به وإبراهيم وآله فيما يخبر عنه بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[3]، وهو التأييد بروح القدس على ما مر في تفسير الآية.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي اجعلني منهم، وهذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات وهو صلاح النفس في جوهرها الذي يستعده لقبول أي كرامة إلهية.

ومن المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدراً من صلاح العمل ففي قوله:

---

(١) وفيه تبرئة ساحتها عما في التوراة الدائرة ففي التوراة أنها كانت امرأة أوريا فجربها داود ثم كاد في قتل أوريا فقتل في بعض الحروب فأدخلها في أزواجه فولدت له سليمان.

(٢) النساء: ٦٩.

(٣) الأنبياء: ٧٣.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تدرّج في المسألة من الأدنى إلى الأعلى وقد كان صلاح العمل منسوباً إلى صنعه واختياره بوجه دون صلاح الذات ولذا سأل صلاح الذات من ربه ولم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل.

وفي تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيذان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب وأغرزها العبودية وقد وصفه الله بها في قوله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ قال الراغب: التفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشيء والتعهد تعرف العهد المتقدم قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾. انتهى.

استفهم أولاً متعجباً من حال نفسه إذ لا يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقه أن يغيب عن موكبه ويستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته.

والمعنى: ما بالي لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمة لموكبي بل أكان من الغائبين.

قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ اللامات للقسم والسلطان المبين البرهان الواضح، يقضي عليه على الهدهد أحد ثلاث خصال: العذاب الشديد والذبح وفيهما شقاؤه، والإتيان بحجة واضحة وفيه خلاصه ونجاته.

قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ضمير ﴿فَمَكَثَ﴾ لسليمان ويحتمل أن يكون للهدهد ويؤيد الأول سابق السياق والثاني لاحقه، والمراد بالإحاطة العلم الكامل، وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ﴾ الخ، بمنزلة عطف التفسير لقوله: ﴿أَحَطتُ﴾ الخ، وسبأ بلدة باليمن كانت عاصمته يومئذ والنبأ الخبر الذي له أهمية، واليقين ما لا شك فيه.

---

(١) ص: ٣٠.

والمعنى: فمكث سليمان ـ أو فمكث الهدهد ـ زماناً غير بعيد ـ ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه ـ فقال أحطت من العلم بما لم تحط به وجئتك من سبأ بخبر مهم لا شك فيه.

ومنه يظهر أن في الآية حذفاً وإيجازاً، وقد قيل: إن في قول الهدهد: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ كسراً لسورة سليمان عليه السلام فيما شدد عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ الضمير في ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ لأهل سبأ وما يتبعها وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وصف لسعة ملكها وعظمته وهو القرينة على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة وكنوز وجنود مجندة ورعيّة مطيعة، وخصّ بالذكر من بينها عرشها العظيم.

قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الخ، أي إنهم من عبَدة الشمس من الوثنيين.

وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ بمنزلة عطف التفسير لما سبقه وهو مع ذلك توطئة لقوله بعد: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لأن تزيين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم وسائر تقرّباتهم هو الذي صرفهم عن سبيل الله وهي عبادته وحده.

وفي إطلاق السبيل من غير إضافتها إليه تعالى إشارة إلى أنها السبيل المتعينة للسبيلية بنفسها للإنسان بالنظر إلى فطرته بل لكل شيء بالنظر إلى الخلقة العامة.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ تفريع على صدّهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدّ عن السبيل فلا اهتداء، فافهمه.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ القراءة الدائرة ﴿أَلَّا﴾ ـ بتشديد اللام ـ مؤلف من «أن ولا» وهو عطف بيان من ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، والمعنى: زيّن لهم الشيطان أن لا يسجدوا، وقيل: بتقدير لا التعليل، والمعنى: زيّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله.

والخبء على ما في مجمع البيان المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه وهو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبئه خبأ وما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة. انتهى.

ففي قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استعارة كأن الأشياء مخبوءة مستورة تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى إلى الوجود واحداً بعد آخر فيكون تسمية الإيجاد بعد العدم إخراجاً للخبء قريباً من تسميته بالفطر وتوصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض والفطر هو الشق كأنه يشقُّ العدم فيخرج الأشياء.

ويمكن حمل الجملة على الحقيقة من غير استعارة لكنه مفتقر إلى بيان موضعه غير هذا الموضع. وقيل: المراد بالخبء الغيب وإخراجه العلم به وهو كما ترى.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالتاء على الخطاب أي يعلم سرّكم وعلانيتكم، وقرأ الأكثرون بالياء على الغيبة وهو أرجح.

وملخص الحجة: إنهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيماً لها على ما أودع الله سبحانه في طباعها من الآثار الحسنة والتدبير العام للعالم الأرضي وغيره، والله الذي أخرج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود ومن الغيب إلى الشهادة فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله ـ ومن جملتها الشمس وتدبيرها ـ أولى بالتعظيم وأحق أن يسجد له، مع أنه لا معنى لعبادة ما لا شعور له بها ولا شعور للشمس بسجدتهم والله سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجدة والعظيم لا غير.

وبهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلواً: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الخ.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ من تمام كلام الهدهد وهو بمنزلة التصريح بنتيجة البيان الضمني السابق وإظهار الحق قبال باطلهم ولذا أتى أولاً بالتهليل الدالّ على توحيد العبادة ثم ضمّ إليه قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الدالّ على انتهاء تدبير الأمر إليه فإن العرش الملكي هو المقام الذي تجتمع عنده أزمة الأمور وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك.

وفي قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ مناسبة محاذاة أخرى مع قوله في وصف ملكة سبأ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ولعل قول الهدهد هذا هو الذي دعا ـ أو هو من جملة ما دعا ـ سليمان عليه السلام أن يأمر أن يأتوا بعرشها إليه ليخضع لعظمة ربه كل عظمة.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ الضمير لسليمان عليه السلام. أحال القضاء في أمر الهدهد إلى المستقبل فلم يصدقه في قوله لعدم بيّنة عليه بعد ولم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده أن يجرّب ويتأمل.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ حكاية قول سليمان خطاباً للهدهد كأنه قيل: فكتب سليمان كتاباً قال للهدهد: اذهب بكتابي هذا إليهم أي إلى ملكة سبأ وملأها فألقه إليهم ثم تولّ عنهم أي تنحّ عنهم وقع في مكان تراهم فانظر ماذا يرجعون أي ماذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه.

وقوله: ﴿فَأَلْقِهْ﴾ بسكون الهاء وصلاً ووقفاً في جميع القراءات وهي هاء السكت، ومما قيل في الآية: إن قوله ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ﴾ الخ، من قبيل التقديم والتأخير والأصل فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم. وهو كما ترى.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في الكلام حذف وإيجاز والتقدير فأخذ الهدهد الكتاب وحمله إلى ملكة سبأ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها ولما قرأتها قالت لملإها وأشراف قومها يا أيها الملؤ «الخ».

فقوله: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ حكاية ذكرها لملإها أمر الكتاب وكيفية وصوله إليها ومضمونه، وقد عظّمته إذ وصفته بالكرم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريماً أي والسبب فيه أنه من سليمان ولم يكد يخفى عليها جبروت سليمات وما أوتيه من الملك العظيم والشوكة العجيبة كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم: أي الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك والوثنيون جميعاً قائلون بالله سبحانه يرونه رب الأرباب وإن لم يعبدوه، وعبدة الشمس منهم وهم من شعب الصابئين يعظّمونه ويعظّمون صفاته وإن كانوا يفسّرون الصفات بنفي النقائص والأعدام فيفسرون العلم والقدرة والحياة والرحمة مثلاً بانتفاء الجهل والعجز والموت والقسوة فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريماً، كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريماً، وعلى هذا فالكتاب أي مضمونه هو قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وأن مفسَّرة.

ومن العجيب ما عن جمع من المفسرين أن قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ استئناف وقع جواباً لسؤال مقدّر كأنه قيل: ممن الكتاب وماذا فيه فقالت: إنه من سليمان الخ، وعلى هذا يكون قوله: وإنه بسم الله بياناً للكتاب أي لمتنه وأن الكتاب هو ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

ويتوجه عليهم **أولاً**: وقوع لفظة أن زائدة لا فائدة لها ولذا قال بعضهم: إنها مصدرية و ﴿أَلَّا﴾ نافية لا ناهية وهو وجه سخيف كما سيأتي.

وثانياً: بيان الوجه في كون الكتاب كريماً فقيل: وجه كرامته أنه كان مختوماً ففي الحديث: إكرام الكتاب ختمه حتى ادّعى بعضهم أن معنى كرامة الكتاب ختمه، يقال: أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته، وقيل: إنها سمته كريماً لجودة خطه وحسن بيانه، وقيل: لوصوله إليها على منهاج غير عادي، وقيل: لظنها بسبب إلقاء الطير أنه كتاب سماوي إلى غير ذلك من الوجوه.

وأنت خبير بأنها تحكمات غير مقنعة، والظاهر أن الذي أوقعهم فيما وقعوا حملهم قوله: ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ على حكاية متن الكتاب وذلك ينافي حمل قوله: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الخ، على تعليل كرامة الكتاب ويدفعه أن ظاهر أن المفسرة في قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ الخ، أنه نقل لمعنى الكتاب ومضمونه لا حكاية متنه فمحصّل الآيتين أن الكتاب كان مبدوّاً بسم الله الرحمن الرحيم وأن مضمونه النهي عن العلو عليه والأمر بأن يأتوه مسلمين فلا محذور أصلاً.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أن مفسرة تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشارة إليه.

وقول بعضهم: إنها مصدرية و ﴿لَا﴾ نافية أي عدم علوكم عليّ، سخيف لاستلزامه أولاً: تقدير مبتدأ أو خبر محذوف من غير موجب، ثانياً: عطف الإنشاء وهو قوله: ﴿وَأْتُونِي﴾ على الإخبار.

والمراد بعلوهم عليه استكبارهم عليه، وبقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ إسلامهم بمعنى الانقياد على ما يؤيده قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ دون الإسلام بالمعنى المصطلح وهو الإيمان بالله سبحانه وإن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد وسياق الآيات الآتية، ولو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال: أن لا تعلوا على الله.

وكون سليمان عليه السلام نبياً شأنه الدعوة إلى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكاً رسولاً وكانت دعوته إلى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم وقد انتهت إلى إسلامها لله كما حكى الله تعالى عنها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ الإفتاء إظهار الفتوى وهي الرأي، وقطع الأمر القضاء به والعزم عليه والشهادة الحضور وهذا استشارة منها لهم تقول: أشيروا عليّ في هذا الأمر الذي واجهته ـ وهو الذي يشير إليه كتاب سليمان ـ وإنما أستشيركم فيه لأني لم أكن حتى اليوم أستبد برأيي في الأمور بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم.

فالآية تشير إلى فصل ثان من كلامها مع ملإها بعد الفصل الأول الذي أخبرتهم فيه بكتاب سليمان عليه السلام وكيفية وصوله وما فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ القوة ما يتقوى به على المطلوب وهي ههنا الجند الذي يتقوى به على دفع العدو وقتاله، والبأس الشدة في العمل والمراد به النجدة والشجاعة.

والآية تتضمن جواب الملأ لها يسمعونها أولاً ما يطيب له نفسها ويسكن به قلقها ثم يرجعون إليها الأمر يقولون: طيبي نفساً ولا تحزني فإن لنا من القوة والشدة ما لا نهاب به عدواً وإن كان هو سليمان ثم الأمر إليك مري بما شئت فنحن مطيعوك.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ إفساد القرى تخريبها وإحراقها وهدم أبنيتها، وإذلال أعزة أهلها هو بالقتل والأسر والسبي والإجلاء والتحكم.

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين ـ زيادة التبصر في أمر سليمان عليه السلام بأن ترسل إليه من يختبر حاله ويشاهد مظاهر نبوته وملكه فيخبر الملكة بما رأى حتى تصمم هي العزم على أحد الأمرين: الحرب أو السلم وكان الظاهر من كلام الملأ حيث بدأوا في الكلام معها بقولهم نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، أنهم يميلون إلى القتال لذلك أخذت أولاً تذم الحرب ثم نصت على ما هو رأيها فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ الخ، أي إن الحرب لا تنتهي إلا إلى غلبة أحد المتحاربين وفيها فساد القرى وذلة أعزتها فليس من الحزم الإقدام عليها مع قوة العدو وشوكته مهما كان إلى السلم والصلح سبيل إلا لضرورة ورأيي الذي أراه أن أرسل إليهم بهدية ثم أنظر بماذا يرجع المرسلون من الخبر وعند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب أو السلم.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟﴾ الخ، توطئة لقوله بعد: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ﴾ الخ.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أبلغ وآكد من قولنا مثلاً: استذلوا أعزتها لأنه مع الدلالة على تحقق الذلة يدل على تلبسهم بصفة الذلة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ مسوق للدلالة على الاستمرار بعد دلالة قوله: ﴿أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ على أصل الوقوع، وقيل: إن الجملة من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكة سبأ، وليس بسديد إذ لا اقتضاء في المقام لمثل هذا التصديق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي مرسلة إلى سليمان وهذا نوع من التجبر والاعتزاز الملوكي تصون لسانها عن اسمه وتنسب الأمر إليه وإلى من معه جميعاً وأيضاً تشير به إلى أنه يفعل ما يفعل بأيدي أعضاده وجنوده وإمداد رعيته.

وقوله: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي حتى اعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال وهذا ـ كما تقدم ـ هو رأي ملكة سبأ، ويعلم من قوله: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أن الحامل للهدية كان جمعاً من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أنه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ضمير جاء للمال الذي أهدي إليه أو للرسول الذي جاء بالهدية.

والاستفهام في قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ للتوبيخ والخطاب للرسول والمرسل بتغليب الحاضر على الغائب، وتوبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدم: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ كما أشرنا إليه.

وجوّز أن يكون الخطاب للمرسلين وكانوا جماعة وهو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ إليهم خاصة، وتنكير المال للتحقير، والمراد بما آتاني الله الملك والنبوة.

والمعنى: أتمدُّونني بمال حقير لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوة والملك والثروة خير مما آتاكم.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أي إن إمدادكم إياي بمال لا قدر له عندي في جنب ما آتان الله قبيح وفرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها وإعجابكم بها أقبح.

وقيل: المراد بهديتكم الهدية التي تهدى إليكم، والمعنى: بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم من الهدية لحبكم زيادة المال وأما أنا فلا أعتد بمال الدنيا هذا. وبُعده ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ الخطاب لرئيس المرسلين، وضمائر الجمع راجعة إلى

ملكة سبأ وقومها، والقبل الطاقة، وضمير ﴿بِهَآ﴾ لسبأ، وقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ تأكيد لما قبله، واللام في ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ و﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ﴾ للقسم.

لما كان ظاهر تبديلهم امتثال أمره ـ وهو قوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ـ من إرسال الهدية هو الاستنكاف عن الإسلام قدّر بحسب المقام أنهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها ولذلك فرّع إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ الخ، ولم يقل: ارجع فإن لم يأتوني مسلمين فلنأتينهم الخ، وإن كان مرجع المعنى إليه فإن إرسال الجنود وإخراجهم من سبأ على حال الذلة كان مشروطاً به على أي حال.

والسياق يشهد أن سليمان عليه السلام ردَّ إليهم هديتهم ولم يقبلها منهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ كلام تكلم به بعد رد الهدية وإرجاع الرسل، وفيه إخباره أنهم سيأتونه مسلمين وإنما أراد الإتيان بعرشها قبل حضورها وقومها عنده ليكون دلالة ظاهرة على بلوغ قدرته الموهوبة من ربه ومعجزة باهرة لنبوته حتى يسلموا لله كما يسلمون له ويستفاد ذلك من الآيات التالية:

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ العفريت ـ على ما قيل ـ المارد الخبيث، وقوله: ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ اسم فاعل أو فعل مضارع من الإتيان، والأول أنسب للسياق لدلالته على التلبّس بالفعل وكونه أنسب لعطف قوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ الخ، وهو جملة اسمية عليه. كذا قيل.

وقوله: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ الضمير للإتيان أي أنا للإتيان بعرشها لقوي لا يثقل عليَّ حمله ولا يجهدني نقله، أمين لا أخونك في هذا الأمر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ﴾ مقابلته لمن قبله دليل على أنه كان من الإنس، وقد وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيّه، وقيل: هو الخضر، وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أجاب،

وقيل: جبريل، وقيل: هو سليمان نفسه، وهي وجوه لا دليل على شيء منها.

وأياً ما كان وأي من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذي أتى بعرشها إليه في أقل من طرفة العين، وقد اعتنى بشأن عمله أيضاً إذ نكّر فقيل: علم من الكتاب أي علم لا يحتمل اللفظ وصفه.

والمراد بالكتاب الذي هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماوية أو اللوح المحفوظ، والعلم الذي أخذه هذا العالم منه كان علماً يسهّل له الوصول إلى هذه البغية وقد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، وربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحي القيّوم، وقيل: ذو الجلال والإكرام، وقيل: الله الرحمان، وقيل: هو بالعبرانية آهياً شراهياً، وقيل: إنه دعا بقوله: يا إلٰهنا وإلٰه كل شيء إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا أنت إيتني بعرشها. إلى غير ذلك مما قيل.

وقد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من تفسير الميزان أن من المحال أن يكون الاسم الأعظم الذي له التصرف في كل شيء من قبيل الألفاظ ولا المفاهيم التي تدل عليها وتكشف عنها الألفاظ بل إن كان هناك اسم له هذا الشأن أو بعض هذا الشأن فهو حقيقة الاسم الخارجية التي ينطبق عليها مفهوم اللفظ نوعاً من الانطباق وهي الاسم حقيقة واللفظ الدال عليها اسم الاسم.

ولم يرد في لفظ الآية نبأ من هذا الاسم الذي ذكروه بل الذي تتضمنه الآية أنه كان عنده علم من الكتاب، وأنه قال: أنا آتيك به، ومن المعلوم مع ذلك أن الفعل فعل الله حقيقة، وبذلك كله يتحصل أنه كان له من العلم بالله والارتباط به ما إذا سأل ربه شيئاً بالتوجه إليه لم يتخلف عن الاستجابة وإن شئت فقل: إذا شاءه الله سبحانه.

ويتبين مما تقدم أيضاً أن هذا العلم لم يكن من سنخ العلوم الفكرية التي تقبل الاكتساب والتعلم.

وقوله: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الطرف ـ على ما قيل ـ

اللحظ والنظر وارتداد الطرف وصول المنظور إليه إلى النفس وعلم الإنسان به، فالمراد أنا آتيك به في أقل من الفاصلة الزمانية بين النظر إلى الشيء والعلم به.

وقيل: الطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر، وارتداده هو انضمامها ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد أُوثر الارتداد على الرد فقيل: قبل أن يرتدّ إليك طرفك ولم يقل: قبل أن يرد. هذا.

وقد أخطأ فالطرف كالتنفس من أفعال ازنسان الاختيارية غير أن الذي يبعث إليه هو الطبيعة كما في التنفس ولذلك لا يحتاج في صدوره إلى تروّ سابق كما يحتاج إليه في أمثال الأكل والشرب، فالفعل الاختياري ما يرتبط إلى إرادة الإنسان هو أعمّ مما يسبقه التروي، والذي أوقع هذا القائل فيما وقع ظنه التساوي بين الفعل الصادر عن اختيار والصادر عن تروٍّ، ولعل النكتة في إيثار الارتداد على الرد هي أن الفعل لعدم توقفه على التروي كأنه يقع بنفسه لا عن مشيّة من اللاحظ.

والخطاب في قوله: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ لسليمان عليه السلام فهو الذي يريد الإتيان به إليه وهو الذي يراد الإتيان به إليه.

وقيل: الخطاب للعفريت القائل: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك والمراد بالذي عنده علم من الكتاب عند هذا القائل هو سليمان، وإنما قاله له إظهاراً لفضل النبوة وأن الذي أقدره الله عليه بتعليمه علماً من الكتاب أعظم مما يتبجح به العفريت من القدرة، فالمعنى: قال سليمان للعفريت لما قال ما قال: أنا آتيك بالعرش قبل ارتداد طرفك.

وقد أصر في التفسير الكبير على هذا القول وأورد لتأييده وجوهاً وهي وجوه ردية وأصل القول لا يلائم السياق كما أومأنا إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ إلى آخر الآية، أي لما رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال هذا، أي حضور العرش واستقراره عندي في أقل من طرفة العين من فضل ربي من غير استحقاق مني ليبلوني أي يمتحنني أأشكر نعمته أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه أي يعود نفعه إليه لا إلى ربي ومن كفر فلم يشكر فإن ربي غني

كريم ـ وفي ذيل الكلام تأكيد لما في صدره من حديث الفضل ـ.

وقيل: المشار إليه بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ هو التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات.

وفيه أن ظاهر قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ﴾ الخ، أن هذا الثناء مرتبط بحال الرؤية والذي في حال الرؤية هو حضور العرش عنده دون التمكن من الإحضار الذي كان متحققاً منذ زمان.

وفي الكلام حذف وإيجاز، والتقدير فأذن له سليمان في الإتيان به كذلك فأتى به كما قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ وفي حذف ما حذف دلالة بالغة على سرعة العمل كأنه لم يكن بين دعواه الإتيان به كذلك وبين رؤيته مستقراً عنده فصل أصلاً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ قال في المفردات: تنكير الشيء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف، قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ وتعريفه جعله بحيث يعرف. انتهى.

والسياق يدل على أن سليمان عليه السلام إنما قاله حينما قصدته ملكة سبأ وملأها لما دخلوا عليه، وإنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آية باهرة من آيات نبوته لها، ولذا أمر بتنكير العرش ثم رتّب عليه قوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ الخ، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي فلما جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل له من جانب سليمان: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ وهو كلمة اختبار.

ولم يقل: أهذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل: أهكذا عرشك؟ فاستفهم عن مشابهة عرشها لهذا العرش المشار إليه في هيئته وصفاته، وفي نفس هذه الجملة نوع من التنكير.

وقوله: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ المراد به أنه هو وإنما عبّرت بلفظ التشبيه تحرزاً من الطيش والمبادرة إلى التصديق من غير تثبت، ويكنى عن

الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالباً بالتشبيه.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ ضمير ﴿قَبْلِهَا﴾ لهذه الآية أي الإتيان بالعرش أو لهذه الحالة أي رؤيتها له بعدما جاءت، وظاهر السياق أنها تتمة كلام الملكة فهي لما رأت العرش وسئلت عن أمره أحست أن ذلك منهم تلويح إلى ما آتى الله سليمان من القدرة الخارقة للعادة فأجابت بقولها: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ الخ، أي لا حاجة إلى هذا التلويح والتذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية أو هذه الحالة وكنا مسلمين لسليمان طائعين له.

وقيل: قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ الخ، من كلام سليمان، وقيل: من كلام قوم سليمان، وقيل من كلام الملكة، لكن المعنى وأُوتينا العلم بإتيان العرش قبل هذه الحال ـ وهي جميعاً وجوه ردية ـ.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ الصد: المنع والصرف، ومتعلق الصد الإسلام لله وهو الذي ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول: أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وأما قولها في الآية السابقة: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فهو إسلامها وانقيادها لسليمان عليه السلام.

هذا ما يعطيه سياق الآيات وللقوم وجوه أُخر في معنى الآية أضربنا عنها.

وقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ في مقام التعليل للصد، والمعنى: ومنعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله وهي الشمس على ما تقدم في نبأ الهدهد والسبب فيه أنها كانت من قوم كافرين فاتبعتهم في كفرهم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ إلى آخر الآية، الصرح هو القصر وكل بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف، واللجة المعظم من الماء والممرد اسم مفعول من التمريد وهو التمليس، والقوارير الزجاج.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ كأن القائل بعض خدم سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها إلى الدخول عليه على ما هو الدأب في وفود الملوك والعظماء على أمثالهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي لما رأت الصرح ظنت أنه لجة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء وكشفت عن ساقيها بجمع ثيابها لئلا تبتل بالماء أذيالها.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ القائل هو سليمان نبهها أنه ليس بلجة بل صرح مملس من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمة ملك سليمان وقد كانت رأت سابقاً ما رأت من أمر هدهد ورد الهدية والإتيان بعرشها لم تشك أن ذلك من آيات نبوته من غير أن يؤتى بحزم أو تدبير وقالت عند ذلك: رب إني ظلمت نفسي الخ.

وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، استغاثت أولاً بربها بالاعتراف بالظلم إذ لم تعبد الله من بدء أو من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان.

وفي قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ﴾ التفات بالنسبة إليه تعالى من الخطاب إلى الغيبة ووجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت: رب إني ظلمت نفسي إلى التوحيد الصريح فإنها تشهد أن إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان وهو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشيء من العالمين وهو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العبادة الذي لا يقول به مشرك.

قصة زكريا عليه السلام

وصفه عليه السلام:

وصفه الله سبحانه في كلامه بالنبوة والوحي ووصفه في أول سورة مريم بالعبودية، وذكره في سورة الأنعام في عداد الأنبياء وعدّه من الصالحين ثم من المجتبين ـ وهم المخلصون ـ والمهديين.

٢ ـ تاريخ حياته:

لم يذكر من أخباره في القرآن إلا دعاؤه لطلب الولد واستجابته وإعطاؤه يحيى عليه السلام، وذلك بعد ما رأى من أمر مريم في عبادتها وكرامتها عند الله ما رأى.

فذكر سبحانه أن زكريا تكفل مريم لفقدها أباها عمران ثم لما نشأت اعتزلت عن الناس واشتغلت بالعبادة في محراب لها في المسجد، وكان يدخل عليها زكريا يتفقدها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هنالك دعا زكريا ربه وسأله أن يهب له من امرأته ذرية طيبة وكان هو شيخاً فانياً وامرأته عاقراً فاستجيب له وناديته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى فسأل ربه آية لتطمئن نفسه أن النداء من جانبه سبحانه، فقيل له: إنّ آيتك أن يعتقل لسانك فلا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً وكان كذلك وخرج على قومه من المحراب وأشار إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً وأصلح الله له زوجه فولدت له يحيى عليه السلام[1].

---

(١) آل عمران: ٣٧، ٤١، مريم: ٢، ١١، الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠.

ولم يذكر في القرآن مآل أمره عليه السلام وكيفية ارتحاله لكن وردت أخبار متكاثرة من طرق العامة والخاصة، أن قومه قتلوه وذلك أن أعداءه قصدوه بالقتل فهرب منهم والتجأ إلى شجرة فانفرجت له فدخل جوفها ثم التأمت فدلهم الشيطان عليه وأمرهم أن ينشروا الشجرة بالمنشار ففعلوا وقطعوه نصفين فقتل عليه السلام عند ذلك. وقد ورد في بعض الأخبار أن السبب في قتله أنهم اتهموه في أمر مريم وحبلها بالمسيح وقالوا: هو وحده كان المتردد إليها الداخل عليها، وقيل غير ذلك...[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد الرابع عشر من الميزان ص ٢٧.

قصة يحيى عليه السلام في القرآن الكريم

١ ـ الثناء عليه:

ذكره الله في بضعة مواضع من كلامه وأثنى عليه ثناء جميلاً فوصفه بأنه كان مصدقاً بكلمة من الله وهو تصديقه بنبوة المسيح، وأنه كان سيداً يسود قومه، وأنه كان حصوراً لا يأتي النساء، وكان نبياً ومن الصالحين[١] ومن المجتبين ـ وهم المخلصون ـ ومن المهديين[٢]، وأن الله هو سماه بيحيى ولم يجعل له من قبل سمياً، وأمره بأخذ الكتاب بقوة وآتاه الحكم صبياً، وسلم عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً[٣] ومدح بيت زكريا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٤] وهم يحيى وأبوه وأمه.

٢ ـ تاريخ حياته:

ولد عليه السلام لأبويه على خرق العادة فقد كان أبوه شيخاً فانياً وأُمه عاقراً فرزقهما الله يحيى وهما آيسان من الولد، وأخذ بالرشد والعبادة والزهد في صغره وآتاه الله الحكم صبياً، وقد تجرد للتنسك والزهد والانقطاع فلم يتزوج قط ولا ألهاه شيء من ملاذ الدنيا. وكان معاصراً لعيسى بن مريم عليه السلام وصدّق نبوته: وكان سيداً في قومه تحنّ إليه القلوب وتميل إليه النفوس ويجتمع إليه الناس فيعظمهم ويدعوهم إلى التوبة

---

(١) آل عمران: ٣٩.
(٢) الأنعام: ٨٥، ٨٧.
(٣) مريم: ٢، ١٥.
(٤) الأنبياء: ٩٠.

ويأمرهم بالتقوى حتى استشهدﷺ.

ولم يرد في القرآن مقتلهﷺ، والذي في الأخبار أنه كان السبب في قتله أن امرأة بغياً افتتن بها ملك بني إسرائيل وكان يأتيها فنهاه يحيى ووبخه على ذلك ـ وكان مكرماً عند الملك يطيع أمره ويسمع قوله ـ فأضمرت المرأة عداوته وطلبت من الملك رأس يحيى وألحت عليه فأمر به فذبح وأهدي إليها رأسه.

وفي بعض الأخبار أن التي طلبت منه رأس يحيى كانت ابنة أخي الملك وكان يريد أن يتزوج بها فنهاه يحيى عن ذلك فزينتها أمها بما يأخذ بمجامع قلب الملك وأرسلتها إليه ولقنتها إذا سنح الملك عليها بسؤال حاجة أن تسأله رأس يحيى ففعلت فذبحﷺ ووضع رأسه في طست من ذهب وأهدي إليها. وفي الروايات نوادر كثيرة من زهده وتنسكه وبكائه من خشية الله ومواعظه وحكمه...

٣ ـ قصة زكريا ويحيى في الإنجيل:

قال: كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيّا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات وكان كلاهما بارّين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد إذ كانت إليصابات عاقراً وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما.

فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله ـ حسب عادة الكهنوت ـ أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجاً وقت البخور، فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك إليصابات ستلد ابناً وتسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته. لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس. ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيىء للرب شعباً مستعداً. فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة

في أيامها فأجاب الملاك وقال أنا جبريل الواقف قدام الله وأُرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدّق كلامي الذي سيتم في وقته.

وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يومي إليهم وبقي صامتاً ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته. وبعد تلك الأيام حبلت إليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة: هكذا قد فعل بي الرب في الأيام التي فيها نظر إليّ لينزع عاري بين الناس.

إلى أن قال: وأما إليصابات فتمّ زمانها لتلد فولدت ابناً وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظّم رحمته لها ففرحوا معها. وفي اليوم جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا فأجابت أُمه وقالت لا بل يسمى يوحنا. فقالوا لها: ليس أحد في عشيرتك تسمّى بهذا الاسم. ثم أومأُوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمّى. فطلب لوحاً وكتب قائلاً اسمه يوحنا فتعجب الجميع. وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله. فوقع خوف على كل جيرانهم وتحدث بهذه الأمور جميعها في كل جبال اليهودية. فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين أترى ماذا يكون هذا الصبي وكانت يد الرب معه. وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ... إلخ.

وفيه: وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية، وهيرودس رئيس ربع على الجليل، وفيلبّس أخوه رئيس ربع على إيطورية وكورة تراخوتيتس وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية في أيام رئيس الكهنة حنّان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية.

فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا كما هو مكتوب في سفر أقوال أشعيا النبي القائل «صوت خارج في البرية أعدّوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة كل واد يمتلىء وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجّات مستقيمة والشعاب طرقاً سهلة ويبصر كل بشر خلاص الله.

وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعمّدوا منه يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أباً لأني أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار.

وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل. فأجاب وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا. وجاء عشّارون أيضاً ليعمّدوا فقالوا له يا معلم ماذا نفعل فقال لهم لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم. وسأله جنديون أيضاً قائلين وماذا نفعل نحن فقال لهم لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائفكم.

وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح أجاب يوحنا الجميع قائلاً أنا أعمدكم بماء ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه هو سيعمدكم بروح القدس ونار الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ وبأشياء أخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم.

أما هيرودس رئيس الربع فإذ توبخ منه لسبب هيروديا امرأة فيلبّس أخيه ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودس يفعلها زاد هذا أيضاً على الجميع أنه حبس يوحنا في السجن ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً.

وفيه: أن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج بها، لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك. فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر. لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بارّ وقديس وكان يحفظه. وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور.

وإذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس في مولده عشاء لعظمائه وقواد الألوف ووجوه الجليل. دخلت ابنة هيروديا ورقصت فسرّت هيرودس والمتكئين معه.

فقال الملك للصبية مهما أردت اطلبي مني فأعطيك. وأقسم لها أن

مهما طلبت مني لأعطينك حتى نصف مملكتي. فخرجت وقالت لأمها ماذا أطلب؟ فقالت رأس يوحنا المعمدان. فدخلت للوقت بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة أريد أن تعطيني حالاً رأس يوحنا المعمدان على طبق. فحزن الملك جداً ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها.

فللوقت أرسل الملك سيافاً وأمر أن يؤتى برأسه فمضى وقطع رأسه في السجن وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها. ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبر، انتهى.

وليحيى عليه السلام أخبار أخر متفرقة في الأناجيل لا تتعدى حدود ما أوردناه وللمتدبر الناقد أن يطبّق ما نقلناه من الأناجيل على ما تقدم حتى يحصل على موارد الاختلاف...[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد الرابع عشر صفحة ٢٨ من الميزان.

قصة يونس عليه السلام

١ ـ قصته في القرآن:

لم يتعرض القرآن الكريم إلا لطرف من قصته وقصة قومه فقد تعرض في سورة الصافات لإرساله ثم إباقه وركوبه الفلك والتقام الحوت له ثم نجاته وإرساله إلى القوم وإيمانهم قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وفي سورة الأنبياء لتسبيحه في بطن الحوت وتنجيته قال تعالىٰ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وفي سورة ن: لندائه مكظوماً وخروجه من بطنه واجتبائه قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[2].

وفي سورة يونس: لإيمان قومه وكشف العذاب عنهم قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ

---

(١) الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) ن: ٤٨ ـ ٥٠.

﴿ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[1].

وخلاصة ما يستفاد من الآيات بضم بعضها إلى بعض واعتبار القرائن الحافة بها أن يونس عليه السلام كان من الرسل أرسله الله تعالىٰ إلى قومه وهم جمع كثير يزيدون على مائة ألف فدعاهم فلم يجيبوه إلا بالتكذيب والرد حتى جاءهم عذاب أوعدهم به يونس ثم خرج من بينهم. فلما أشرف عليهم العذاب وشاهدوه مشاهدة عيان أجمعوا على الإيمان والتوبة إلى الله سبحانه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا.

ثم إن يونس عليه السلام استخبر عن حالهم فوجد العذاب انكشف عنهم ـ وكأنه لم يعلم بإيمانهم وتوبتهم ـ فلم يعد إليهم وذهب لوجهه على ما به من الغضب والسخط عليهم فكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربه مغاضباً عليه ظاناً أنه لا يقدر عليه وركب البحر في فلك مشحون. فعرض لهم حوت عظيم لم يجدوا بداً من أن يلقوا إليه واحداً منهم يبتلعه وينجو الفلك بذلك فساهموا وقارعوا فيما بينهم فأصابت يونس عليه السلام فألقوه في البحر فابتلعه الحوت ونجت السفينة.

ثم إن الله سبحانه حفظه حياً سوياً في بطنه أياماً ولياليَ ويونس عليه السلام يعلم أنها بلية ابتلاه الله بها مؤاخذة بما فعل وهو ينادي في بطنه أن ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فاستجاب الله له فأمر الحوت أن يلفظه فنبذه بالعراء وهو سقيم فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين يستظل بأوراقها ثم لما استقامت حاله أرسله إلى قومه فلبوا دعوته وآمنوا به فمتعهم الله إلى حين.

والأخبار الواردة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام على كثرتها وبعض الأخبار من طرق أهل السنة مشتركة المتون في قصة يونس عليه السلام على النحو الذي يستفاد من الآيات وإن اختلفت في بعض الخصوصيات الخارجة عن ذلك.

---

(١) يونس: ٩٨.

٢ ـ قصته عند أهل الكتاب:

هو عليه السلام مذكور باسم يوناه بن إمتاي في مواضع من العهد القديم وكذا في مواضع من العهد الجديد أُشير في بعضها إلى قصة لبثه في بطن الحوت لكن لم تذكر قصته الكاملة في شيء منهما.

ونقل الآلوسي في روح المعاني في قصته عند أهل الكتاب ويؤيده ما في بعض كتبهم من إجمال القصة:

أن الله أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى وكانت إذ ذاك عظيمة جداً لا تقطع إلا في نحو ثلاثة أيام وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم، فاستعظم الأمر وهرب إلى ترسيس فجاء يافا فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق.

ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة وعند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام حتى علا نفسه فتقدم إليه الرئيس فقال له: ما بالك نائماً؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا.

وقال بعضهم لبعض: تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس فقالوا له: أخبرنا ماذا عملت، ومن أين جئت؟ وإلى أين تمضي؟ ومن أي كورة أنت؟ ومن أي شعب أنت؟ فقال لهم: أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر وأخبرهم خبره فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا له: لم صنعت ما صنعت؟ يلومونه على ذلك.

ثم قالوا له: ما نصنع الآن بك ليسكن البحر عنا؟ فقال: ألقوني في البحر يسكن فإنه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوه إلى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس وألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر وأمر الله حوتاً عظيماً فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وصلى في بطنه إلى ربه واستغاث به فأمر سبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثم قال له: قم وامض إلى نينوى وناد في أهلها كما أمرتك من قبل.

فمضى عليه السلام ونادى وقال: يخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمنت رجال

نينوى بالله ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعاً ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحاً وجلس على الرماد ونودي أن لا يذق أحد من الناس والبهائم طعاماً ولا شراباً وجاءوا إلى الله تعالى ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله ولم ينزل بهم العذاب.

فحزن يونس وقال: إلهي من هذا هربت، فإني علمت أنك الرحيم الرؤوف الصبور التواب. يا رب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال: يا يونس حزنت من هذا جداً؟ فقال: نعم يا رب.

وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة؟ فأمر الله يقطيناً فصعد على رأسه ليكون ظلاً له من كربه ففرح باليقطين فرحاً عظيماً وأمر الله تعالىٰ دودة فضربت اليقطين فجف ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطاب الموت.

فقال الرب: يا يونس أحزنت جداً على اليقطين؟ فقال: نعم يا رب حزنت جداً فقال تعالى: حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثني عشر ربوة من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة انتهى. وجهات اختلاف القصة مع ما يستفاد من القرآن الكريم ظاهرة كالفرار من الرسالة وعدم رضاه برفع العذاب عنهم مع علمه بإيمانهم وتوبتهم.

فإن قلت: نظير ذلك وارد في القرآن الكريم كنسبة الإباق إليه في سورة الصافات وكذا مغاضبته وظنه أن الله لن يقدر عليه على ما في سورة الأنبياء.

قلت: بين النسبتين فرق فكتبهم المقدسة أعني العهدين لا تأبى عن نسبة المعاصي حتى الكبائر الموبقة إلى الأنبياء عليهم السلام فلا موجب لتوجيه ما نسب من المعاصي إليه بما يخرج به عن كونه معصية بخلاف القرآن الكريم فإنه ينزه ساحتهم عن لوث المعاصي حتى الصغائر فما ورد فيه مما يوهم ذلك يحمل على أحسن الوجوه بهذه القرينة الموجبة ولذا حملنا قوله: ﴿إذ

أَبَقَ﴾ وقوله: ﴿مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ على حكاية الحال وإيهام فعله.

٣ ـ ثناؤه تعالى عليه:

أثنى الله سبحانه عليه بأنه من المؤمنين وأنه اجتباه وقد عرفت أن اجتباءه إخلاصه العبد لنفسه خاصة، وأنه جعله من الصالحين وعده في سورة الأنعام فيمن عده من الأنبياء وذكر أنه فضلهم على العالمين وأنه هداهم إلى صراط مستقيم...[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد السابع عشر صفحة ١٦٦ من الميزان.

قصة عيسى وأمه عليهما السلام

١ ـ ما هي قصته وأمه في القرآن؟

كانت أم المسيح مريم بنت عمران حملت بها أمها فنذرت أن تجعل ما في بطنها إذا وضعته محرراً يخدم المسجد وهي تزعم أن ما في بطنها ذكراً فلما وضعتها وبان لها أنها أنثى حزنت وتحسرت ثم سمتها مريم أي الخادمة وقد كان توفي أبوها عمران قبل ولادتها فأتت بها المسجد تسلمها للكهنة وفيهم زكريا فتشاجروا في كفالتها ثم اصطلحوا على القرعة وساهموا فخرج لزكريا فكفلها حتى إذا أدركت ضرب لها من دونهم حجاباً فكانت تعبد الله سبحانه فيها لا يدخل عليها إلا زكريا وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب وقد كانتﷺ صديقة، وكانت معصومة بعصمة الله طاهرة مصطفاة محدثة حدثها الملائكة: بأن الله اصطفاها وطهرها وكانت من القانتين ومن آيات الله للعالمين.

ثم إن الله تعالىٰ أرسل إليها الروح وهي محتجبة فتمثل لها بشراً سوياً، وذكر لها أنه رسول الله من ربها ليهب لها بإذن الله ولداً من غير أب، وبشرها بما سيظهر من ولدها من المعجزات الباهرة وأخبرها أن الله سيؤيده بروح القدس، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بني إسرائيل ذا الآيات البينات وأنبأها بشأنه وقصته ثم نفخ الروح فيها فحملت بها حمل المرأة بولدها.

ثم انتبذت مريم به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها أن لا تحزني

قد جعل ربك تحتك سرياً وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً فأتت به قومها تحمله، وكان حمله ووضعه وكلامه وسائر شؤون وجوده من سنخ ما عند سائر الأفراد من الإنسان.

فلما رآها قومها ـ والحال هذه ـ ثاروا عليها بالطعنة واللوم بما يشهد به حال امرأة حملت ووضعت من غير بعل، وقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أُخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أُمك بغياً فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟ قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً فكان هذا الكلام منه عليه السلام كبراعة الاستهلال بالنسبة إلى ما سينهض على البغي والظلم وإحياء شريعة موسىٰ عليه السلام وتقويمها وتجديد ما اندرس من معارفه، وبيان ما اختلفوا فيه من آياته.

ثم نشأ عيسىٰ عليه السلام وشب وكان هو وأُمه على العادة الجارية في الحياة البشرية يأكلان ويشربان وفيهما ما في سائر الناس من عوارض الوجود إلى آخر ما عاشا.

ثم إن عيسىٰ عليه السلام أُوتي الرسالة إلى بني إسرائيل فانبعث يدعوهم إلى دين التوحيد، ويقول: إني قد جئتكم بآية من ربكم إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرىء الأكمه والأبرص وأُحيي الموتىٰ بإذن الله وأُنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم، إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه . وكان يدعوهم إلى شريعته الجديدة وهو تصديق شريعة موسىٰ عليه السلام إلا أنه نسخ بعض ما حرم في التوراة تشديداً على اليهود، وكان يقول: إني قد جئتكم بالحكمة ولأُبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، وكان يقول: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

وأنجز ﷺ ما ذكره لهم من المعجزات كخلق الطير وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات بإذن الله.

ولم يزل يدعوهم إلى توحيد الله وشريعته الجديدة حتى أيس من إيمانهم لما شاهد من عتو القوم وعنادهم واستكبار الكهنة والأحبار عن ذلك فانتخب من الشرذمة التي آمنت به الحواريين أنصاراً له إلى الله.

ثم إن اليهود ثاروا عليه يريدون قتله فتوفاه الله ورفعه إليه وشبه لليهود: فمن زاعم أنهم قتلوه، ومن زاعم أنهم صلبوه، ولكن شبه لهم فهذه جمل ما قصه القرآن في عيسى بن مريم وأمه.

٢ ـ منزلة عيسى عند الله وموقفه في نفسه:

كان ﷺ عبداً لله وكان نبياً وكان رسولاً إلى بني إسرائيل وكان واحداً من الخمسة أولي العزم صاحب شرع وكتاب وهو الإنجيل وكان سماه الله بالمسيح عيسى وكان كلمة الله وروحاً منه وكان إماماً وكان من شهداء الأعمال وكان مبشراً برسول الله ﷺ وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين وكان من المصطفين وكان من المجتبين وكان من الصالحين وكان مباركاً أينما كان، وكان زكياً وكان آية للناس ورحمة من الله وبراً بوالدته وكان مسلماً عليه وكان ممن علمه الله الكتاب والحكمة فهذه اثنتان وعشرون خصلة من مقامات الولاية هي جمل ما وصف الله به هذا النبي المكرم ورفع بها قدره وهي على قسمين: اكتسابية كالعبودية والقرب والصلاح، واختصاصية.

٣ ـ ما الذي قاله عيسى ﷺ؟ وما الذي قيل فيه؟

ذكر القرآن أن عيسى ﷺ كان عبداً رسولاً، وأنه لم يدع لنفسه ما نسبوه إليه، ولا تكلم معهم إلا بالرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا

أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[1].

وهذا الكلام العجيب الذي يشتمل من العبودية على عصارتها ويتضمن من بارع الأدب على مجامعه يفصح عما كان يراه عيسى المسيح عليه السلام من موقفه نفسه تلقاء ربوبية ربه، وتجاه الناس وأعمالهم فذكر أنه كان يرىٰ نفسه بالنسبة إلى ربه عبداً لا شأن له إلا الامتثال لا يرد إلا عن أمر، ولا يصدر إلا عن أمر، ولم يؤمر إلا بالدعوة إلى عبادة الله وحده ولم يقل لهم إلا ما أمر به: أن اعبدوا الله ربي وربكم.

ولم يكن له من الناس إلا تحمل الشهادة على أعمالهم فحسب، وأما ما يفعله الله فيهم وبهم يوم يرجعون إليه فلا شأن له في ذلك، غفر أو عذب.

فإن قلت: فما معنىٰ أن عيسىٰ عليه السلام من الشفعاء يوم القيامة يشفع فيشفع؟

قلت: القرآن صريح أو كالصريح في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[2]، وقد قال تعالىٰ فيه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[3] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[4]، وهذا غير التفدية التي يقول بها النصارىٰ، وهو إبطال الجزاء بالفدية والعوض فإنها تبطل السلطنة المطلقة الإلهية والآية إنما تنفي ذلك، وأما الشفاعة فالآية غير متعرضة لأمرها لا إثباتاً ولا نفياً فإنها لو كانت بصدد إثباتها ـ على منافاته للمقام ـ لكان حق الكلام أن يقال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، ولو كانت بصدد نفيها لم يكن لذكر الشهادة على الناس وجه.

---

(١) المائدة: ١١٦، ١١٩.

(٢) الزخرف: ٨٦.

(٣) النساء: ١٥٩.

(٤) المائدة: ١١٠.

وأما ما قاله الناس في عيسىٰ عليه السلام فإنهم وإن تشتتوا في مذاهبهم بعده واختلفوا في مسالكهم بما ربما جاوز السبعين من حيث كليات ما اختلفوا فيه، وجزئيات المذاهب والآراء كثيرة جداً.

لكن القرآن إنما يهتم بما قالوا به في أمر عيسى نفسه وأُمه لمساسه بأساس التوحيد الذي هو الغرض الوحيد فيما يدعو إليه القرآن الكريم والدين الفطري القويم، وأما بعض الجزئيات كمسألة التحريف ومسألة التفدية فلم يهتم به ذاك الاهتمام.

والذي حكاه القرآن الكريم عنهم أو نسبه إليهم ما في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1]، وما في معناه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾[2]، وما في قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[3]، وما في قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[4]، وما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾[5].

وهذه الآيات وإن اشتملت بظاهرها على كلمات مختلفة ذوات مضامين ومعان متفاوتة، ولذلك ربما حملت على اختلاف المذاهب في ذلك كمذهب الملكانية القائلين بالنبوة الحقيقية، والنسطورية القائلين بأن النزول والبنوة من قبيل إشراق النور على جسم شفاف كالبلور، واليعقوبية القائلين بأنه من الانقلاب، وقد انقلب الإله سبحانه لحماً ودماً.

لكن الظاهر أن القرآن لا يهتم بخصوصيات مذاهبهم المختلفة وإنما يهتم بكلمة واحدة مشتركة بينهم جميعاً وهي البنوة، وأن المسيح من سنخ الإله سبحانه، وما يتفرع عليه من حديث التثليث وإن اختلفوا في تفسيرها اختلافاً كثيراً، وتعرقوا في المشاجرة والنزاع والدليل على ذلك وحدة الاحتجاج الوارد عليهم في القرآن لساناً.

---

(١) التوبة: ٣٠.
(٢) الأنبياء: ٢٦.
(٣) المائدة: ٧٢.
(٤) المائدة: ٧٣.
(٥) النساء: ١٧١.

بين ذلك: أن التوراة والأناجيل الحاضرة جميعاً تصرح بتوحيد الإله تعالىٰ من جانب، والإنجيل يصرح بالبنوة من جانب آخر وصرح بأن الابن هو الأب لا غير.

ولم يحملوا البنوة الموجودة فيه على التشريف والتبريك مع ما في موارد منه من التصريح بذلك كقوله: «وأنا أقول لكم أحبوا أعداءكم، وباركوا على لاعنيكم وأحسنوا إلى من أبغضكم، وصلوا على من يطردكم ويعسفكم، كيما تكونوا بني أبيكم الذي في السمٰوات لأنه المشرق شمسه على الأخيار والأشرار والممطر على الصديقين والظالمين وإذا أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون يفعلون كذلك؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل لكم؟ أليس كذلك يفعل الوثنيون كونوا كاملين مثل أبيكم السماوي فهو كامل (آخر الإصحاح الخامس من إنجيل متىٰ).

وقوله أيضاً: فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السمٰوات. (إنجيل متىٰ ـ الإصحاح الخامس).

وقوله أيضاً: «لا تصنعوا جميع مراحمكم قدام الناس كي يروكم فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السمٰوات.

وقوله أيضاً في الصلاة: وهكذا تصلون أنتم يا أبانا الذي في السمٰوات بتقديس اسمك «إلخ».

وقوله أيضاً: «فإن غفرتم للناس خطاياها غفر لكم أبوكم السمائي خطاياكم» (كل ذلك في الإصحاح السادس من إنجيل متىٰ).

وقوله: «وكونوا رحماء مثل أبيكم الرحيم» (إنجيل لوقا ـ الإصحاح السادس).

وقوله لمريم المجدلية: «إمضي إل إخوتي وقولي لهم: إني صاعد إلى أبي الذي هو أبوكم وإلهي الذي هو إلهكم» (إنجيل يوحنا ـ الإصحاح العشرون).

فهذه وأمثالها من فقرات الأناجيل تطلق لفظ الأب على الله تعالىٰ وتقدس بالنسبة إلى عيسىٰ وغيره جميعاً كما ترىٰ بعناية التشريف ونحوه.

وإن كان ما في بعض الموارد منها يعطي أن هذه البنوة والأبوة نوع من الاستكمال المؤدي إلى الاتحاد كقوله: «تكلم اليسوع بهذا ورفع عينيه إلى السماء فقال: يا أبه قد حضرت الساعة فمجد ابنك ليمجدك ابنك» ثم ذكر دعاءه لرسله من تلامذته ثم قال: «ولست أسأل في هؤلاء فقط بل وفي الذين يؤمنون بي بقولهم ليكونوا بأجمعهم واحداً كما أنك يا أبت ثابت فيّ وأنا أيضاً فيك ليكونوا أيضاً فينا واحداً ليؤمن العالم أنك أرسلتني وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن واحد أنا فيهم وأنت فيّ ويكونوا كاملين لواحد لكي يعلم العالم أنك أرسلتني وأنني أحببتهم كما أحببتني» (إنجيل يوحنا ـ الإصحاح السابع عشر).

لكن وقع فيها أقاويل يتأبى ظواهرها عن تأويلها إلى التشريف ونحوه كقوله: «قال له توما: يا سيد ما نعلم أين تذهب؟ وكيف نقدر أن نعرف الطريق؟ قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة لا يأتي أحد إلى أبي إلا بي لو كنتم تعرفونني لعرفتم أبي أيضاً ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه أيضاً، قال له فيلبس: يا سيد أرنا الأب وحسبنا، قال له يسوع: أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفني يا فيلبس؟ من رآني فقد رأى الأب فكيف تقول أنت: أرنا الأب؟ أما تؤمن أني في أبي وأبي فيّ وهذا الكلام الذي أقوله لكم ليس هو من ذاتي وحدي بل أبي الحالّ فيّ هو يفعل هذه الأفعال آمنوا بي، أنا في أبي وأبي فيّ» (إنجيل يوحنا ـ الإصحاح الرابع عشر).

وقوله: «لكنني خرجت من الله وجئت ولم آت من عندي بل هو أرسلني» (إنجيل يوحنا ـ الإصحاح الثامن).

وقوله: «أنا وأبي واحد نحن» (إنجيل يوحنا ـ الإصحاح العاشر).

وقوله لتلامذته: «اذهبوا وتلمذوا كل الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس» (إنجيل متى ـ الإصحاح الثامن والعشرون).

وقوله: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله، والله كان الكلمة منذ البدء كان هذا عند الله كل به كان وبغيره ولم يكن شيء مما كان به كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» إنجيل يوحنا ـ الإصحاح الأول.

فهذه الكلمات وما يماثلها مما وقع في الإنجيل هي التي دعت

النصارىٰ إلى القول بالتثليث في الوحدة.

والمراد به حفظ «أن المسيح ابن الله» مع التحفظ على التوحيد الذي نص عليه المسيح في تعليمه كما في قوله: «إن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل الرب إلهك إله واحد هو» (إنجيل مرقس ـ الإصحاح الثاني عشر).

ومحصل ما قالوا به (وإن كان لا يرجع إلى محصل معقول): أن الذات جوهر واحد له أقانيم ثلاث، والمراد بالأقنوم هو الصفة التي هي نحو ظهور الشيء وبروزه وتجليه لغيره وليست الصفة غير الموصوف والأقانيم الثلاث هي: أقنوم الوجود وأقنوم العلم، وهو الكلمة، وأقنوم الحياة وهو الروح.

وهذه الأقانيم الثلاث هي: الأب والابن والروح القدس: والأول أقنوم الوجود، والثاني أقنوم العلم والكلمة، والثالث أقنوم الحياة فالابن وهو الكلمة وأقنوم العلم نزل من عند أبيه وهو أقنوم الوجود بمصاحبة روح القدس وهو أقنوم الحياة التي بها يستنير الأشياء.

ثم اختلفوا في تفسير هذا الإجمال اختلافاً عظيماً أوجب تشتتهم وانشعابهم شعباً ومذاهب كثيرة تجاوز السبعين، وسيأتيك نبأها على قدر ما يلائم حال هذا الكتاب. وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية.

إذا تأملت ما قدمناه عرفت: أن ما يحكيه القرآن عنهم، أو ينسبه إليهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ﴾ الآية، كل ذلك يرجع إلى معنىٰ واحد (وهو تثليث الوحدة) هو المشترك بين جميع المذاهب المستحدثة في النصرانية وإنما اقتصر فيه على هذا المعنى المشترك لأن الذي يرد على أقوالهم في خصوص المسيح عليه السلام على كثرتها وتشتتها مما يحتج به القرآن أمر واحد يرد على وتيرة واحدة.

٤ ـ احتجاج القرآن على مذهب التثليث:

يرد القرآن في الاحتجاج، ويرد قول المثلثة من طريقين، أحدهما:

الطريق العام، وهو بيان استحالة الابن عليه تعالىٰ في نفسه أي سواء كان عيسىٰ هو الابن أو غيره. الثاني: الطريق الخاص وهو بيان أن عيسىٰ بن مريم ليس أباً إلهاً بل عبد مخلوق.

أما الطريق الأول فتوضيحه أن حقيقة البنوة والتولد هو أن يجزأ واحد من هذه الموجودات الحية المادية كالإنسان والحيوان بل النبات أيضاً شيئاً من مادة نفسه ثم يجعله بالتربية التدريجية فرداً آخر من نوعه مماثلاً لنفسه يترتب عليه من الخواص والآثار ما كان يترتب على المجزأ منه كالحيوان يفصل من نفسه النطفة، والنبات يفصل من نفسه اللقاح ثم يأخذ في تربيته تدريجاً حتى يصيّره حيواناً أو نباتاً آخر مماثلاً لنفسه، ومن المعلوم أن الله سبحانه يمتنع عليه ذلك:

أما أولاً فلاستلزامه الجسمية المادية، والله سبحانه منزه من المادة ولوازمها الافتقارية كالحركة والزمان والمكان وغير ذلك.

وأما ثانياً فلأن الله سبحانه لإطلاق ألوهيته وربوبيته له القيومية المطلقة على ما سواه فكل شيء سواه مفتقر الوجود إليه قائم الوجود به فكيف يمكن فرض شيء غيره يماثله في النوعية يستقل عنه بنفسه، ويكون له من الذات والأوصاف والأحكام ما له من غير افتقار إليه.

وأما ثالثاً فلأن جواز الإيلاد والاستيلاد عليه تعالىٰ يستلزم جواز الفعل التدريجي عليه تعالىٰ، وهو يستلزم دخوله تحت ناموس المادة والحركة وهو خلف بل ما يقع بإرادته ومشيئته تعالىٰ إنما يقع من غير مهلة وتدريج.

وهذا البيان هو الذي يفيده قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وعلى ما قربناه فقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ برهان وقوله: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ برهان

---

(١) البقرة: ١١٧.

آخر وقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ «إلخ» برهان ثالث. ويمكن أن يجعل قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ من قبيل إضافة الصفة إلى فاعلها، ويستفاد منه أن خلقه تعالىٰ على غير مثال سابق فلا يمكن منه الإيلاد لأنه خلق على مثال نفسه لأن مفروضهم العينية فيكون هذه الفقرة وحدها برهاناً آخر.

ولو فرض قولهم: اتخذ الله ولداً كلاماً ملقىٰ لا على وجه الحقيقة بل على وجه التوسع في معنى الابن والولد بأن يراد به انفصال شيء عن شيء يماثله في الحقيقة من غير تجزؤ مادي أو تدريج زماني (وهذا هو الذي يرومه النصارىٰ بقولهم: المسيح ابن الله بعد تنقيحه) ليتخلص بذلك عن إشكال الجسمية والمادية والتدريج، بقي إشكال المماثلة.

توضيحه:

إن إثبات الابن والأب إثبات للعدد بالضرورة، وهو إثبات للكثرة الحقيقية وإنما فرضت الوحدة النوعية بين الأب والابن كالأب والابن من الإنسان هما واحد في الحقيقة الإنسانية، وكثير من حيث إنهما فردان من الإنسان، وعلى هذا فلو فرض وحدة الإله كان كل ما سواه ومن جملتها الابن غيراً له مملوكاً مفتقراً إليه فلا يكون الابن المفروض إلهاً مثله، ولو فرض ابن مماثل له غير مفتقر إليه بل مستقل مثله بطل التوحيد في الإله عز اسمه.

وهذا البيان هو المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1].

وأما الطريق الثاني وهو بيان أن شخص عيسى بن مريم عليه السلام ليس ابناً لله مشاركاً له في الحقيقة الإلهية فلما كان فيه من البشرية ولوازمها.

---

(١) النساء: ١٧١.

وتوضيحه أن المسيح عليه السلام حملت به مريم، وربته جنيناً في رحمها، ثم وضعته وضع المرأة ولدها، ثم ربته كما يتربى الولد في حضانة أمه، ثم أخذ في النشوء وقطع مراحل الحياة والارتقاء في مدارج العمر من الصبا والشباب والكهولة وفي جميع ذلك كان حاله حال إنسان طبيعي في حياته، يعرضه من العوارض والحالات ما يعرض الإنسان: من جوع وشبع، وسرور ومساءة، ولذة وألم، وأكل وشرب، ونوم ويقظة وتعب وراحة، وغير ذلك.

فهذا ما شوهد من حال المسيح عليه السلام حين مكثه بين الناس ولا يرتاب ذو عقل أن من كان هذا شأنه فهو إنسان كسائر الأناسي من نوعه وإذا كان كذلك فهو مخلوق مصنوع كسائر أفراد نوعه، وأما صدور الخوارق وتحقق المعجزات بيده كإحياء الأموات وخلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص، وكذا تحقق الخوارق من الآيات في وجوده كتكوّنه من غير أب فإنما هي أمور خارقة للعادة المألوفة والسنّة الجارية في الطبيعة فإنها نادرة الوجود لا مستحيلته فهذا آدم تذكر الكتب السماوية أنه خلق من تراب ولا أب له، وهؤلاء أنبياء الله كصالح وإبراهيم وموسى عليهم السلام جرت بأيديهم آيات معجزة كثيرة مذكورة في مسفورات الوحي من غير أن تقتضي فيهم ألوهية، ولا خروجاً عن طور الإنسانية.

وهذه الطريقة هي المسلوكة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ إلى أن قال: مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[1]، وقد خص أكل الطعام من بين جميع الأفعال بالذكر لكونه من أحسنها دلالة على المادية واستلزاماً للحاجة والفاقة المنافية للألوهية، فمن المعلوم أن من يجوع ويظمأ بطبعه ثم يشبع بأكله أو يرتوي بشربة ليس عنده غير الحاجة والفاقة التي لا يرفعها إلا غيره، وما معنى ألوهية من هذا شأنه؟ فإن الذي قد أحاطت به الحاجة واحتاج في رفعها إلى خارج من نفسه فهو ناقص في نفسه مدبر بغيره، وليس بإله غني بذاته بل هو مخلوق مدبر بربوبية من ينتهي إليه تدبيره.

---

(١) المائدة: ٧٥.

وإلى هذا يمكن أن يرجع قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[1].

وكذا قوله تعالىٰ خطاباً للنصارى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾[2].

فإن الملاك في هذا النوع من الاحتجاجات هو أن الذي شوهد من أمر المسيح أنه كان يعيش على الناموس الجاري في حياة الإنسان متصفاً بجميع صفاته وأفعاله وأحواله النوعية كالأكل والشرب وسائر الاحتياجات الإنسانية، والخواص البشرية ولم يكن هذا التلبس والاتصاف بحسب ظاهر الحس أو تسويل الخيال فحسب بل كان على الحقيقة وكان المسيح عليه السلام إنساناً ذا هذه الأوصاف والأحوال والأفعال، والأناجيل مشحونة بتسميته نفسه إنساناً وابن الإنسان، مملوءة بالقصص الناطقة بأكله وشربه ونومه ومشيه ومسافرته وتعبه وتكلمه ونحو ذلك بحيث لا يقبل شيء منها صرفاً ولا تأويلاً، ومع تسليم هذه الأمور يجري على المسيح ما يجري على غيره فهو لا يملك من غيره شيئاً كغيره، ويمكن أن يهلك كغيره.

وكذا حديث عبادته ودعائه بحيث لا يرتاب في أن ما كان يأتيه من عبادة فإنما للتقرب من الله والخضوع لقدس ساحته لا لتعليم الناس أو لأغراض أُخر تشابه ذلك.

وإلى حديث العبادة والاحتجاج به يومىء قوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾[3]، فعبادة المسيح أول دليل على أنه ليس بإله، وأن الألوهية لغيره لا نصيب له فيها، فأي معنىٰ لنصب الشيء نفسه في مقام العبودية والمملوكية لنفسه؟ وكون الشيء قائماً بنفسه من عين

(١) المائدة: ١٧.
(٢) المائدة: ٧٦.
(٣) النساء: ١٧٢.

الجهة التي بها يقوم نفسه والأمر ظاهر وكذا عبادة الملائكة كاشفة عن أنها ليست ببنات الله سبحانه ولا أن روح القدس إله بعد ما كانوا بأجمعهم عابدين لله طائعين له كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[1].

على أن الأناجيل مشحونة بأن الروح طائع لله ورسله مؤتمر للأمر محكوم بالحكم ولا معنىٰ لأمر الشيء نفسه ولا لطاعته لذاته، ولا لانقياده وائتماره لمخلوق نفسه.

ونظير عبادة المسيح لله سبحانه في الدلالة على المغايرة دعوته الناس إلى عبادة الله كما يشير إليه قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[2]. وسبيل الآية واحتجاجها ظاهر.

والأناجيل أيضاً مشحونة في دعوته إلى الله سبحانه، وهي وإن لم تشتمل على هذا اللفظ الجامع (اعبدوا الله ربي وربكم) لكنها مشتملة على الدعوة إلى عبادة الله، وعلى اعترافه بأنه ربه الذي بيده زمام أمره وعلى اعترافه بأنه رب الناس. ولا تتضمن دعوته إلى عبادة نفسه صريحاً ولا مرة مع ما فيها من قوله: «أنا وأبي واحد نحن» (إنجيل يوحنا ـ الإصحاح العاشر) فمن الواجب أن يحمل على تقدير صحته على أن المراد: أن إطاعتي إطاعة الله كما قال تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[3].

٥ ـ المسيح من الشفعاء عند الله وليس بفاد:

زعمت النصارى: أن المسيح فداهم بدمه الكريم، ولذلك لقبوه

---

(١) الأنبياء: ٢٨.
(٢) المائدة: ٧٢.
(٣) النساء: ٨٠.

بالفادي، قالوا: إن آدم لما عصى الله بالأكل من الشجرة المنهية في الجنة أخطأ بذلك ولزمته الخطيئة، وكذلك لزمت ذريته من بعده ما توالدوا وتناسلوا، وجزاء الخطيئة العقاب في الآخرة والهلاك الأبدي الذي لا مخلص منه، وقد كان الله سبحانه رحيماً عادلاً.

فبدا إذ ذاك إشكال عويص لا انحلال له، وهو أنه لو عاقب آدم وذريته بخطيئتهم كان ذلك منافياً لرحمته التي لها خلقهم، ولو غفر لهم كان ذلك منافياً لعدله فإن مقتضى العدل أن يعاقب المجرم الخاطىء بجرمه وخطيئته كما أن مقتضاه أن يثاب المحسن المطيع بإحسانه وإساءته.

ولم تزل هذه العويصة على حالها حتى حلها ببركة المسيح، وذلك بأن حل المسيح (وهو ابن الله، وهو الله نفسه) رحم واحدة من ذرية آدم وهي مريم البتول وتولد منها كما يتولد إنسان فكان بذلك إنساناً كاملاً لأنه ابن إنسان، وإلهاً كاملاً لأنه ابن الله، وابن الله هو الله (تعالىٰ) معصوماً عن جميع الذنوب والخطايا.

وبعد أن عاش بين الناس برهة يسيرة من الزمان يعاشرهم ويخالطهم ويأكل ويشرب معهم، ويكلمهم ويستأنس بهم، ويمشي فيهم تسخر لأعدائه ليقتلوه شر قتلة، وهي قتلة الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب الإلهي فاحتمل اللعن والصلب بما فيه من الزجر والأذى والعذاب ففدى الناس بنفسه ليخلصوا بذلك من عقاب الآخرة وهلاك السرمد وهو كفارة لخطايا المؤمنين به بل لخطايا كل العالم هذا ما قالوه.

وقد جعلت النصارى هذه الكلمة أعني مسألة الصلب والفداء أساس دعوتهم فلا يبدأون إلا بها، ولا يختمون إلا عليها كما أن القرآن يجعل أساس الدعوة الإسلامية هو التوحيد كما قال الله مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[1]، مع أن المسيح (على ما يصرح به الأناجيل، وقد تقدم

(١) يوسف: ١٠٨.

نقله). كان يجعل أول الوصايا هو التوحيد ومحبة الله سبحانه.

وقد ناقشهم غيرهم من المسلمين وسائر الباحثين فيما يشتمل عليه قولهم هذا من وجوه الفساد والبطلان، وأُلفت فيها كتب ورسائل وملئت بها صحف وطوامير ببيان منافاتها لضرورة العقل، ومناقضتها لكتب العهدين. والذي يهمنا ويوافق الغرض الموضوع له هذا الكتاب بيان جهات منافاته لأصول تعليم القرآن وختمه ببيان الفرق بين ما يثبته القرآن من الشفاعة وما يثبتونه من الغداء. على أن القرآن يذكر صراحة أنه إنما يخاطب الناس ويكلمهم ببيان ما يقرب من أفق عقولهم، ويمكن بياناته من فقههم وفهمهم. وهو الأمر الذي به يميز الإنسان الحق من الباطل فينقاد لهذا ويأبىٰ ذاك، ويفرق بين الخير والشر والنافع والضار فيأخذ بهذا ويترك ذاك، والذي ذكرناه من اعتبار القرآن في بياناته حكم العقل السليم مما لا غبار عليه عند من راجع الكتاب العزيز.

فأما ما ذكروه ففيه أولاً: أنهم ذكروا معصية آدم عليه السلام بالأكل من الشجرة المنهية، والقرآن يدفع ذلك من جهتين:

الأولىٰ: أن النهي هناك كان نهياً إرشادياً يقصد به صلاح المنهي ووجه الرشد في أمره لا إعمال المولوية، والأمر الذي هو من هذا القبيل لا يترتب على امتثاله ولا تركه ثواب ولا عقاب مولوي كأوامر المشير ونواهيه لمن يستشيره، وأوامر الطبيب ونواهيه للمريض بل إنما يترتب على امتثال التكليف الإرشادي الرشد المنظور لمصلحة المكلف، وعلى مخالفته الوقوع في مفسدة المخالفة وضرر الفعل بما أنه فعل، وبالجملة لم يلحق بآدم عليه السلام إلا أنه أُخرج من الجنة وفاته راحة القرب وسرور الرضا، وأما العقاب الأخروي فلا لأنه لم يعص معصية مولوية حتى يستتبع عقاباً.

والثانية: أنه عليه السلام كان نبياً والقرآن ينزه ساحة الأنبياء عليهم السلام ويبرىء نفوسهم الشريفة عن اقتراف المعاصي، والفسق عن أمر الله سبحانه، والبرهان العقلي أيضاً يؤيد ذلك.

وثانياً: قولهم إن الخطيئة لزمت آدم فإن القرآن يدفعه بقوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ

رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾[1]، وقوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾[2].

والاعتبار العقلي يؤيد ذلك بل يبينه فإن الخطيئة وتبعة الذنب إنما هو أمر محذور مخوف منه يعتبره العقل أو المولىٰ لازماً للمخالفة والتمرد ليستحكم بذلك أمر التكليف فلولا العقاب والثواب لم يستقم أمر المولوية ولم يمتثل أمر ولا نهي وكما أن من شؤون المولوية بسط العقاب على المجرمين في جرائمهم كالثواب على المطيعين في طاعاتهم كذلك من شؤون المولوية إطلاق التصرف في دائرة مولويته فللمولىٰ أن يغمض عن خطيئة المخطئين ومعصية العاصين بالعفو والمغفرة فإنه نوع تصرف وحكومة كما أن له أن يؤاخذ بها وهي نوع حكومة، وحسن العفو والمغفرة عن الموالي وأولي القوة والسطوة في الجملة مما لا ريب فيه، والعقلاء من الإنسان يستعملونه إلى هذا الحين فكون كل خطيئة صادرة من الإنسان لازمة للإنسان مما لا وجه له البتة وإلا لم يكن لأصل العفو والمغفرة تحقق لأن المغفرة والعفو إنما يكون لإمحاء الخطيئة وإبطال أثر الذنب ومع فرض أن الخطيئة لازمة غير منفكّة لا يبقىٰ موضوع للعفو والمغفرة، مع أن الوحي الإلهي مملوء بحديث العفو والمغفرة وكتب العهدين كذلك حتى أن هذا الكلام المنقول منهم لا يخلو عنه، وبالجملة دعوىٰ كون ذنب من الذنوب أو خطيئة من الخطايا لازمة غير قابلة في نفسه للمغفرة والإمحاء حتى بالتوبة والإنابة والرجوع والندم مما لا يقبله عقل سليم ولا طبع مستقيم.

وثالثاً: أن قولهم: إن خطيئة آدم كما لزمته كذلك لزمت ذريته إلى يوم القيامة يستلزم أن يشمل تبعة الذنب الصادر من واحد غيره أيضاً ممن لم يذنب في المعاصي المولوية. وبعبارة أُخرى أن يصدر فعل عن واحد ويعم عصيانه وتبعته غير فاعله كما يشمل فاعله، وهذا غير أن يأتي قوم بالمعصية ويرضىٰ به آخرون من أخلافهم فتحسب المعصية على الجميع وبالجملة هو تحمل الوزر من غير صدور الذنب والقرآن يرد ذلك كما في قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ

(١) طه: ١٢٢.
(٢) البقرة: ٣٧.

﴿وَزِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1]، والعقل يساعده عليه لقبح مؤاخذة من لم يذنب بذنب لم يصدر عنه.

ورابعاً: أن كلامهم مبني على كون تبعة جميع الخطايا والذنوب هو الهلاك الأبدي من غير فرق بينها، ولازمه أن لا يختلف الخطايا والذنوب من حيث الصغر والكبر بل يكون جميعها كبائر موبقات والذي يراه القرآن الكريم في تعليمه أن الخطايا والمعاصي مختلفة: فمنها كبائر، ومنها صغائر، ومنها ما تناله المغفرة، ومنها ما لا تناله إلا بالتوبة كالشرك، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[2]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[3]، فجعل تعالىٰ من المحرمات المنهي عنها وهي الخطايا والذنوب ما هي كبائر وما هي سيئات أي صغائر بقرينة المقابلة، وجعل تعالىٰ من الذنوب ما لا يقبل المغفرة، ومنها ما يقبلها فالذنوب على أي حال مختلفة، وليس كل ذنب بموجب للخلود في النار والهلاك الأبدي.

على أن العقل يأبىٰ عن نضد جميع الذنوب ونظمها في سلك واحد فاللطم غير القتل والنظر المريب غير الزنا، وهكذا، والعقلاء من الإنسان في جميع الأدوار لم يضعوا كل ذنب وخطأ موضع غيره، ويرون للمعاصي المختلفة تبعات ومؤاخذات مختلفة فكيف يصح إجراء الجميع مجرى واحداً مع هذا الاختلاف الفاحش بينها وإذا فرض اختلافها لم يصح إلا جعل العقاب الخالد والهلاك الأبدي لبعضها كالشرك بالله، كما يقول القرآن الكريم. ومن المعلوم أن مخالفة نهي ما في الأكل من الشجرة ليس يحل محل الكفر بالله العظيم وما يشابه ذلك فلا وجه لجعل عقابه وتبعته هو العذاب المؤبد.

وخامساً: ما ذكروه من وقوع الإشكال، وحدوث التزاحم بين صفة الرحمة وصفة العدل ثم الاحتيال إلى رفعه بنزول المسيح وصعوده بالوجه

---

(١) النجم: ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) النساء: ٣١.
(٣) النساء: ٤٨.

الذي ذكروه. والمتأمل في هذا الكلام وما يستتبعه من اللوازم يجد أنهم يرون أن الله تعالىٰ وتقدس موجود خالق ينسب وينتهي إليه هذا العالم المخلوق بجميع أجزائه غير أنه إنما يفعل بإرادة وعلم في نفسه، وإرادته في تحققها تتوقف إلى ترجيح علمي كما أن الإنسان إنما يريد شيئاً إذا رجحه بعلمه، فهناك مصالح ومفاسد يطبق الله أفعاله عليها فيفعلها، وربما أخطأ في التطبيق فندم على الفعل، وربما فكر في أمر ولم يهتد إلى طريق صلاحه وربما جهل أمراً، وبالجملة هو تعالىٰ في أوصافه وأفعاله كالإنسان إنما يفعل ما يفعل بالتفكر والتروي ويروم فيه تطبيق فعله على المصلحة فهو محكوم بحكم المصالح ومقهور بعملها فيه من الخارج، ويمكن له الاهتداء إلى الصلاح ويمكن له الضلال والاشتباه والغفلة فربما يعلم وربما يجهل، وربما يغلب وربما يغلب عليه فقدرته محدودة كعلمه وإذا جاز عليه هذا الذي ذكر جاز عليه سائر ما يطرأ الفاعل المتفكر المريد في فعله من سرور وحزن وحمد وندم وابتهاج وانفعال وغير ذلك.

والذي هذا شأنه يكون موجوداً مادياً جسمانياً واقعاً تحت ناموس الحركة والتغير والاستكمال، والذي هو كذلك ممكن مخلوق ابل إنسان مصنوع، وليس بالواجب تعالىٰ، الخالق لكل شيء.

وأنت بالرجوع إلى كتب العهدين تجد صدق جميع ما نسبناه إليهم في الواجب تعالىٰ من جسميته واتصافه بجميع أوصاف الجسمانيات وخاصة الإنسان.

والقرآن في جميع هذه المعاني المذكورة ينزه الله تعالىٰ عن هذه الأوهام الخرافية، كما يقول تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]، والبراهين العقلية القاطعة قائمة على أنه تعالىٰ ذات مستجمع لجميع صفات الكمال فله الوجود من غير شائبة عدم والقدرة المطلقة من غير عجز، والعلم المطلق من غير طروّ جهل، والحياة المطلقة من غير إمكان موت وفناء، وإذا كان كذلك لم يجز عليه تغير حال في وجوده أو علمه أو قدرته أو حياته.

---

(١) الصافات: ١٥٩.

وإذا كان كذلك لم يكن جسماً ولا جسمانياً لأن الأجسام والجسمانيات محاط التغيرات والتحولات، ومحال الإمكانات والافتقارات والاحتياجات، وإذا لم يكن جسماً ولا جسمانياً لم يطرأ عليه الحالات المختلفة والطوارىء المتنوعة: من غفلة وسهو وغلط وندم وتحير وتأثر وانفعال وهوان وصغر ومغلوبية ونحوها.

وعلى الناقد المتبصر والمتأمل المتدبر أن يقايس بين القولين: ما يقول به القرآن الكريم في إله العالم فيثبت له كل صفة كمال، وينزهه عن كل صفة نقص، وبالآخرة يعده أكبر وأعظم من أن يحكم فيه أفهامنا بما صحبته من عالم الحد والتقدير، وبين ما يثبته العهدان في الباري تعالىٰ بما لا يوجد إلا في أساطير يونان، وخرافات هند القديم والصين، وأمور كان الإنسان الأولي يتوهمها فيتأثر مما قدمه إليه وهمه.

وسادساً: قولهم: إن الله أرسل ابنه المسيح وأمره أن يحل رحماً من الأرحام ليتولد إنساناً وهو إله، وهذا هو القول غير المعقول الذي انتهض لبيان بطلانه القرآن الكريم على ما أوضحناه في البيان السابق فلا نعيد.

ومن المعلوم أن العقل أيضاً لا يساعد عليه فإنك إذا تأملت فيما يجب من الصفات أن يقال باتصاف الواجب تعالىٰ بها كالثبات السرمدي، وعدم التغير، وعدم تحدد الوجود، والإحاطة بكل شيء، والتنزه عن الزمان والمكان وما يتبعهما، وتأملت في تكوّن إنسان من حين كونه نطفة فجنيناً في رحم سواء اعتبرت في معناه تفسير الملكانيين لهذه الكلمة أو تفسير النسطوريين، أو تفسير اليعقوبيين أو غيرهم إذ لا نسبة بين ما له الجسمية وجميع أوصاف الجسمية وآثارها وبين ما ليس فيه جسمية ولا شيء مما يتصف به من زمان أو مكان أو حركة إو غير ذلك فكيف يمكن تعقل الاتحاد بينهما بوجه.

وعدم انطباق القول المذكور على القضايا الضرورية العقلية هو السر فيما يذكره بولس وغيره من رؤسائهم القديسين من تقبيح الفلسفة والإزراء بالأحكام العقلية، يقول بولس: «قد كتب لأهلكن حكمة الحكماء ولأخالفن فهم الفقهاء أين الحكيم أين الكاتب أين مستفحص هذا الدهر بتعمق؟ أو ليس قد حمق الله حكمة هذا العالم ـ إلى أن قال ـ: وإذ اليهود يسألون آية

واليونانيون يطلبون حكمة نكرز نحن المسيح مصلوب» (رسالة بولس ـ الإصحاح الأول) ونظائر هذه الكلمات كثيرة في كلامه وكلام غيره وليست إلا لسياسة النشر والإذاعة والتبليغ والعظة، يوقن بذلك من أرعىٰ نظره في هذه الرسائل والكتب وتعمق في طرائق تكليمها الناس وإلقاء بياناتها إليهم.

وممّا ما مر يظهر ما في قولهم: إنه تعالىٰ معصوم من الذنوب والخطايا فإن الإله الذي صوروه غير مصون عن الخطأ بمعنى الغلط في الإدراك والغلط في الفعل من غير أن ينتهي إلى مخالفة من يجب موافقته.

وأما الذنب والمعصية بمعنى التمرد فيما يجب فيه الطاعة والانقياد فهو غير متصور في حقه تعالىٰ فالعصمة أيضاً غير متصورة في حقه سبحانه.

وسابعاً: قولهم: إنه مذ أن صار إنساناً عاشر الناس معاشرة الإنسان للإنسان حتى تسخر لأعدائه فيه تجويز اتصاف الواجب بحقيقة من حقائق الممكنات حتى يكون إلهاً وإنساناً في عرض واحد فكان من الجائز أن يصير الواجب شيئاً من مخلوقاته أي يتصف بحقيقة كل نوع من هذه الأنواع الخارجية، فتارة يكون إنساناً من الأناسي، وتارة فرساً، وتارة طائراً، وتارة حشرة، وتارة غير ذلك، وتارة يكون أزيد من نوع واحد من الأنواع كالإنسان والفرس والحشرة معاً.

وهكذا يجوز أن يصدر عنه أي فعل فرض من أفعال الموجودات لجواز أن يصير هو ذلك النوع فيفعل فعله المختص به، وكذا يجوز أن يصدر عنه أفعال متقابلة معاً كالعدل والظلم، وأن يتصف بصفات متقابلة كالعلم والجهل، والقدرة والعجز، والحياة والموت والغنىٰ والفقر، تعالى الملك الحق، وهذا غير المحذور المتقدم في الأمر السادس.

وثامناً: قولهم: إنه تحمل الصلب واللعن أيضاً لأن المصلوب ملعون، ماذا يريدون بقولهم: إنه تحمل اللعن؟ وماذا يراد بهذا اللعن؟ أهو هذا اللعن الذي يعرفه العرف واللغة وهو الإبعاد من الرحمة والكرامة أو غير ذلك؟ فإن كان هو الذي نعرفه وتعرفه اللغة فما معنىٰ إبعاده تعالىٰ نفسه من الرحمة أو إبعاد غيره إياه من الرحمة؟ فهل الرحمة إلا الفيض الوجودي وموهبة النعمة والاختصاص بمزايا الوجود؟ فيرجع هذا الإبعاد واللعن

بحسب المعنىٰ إلى الفقر في المال أو الجاه أو نحو ذلك في الدنيا أو الآخرة أو كلتيهما، وحينئذٍ فما معنى لحوق اللعن بالله تعالىٰ وتقدس بأي وجه تصوروه؟ مع أنه الغني بالذات الذي هو يسد باب الفقر عن كل شيء.

والتعليم القرآني على خلاف هذا التعليم العجيب بتمام معنى الكلمة قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾[1]، والقرآن يسميه تعالىٰ بأسماء ويصفه بصفات يستحيل معها عروض أي فقر وفاقة وحاجة ونقيصة وفقد وعدم وسوء وقبح وذل وهوان إلى ساحة قدسه وكبريائه.

فإن قيل: إن اتصافه بالهوان، وحمله اللعن بواسطة اتحاده بالإنسان، وإلا فهو تعالىٰ في نفسه وحيال ذاته أجلّ من أن يعرضه ذلك.

قيل لهم: هل يوجب هذا الاتحاد حمله اللعن واتصافه بهذه الأمور الشاقة حقيقة ومن غير مجاز أولا؟ فإن كان الأول لزم المحذور الذي ذكرناه، وإن كان الثاني عاد الإشكال، أعني أن تولد المسيح لم يوجب انحلال إشكال تزاحم الرحمة والعدل، فإن تحمل غيره تعالىٰ للمصائب وأقسام العذاب واللعن لا يتم أمر الفدية أي صيرورة الله فدية عن أفراد الإنسان، وهو ظاهر.

وثاسعاً: **قولهم:** إن ذلك كفارة لخطايا المؤمنين بعيسىٰ بل لخطايا كل العالم، يدل ذلك على أنهم لم يحصلوا حقيقة معنى الذنوب والخطايا وكيفية استتباعها للعقاب الأخروي وكيف يتحقق هذا العقاب، ولم يعرفوا حقيقة الارتباط بين هذه الذنوب والخطايا وبين التشريع، وما هو موقف التشريع من ذلك، على ما يتكفله البيان القرآني وتعليمه.

فإن الأحكام والقوانين التي يقع فيها المخالفة والتمرد ثم الذنب والخطيئة إنما هي أمور وضعية اعتبارية أُريد بوضعها واعتبارها أن يحفظ مصالح المجتمع الإنساني بالعمل بها والرقوب لها، وأن العقاب المترتب على المعصية والمخالفة إنما هو تبعة ساء اعتبروه ووضعوه ليكون ذلك

---

(١) فاطر: ١٥.

صارفاً للإنسان المكلف عن اقتراف المعصية والتمرد عن الطاعة، هذا ما عند العقلاء البانين للمجتمع الإنساني. لكن التعليم القرآني يعطي في هذا المعنى ما هو أرقى من ذلك وأرق، ويؤيده البحث العقلي على ما مر، وهو أن الإنسان بانقياده للشرع المنصوب له من جانب الله وعدم انقياده له تتهيأ في نفسه حقائق من الصفات الباطنة الحميدة الفاضلة أو الرذيلة الخسيسة الخبيثة، وهذه هي التي تهيىء للإنسان نعمة أُخروية أو نقمة أُخروية اللتين ممثلهما الجنة والنار وحقيقتهما القرب والبعد من الله فالحسنات أو الخطايا تتكي وتنتهي إلى أُمور حقيقية لها نظام حقيقي غير اعتباري.

ومن البين أيضاً أن التشريع الإلهي إنما هو تتمة للتكميل الإلهي في الخلقة، وإنهاء الهداية التكوينية إلى غايتها وهدفها من الخلقة وبعبارة أُخرى، شأنه تعالىٰ إيصال كل نوع إلى كمال وجوده وهدف ذاته ومن كمال وجود الإنسان النظام النوعي الصالح في الدنيا، والحياة الناعمة السعيدة في الآخرة، والطريق إلى ذلك الدين الذي يتكفل قوانين صالحة لإصلاح الاجتماع وجهات من التقرب باسم العبادات يعمل بها الإنسان فينتظم بذلك معاشه ويتهيأ في نفسه ويصلح في ذاته وعمله للكرامة الإلهية في الدار الآخرة، كل ذلك من جهة النور المجعول في قلبه والطهارة الحاصلة في نفسه هذا حق الأمر.

فللإنسان قرب وبعد من الله سبحانه هما الملاكان في سعادته وشقاوته الدائمتين ولصلاح اجتماعه المدني في الدنيا، والدين هو العامل الوحيد في إيجاد هذا القرب والبعد، وجميع ذلك أُمور حقيقية غير مبتنية على اللغو والجزاف.

وإذا فرضنا أن اقتراف معصية واحدة كالأكل من الشجرة المنهية من آدم أوجب له الهلاك الدائم ولا له فحسب بل ولجميع ذريته ثم لم يكن هناك ما يعالج به الداء ويفرج به الهم إلا فداء المسيح فما فائده تشريع الدين قبل المسيح؟ وما فائدة تشريعه معه؟ وما فائدة تشريعه بعده؟!

وذلك أنه لما فرض أن الهلاك الدائم والعقاب الأخروي محتوم من جهة صدور المعصية لا ينفع في صرفه عن الإنسان لا عمل ولا توبة إلا بنحو الفداء لم يكن معنى لتشريع الشرائع وإنزال الكتب وإرسال الرسل من

عند الله سبحانه ولم يزل الوعد والوعيد والإنذار والتبشير خالية عن وجه الصحة فماذا كاد يصلحه هذا السعي بعد وجوب العذاب وحتم الفساد.

وإذا فرض هناك من تكمل بالعمل بالشرائع السابقة (وكم من الأنبياء والربانيين من الأمم السالفة كذلك كالنبي المكرم إبراهيم وموسى عليهما السلام وغيرهما) وقد قضوا وماتوا قبل إدراك زمان الفداء فماذا ترىٰ؟ أترى أنهم ختموا الحياة على الشقاوة أو السعادة؟ وما الذي استقبلهم به الموت وعالم الآخرة؟ استقبلهم بالعقاب والهلاك أم بالثواب والحياة السعيدة؟

مع أن المسيح يصرح بأنه إنما أُرسل لتخليص المذنبين والمخطئين وأما الصلحاء والأخيار فلا حاجة لهم إلى ذلك.

وبالجملة فلا يبقىٰ لتشريع الشرائع الإلهية وجعل النواميس الدينية قبل فداء المسيح غرض صحيح يصونه عن العبث واللغوية، ولا لهذا الفعل العجيب من الله (تعالىٰ وتقدس) محمل حق إلا أن يقال إنه تعالىٰ كان يعلم أن لو لم يرفع محذور خطيئة آدم لم ينفعه شيء من هذه التشريعات قط، وإنما شرع هذه الشرائع على سبيل الاحتياط برجاء أنه سيوفق يوماً لرفع المحذور ويجني ثمرة تشريعه بعد ذلك، ويبلغ غايته ويظفر بأمنيته إذ ذاك فشرع ما شرع بكتمان الأمر عن الأنبياء والناس، وإخفاء أن ههنا محذوراً لو لم يرتفع خابت مساعي الأنبياء والمؤمنين كافة، وذهبت الشرائع سدى، وإظهار أن التشريع والدعوة على الجد والحقيقة.

فغر الناس وغر نفسه: أما غرور الناس فبإظهار أن العمل بالشرائع يضمن مغفرتهم وسعادتهم، وأما غرور نفسه فلأن التشريع بعد رفع المحذور بالفداء يعود لغواً لا أثر له في سعادة الناس، كما أنه من غير رفع المحذور كان لا أثر له، فهذا حال تشريع الدين قبل وصول أوان الفداء وتحققه! وأما في زمان الفداء وبعده فالأمر في صيرورة التشريع والدعوة الدينية والهداية الهية لغواً أوضح وأبين، فما هي الفائدة في الإيمان بالمعارف الحقة والإتيان بالأعمال الصالحة بعد ارتفاع محذور الخطيئة، واستيجاب نزول المغفرة والرحمة على الناس مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، من غير فرق بين أتقى الأتقياء وأشقى الأشقياء في أنهما يشتركان في الهلاك المؤبد مع بقاء الخطيئة، وفي الرحمة اللازمة مع ارتفاعها بالفداء

والمفروض أنه لا ينفع أي عمل صالح في رفعها لولا الفداء.

فإن قيل: إن الفداء إنما ينفع في حق من آمن بالمسيح فللدعوة ثمرة كما يصرح به المسيح في بشارته.

قيل: مضافاً إلى أنه مناقض لما تقدمت الإشارة إليه من كلام يوحنا في رسالته إنه هدم لجميع الأُصول الماضية إذ لا يبقىٰ من الناس ـ آدم فمن دونه ـ في حظيرة النجاة والخلاص إلا شرذمة منهم، وهم المؤمنون بالمسيح والروح بل واحدة من طوائفهم المختلفة في الأُصول وأما غيرهم فهم باقون على الهلاك الدائم، فليت شعري إلى ما يؤول أمر الأنبياء المكرمين قبل المسيح وأمر المؤمنين من أُممهم؟ وبماذا يتصف الدعوة التي جاؤوا بها من كتاب وحكم، أبالصدق أم بالكذب؟ والأناجيل تصدق التوراة ودعوتها، وليس فيها دعوة إلى قصة الروح والفداء! وهل هي تصدق ما هو صادق أو تصدق الكاذب؟

فإن قيل: إن الكتب السماوية السابقة فيما نعلم تبشر بالمسيح، وهذه منهم دعوة إجمالية إلى المسيح وإن لم تفصل القول في كيفية نزوله وفدائه فلم يزل الله يبشر أنبياءه بظهور المسيح ليؤمنوا به ويطيبوا نفساً بما سيصنعه.

قيل: **أولاً**: إن القول به قبل موسىٰ تخرص على الغيب، على أن البشارة لو حقت فإنما هي بشارة بالخلاص وليست بدعوة إلى الإيمان والتدين به.

وثانياً: إن ذلك لا يدفع محذور لغوية الدعوة في فروع الدين من الأخلاق والأفعال حتى من المسيح نفسه، والأناجيل مملوءة بذلك.

وثالثاً: إن محذور الخطيئة وانتقاض الغرض الإلهي باقٍ على حاله فإن الله تعالىٰ إنما خلقهم ليرحمهم جميعاً ويبسط النعمة والسعادة على كافتهم وقد آل أمره إلى عقابهم والغضب عليهم وإهلاكهم للأبد إلا شرذمة منهم.

فهذه نبذة من وجوه فساده عند العقل، ويؤيده ويجري عليه القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، فبين أن كل

---

(١) طه: ٥٠.

شيء مهدي إلى غايته وما يبتغيه بوجوده، والهداية تعم التكوينية والتشريعية فالسنة الإلهية جارية على بسط الهداية، ومنها هداية الإنسان هداية دينية.

ثم قال تعالىٰ وهو أول هداية دينية ألقاها إلى آدم ومن معه حين إهباطهم من الجنة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1]، وما يشتمل عليه بمنزلة التلخيص لتفاصيل الشرائع إلى يوم القيامة ففيه تشريع ووعد ووعيد عليه من غير تردد وارتياب، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْحَقَّ﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾[3]، فبين أنه لا يتردد فيما جزم به من الأمر ولا ينقض ما أنفذه من الأمر فما يقضيه هو الذي يمضيه، وإنما يفعل ما قاله، فلا ينحرف فعله عن المجرى الذي أراد عليه لا من جهته نفسه بأن يريد شيئاً ثم يتردد في فعله، أو يريده ثم يبدو له فلا يفعله، ولا جهة غيره بأن يريد شيئاً ويقطع به ويعزم عليه ثم يمنعه مانع من العقل أو يبدو إشكال يعترض عليه في طريق الفعل فكل ذلك من قهر القاهر، وغلبة المانع الخارجي، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[4]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[5]، وقال تعالىٰ حكاية عن موسىٰ: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[6]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾[7].

تدل هذه الآيات وما يشابهها على أنه تعالىٰ إنما خلق الخلق ولم يغفل عن أمره، ولم يجهل شيئاً مما سيظهر منه، ولم يندم على ما فعله، ثم شرع لهم الشرائع تشريعاً جدياً فاصلاً من غير هزل ولا خوف ولا رجاء، ثم

---

(١) البقرة: ٣٩.
(٢) ص: ٨٤.
(٣) ق: ٢٩.
(٤) يوسف: ٢١.
(٥) الطلاق: ٣.
(٦) طٰه: ٥٢.
(٧) المؤمن: ١٧.

إنه يجزي كل ذي عمل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر من غير أن يغلبه تعالىٰ غالب، أو يحكم عليه حاكم من شريك أو فدية أو خلة أو شفاعة من دون إذنه فكل ذلك ينافي ملكه المطلق لما سواه من خلقه.

وعاشراً: ما ذكروه من حديث الفداء وحقيقة الفداء أن يلزم الإنسان أو ما يتعلق به من نفس أو مال أثر سيىء من قتل أو فناء فيعوّض بغيره أيّ شيء كان ليصان بذلك من لحوق ذلك الأثر به كما يفدى الإنسان الأسير بنفس أو مال وكما تفدى الجرائم والجنايات بالأموال، ويسمى البدل فدية وفداء، فالتفدية نوع معاملة ينتزع بها حق صاحب الحق وسلطنته عن المفدي عنه إلى الفداء فيستنقذ به المفدي عنه من أن يلحق به الشر.

ومن هنا يظهر أن الفداء غير معقول في ما يتعلق بالله سبحانه فإن السلطنة الإلهية ـ على خلاف السلطنة الوضعية الاعتبارية الإنسانية ـ سلطنة حقيقية واقعية غير جائزة التبديل مستحيلة الصرف، فالأشياء بأعيانها وآثارها موجودة قائمة بالله سبحانه وكيف يتصور تغيير الواقع عما هو عليه فليس إلا أمراً لا يمكن تعقله فضلاً عن أن يمكن وقوعه، وهذا بخلاف الملك والسلطنة والحق وأمثالها الدائرة بيننا معاشر أبناء الاجتماع فإنها وأمثالها أمور وضعية اعتبارية زمامها بأيدينا، نحن المجتمعين نبطلها مرة، ونبدلها أخرىٰ على حسب تغير مصالحنا في الحياة والمعاش.

وقد نفى الله سبحانه الفدية بالخصوص في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾[1]، وقد تقدم فيما مر أن من هذا القبيل قول المسيح فيما يحكيه الله تعالىٰ عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إلى أن قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]، فإن قوله ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ﴾ «إلخ» في معنىٰ أنه لم يكن لي شأن

---

(١) الحديد: ١٥.

(٢) المائدة: ١١٨.

فيهم إلا ما أنت وظفته علي وعينته وهو تبليغ الرسالة، والشهادة على الأعمال ما دمت فيهم، وأما هلاكهم ونجاتهم وعذابهم ومغفرتهم فإنما ذلك إليك من غير أن يرتبط بي شيء من ذلك أو يكون لي شأن فيه فأملك لهم شيئاً منك أخرجهم به من عذابك أو تسلّطك عليهم، وفي ذلك نفي الفداء إذ لو كان هناك فداء لم يصح تبرّيه من أعمالهم وإرجاع العذاب والمغفرة معاً إلى الله سبحانه بنفي ارتباطهما به أصلاً. وفي معنى هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1]، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[3]، فإن العدل في الآية الأولىٰ والبيع في الآية الثانية والعصمة من الله في الآية الثالثة مما ينطبق عليه الفداء فينفيها نفي الفداء.

نعم أثبت القرآن الشريف في مورد المسيح الشفاعة بدل ما يثبتونه من الفداء والفرق بينهما أن الشفاعة نوع من ظهور قرب الشفيع ومكانته لدى المشفوع عنده من غير أن يملك الشفيع منه شيئاً أو يسلب عنه ملك أو سلطنة، أو يبطل حكمه الذي خالفه المجرم أو يبطل قانون المجازاة بل إنما هو نوع دعاء واستدعاء من الشفيع لتصرف المشفوع عنده وهو الرب ما يجوز له من التصرف في ملكه، وهذا التصرف الجائز مع وجود الحق هو العفو الجائز للمولىٰ مع كونه ذا حق أن يعذبه لمكان المعصية وقانون العقوبة.

فالشفيع يحضه ويستدعي منه أن يعمل بالعفو والمغفرة في مورد استحقاق العذاب للمعصية من غير أن يسلب من المولىٰ ملك أو سلطان بخلاف الفداء فإنه كما مر معاملة يتبدل به سلطنة من شيء إلى شيء آخر هو الفداء ويخرج المفدي عنه عن سلطان القابل الآخذ للفداء.

ويدل على هذا الذي ذكرناه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

---

(١) البقرة: ٤٨.
(٢) البقرة: ٢٥٤.
(٣) المؤمن: ٣٣.

دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[1]، فإنه صريح في وقوع الشفاعة من المستثنى، والمسيح عليه السلام ممن كانوا يدعونهم من دون الله، وقد نص القرآن بأن الله علمه الكتاب والحكمة، وبأنه من الشهداء يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[2]، قال تعالىٰ حكاية عنه: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[3]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[4]، فالآيات كما ترىٰ تدل على كون المسيح عليه السلام من الشفعاء...

٦ ـ من أين نشأت هذه الآراء؟

القرآن ينفي أن يكون المسيح عليه السلام هو الملقي لهذه الآراء والعقائد إليهم والمروج لها فيما بينهم بل إنهم تعبّدوا لرؤسائهم في الدين وسلموا الأمر إليهم وهم نقلوا إليهم عقائد الماضين من الوثنيين كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5]، الآيات. وهؤلاء الكافرون الذين يشير إليهم بقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ ليسوا هم عرب الجاهلية في وثنيتهم حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله فإن قولهم بأن لله ابناً أقدم تاريخاً من تماسهم مع العرب واختلاطهم بهم وخاصة قول اليهود بذلك مع أن ظاهر قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أنهم سابقون فيه على اليهود والنصارى، على أن اتخاذ الأصنام في الجاهلية مما نقل إليهم من غيرهم ولم يكونوا بمبتكرين في ذلك.

على أن الوثنية من الروم واليونان ومصر وسورية والهند كانوا أقرب

---

(١) الزخرف: ٨٦.
(٢) آل عمران: ٤٨.
(٣) المائدة: ١١٧.
(٤) النساء: ١٥٩.
(٥) التوبة: ٣١.

إلى أهل الكتاب القاطنين بفلسطين وحواليه، وانتقال العقائد والمزاعم الدينية إليهم منهم أسهل، والأسباب بذلك أوفق. فليس المراد بالذين كفروا الذين ضاهاهم أهل الكتاب في القول بالبنوة إلا قدماء وثنية الهند والصين ووثنية الغرب من الروم ويونان وشمال إفريقيا كما أن التاريخ يحكي عنهم نظاهر هذه المزاعم الموجودة في أهل الكتاب من اليهود والنصارى من البنوة والأبوة والتثليث وحديث الصلب والفداء وغير ذلك، وهذا من الحقائق التاريخية التي ينبه عليها القرآن الشريف.

ونظير الآيات السابقة في الدلالة على هذه الحقيقة قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾[1]، فإن الآية تبين أن غلوهم في الدين بغير الحق إنما طرأ عليهم بالتقليد واتباع أهواء قوم ضالين من قبلهم.

وليس المراد بهؤلاء القوم أحبارهم ورهبانهم، فإن الكلام مطلق غير مقيد ولم يقل: قوم منكم، وأضلوا كثيراً منكم، وليس المراد بهم عرب الجاهلية كما تقدم، على أنه وصف هؤلاء القوم بأنهم أضلوا كثيراً أي كانوا أئمة ضلال مقلدين متبعين (بصيغة المفعول فيهما) ولم يكن العرب يومئذٍ إلا شرذمة مضطهدين أميين ليس عندهم من العلم والحضارة والتقدم ما يتبعهم به وفيه غيرهم من الأمم كفارس والروم والهند وغيرهم.

فليس المراد بهؤلاء القوم المذكورين إلا وثنية الصين والهند والغرب كما تقدم.

٧ ـ ما هو الكتاب الذي ينتسب إليه أهل الكتاب وكيف هو؟

الرواية وإن عدت المجوس من أهل الكتاب، ولازم ذلك أن يكون لهم كتاب خاص أو ينتموا إلى واحد من الكتب التي يذكرها القرآن ككتاب نوح، وصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، لكن

(١) المائدة: ٧٧.

القرآن لا يذكر شأنهم ولا يذكر كتاباً لهم، والذي عندهم من «أوستا» لا ذكر منه فيه، وليس عندهم من سائر الكتب اسم.

وإنما يطلق القرآن «أهل الكتاب» فيما يطلق، ويريد بهم اليهود والنصارى لمكان الكتاب الذي أنزله الله عليهم.

والذي عند اليهود من الكتب المقدسة خمسة وثلاثون كتاباً منها توراة موسى مشتملة على خمسة أسفار ومنها كتب المؤرخين اثنا عشر كتاباً ومنها كتاب أيوب، ومنها زبور داود، ومنها ثلاثة كتب لسليمان، ومنها كتب النبوات سبعة عشر كتاباً.

ولم يذكر القرآن من بينها إلا توراة موسى وزبور داود عليهما السلام.

والذي عند النصارى من مقدسات الكتب، الأناجيل الأربعة: وهي إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، ومنها كتاب أعمال الرسل ومنها عدة من الرسائل ومنها رؤيا يوحنا.

ولم يذكر القرآن شيئاً من هذه الكتب المقدسة المختصة بالنصارى إلا أنه ذكر أن هناك كتاباً سماوياً أنزله الله على عيسى بن مريم يسمى بالإنجيل، وهو إنجيل واحد ليس بالأناجيل، والنصارى وإن كانوا لا يعرفونه ولا يتعرفون به إلا أن في كلمات رؤسائهم لقيطات تتضمن الاعتراف بأنه كان للمسيح كتاب اسمه إنجيل.

والقرآن مع ذلك لا يخلو من إشعار بأن بعضاً من التوراة الحقة موجود فيما عند اليهود، وكذا بعض من الإنجيل الحق موجود في أيدي النصارى، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[2]، والدلالة ظاهرة.

---

(١) المائدة: ٤٣.

(٢) المائدة: ١٤.

٨ ـ عيسىٰ عبر التاريخ:

أ ـ قصة التوارة الحاضرة:

بنو إسرائيل هم الأسباط من آل يعقوب كانوا يعيشون أولاً عيشة القبائل البدويين ثم أشخصهم الفراعنة إلى مصر وكانوا يعامل معهم معاملة الأسراء المملوكين حتى نجاهم الله بموسىٰ من فرعون وعمله.

وكانوا في زمن موسى يسيرون مسير الحياة بالإمام وهو موسى وبعده يوشع عليه السلام ثم كانوا برهة من الزمان يدبر أمرهم القضاء مثل إيهود وجدعون وغيرهما.

وبعد ذلك يشرع فيهم عصر الملك وأول الملوك فيهم شاؤل وهو الذي يسميه القرآن الشريف بطالوت ثم داود ثم سليمان.

ثم انقسمت المملكة وانشعبت القدرة ومع ذلك ملك فيهم ملوك كثيرون كرحبعام وإبيام ويربعام ويهوشافاط ويهورام وغيرهم بضعة وثلاثون ملكاً.

ولم تزل تضعف القدرة بعد الانقسام حتى تغلبت عليهم ملوك بابل وتصرفوا في أورشليم وهو بيت المقدس، وذلك في حدود سنة ستمأة قبل المسيح، وملك بابل يومئذٍ بخت نصر (بنو كد نصر) ثم تمردت اليهود عن طاعته فأرسل إليهم عساكره فحاصروهم ثم فتحوا البلدة،ونهبوا خزائن الملك، وخزائن الهيكل (المسجد الأقصىٰ) وجمعوا من أغنيائهم وأقويائهم وصنّاعهم ما يقرب من عشرة آلاف نفس وساروا بهم إلى بابل، وما أبقوا في المحل إلا الضعفاء والصعاليك ونصب بخت نصر «صدقيا» وهو آخر ملوك بني إسرائيل ملكاً عليهم، وعليه الطاعة لبخت نصر.

وكان الأمر على ذلك قريباً من عشر سنين حتى وجد صدقيا بعض القوة والشدة، واتصل بعض الاتصال بواحد من فراعنة مصر فاستكبر وتمرد عن طاعة بخت نصر.

فأغضب ذلك بخت نصر غضباً شديداً فساق إليهم الجيوش وحاصر

بلادهم فتحصنوا عنه بالحصون، وتمادى بهم التحصن قريباً من سنة ونصف حتى ظهر فيهم القحط والوباء.

وأصر بخت نصر على المحاصرة حتى فتح الحصون، وذلك في سنة خمسمأة وست وثمانين قبل المسيح، وقتل نفوسهم، وخرب ديارهم وخربوا بيت الله، وأفتوا كل آية وعلامة دينية، وبدلوا هيكلهم تلاً من تراب، وفقدت عند ذلك التوراة والتابوت الذي كانت تجعل فيه. وبقي الأمر على هذا الحال خمسين سنة تقريباً وهم قاطنون ببابل وليس من كتابهم عين ولا أثر، ولا من مسجدهم وديارهم إلا تلال ورياع.

ثم لما جلس كورش من ملوك فارس على سرير الملك، وكان من أمره مع البابليين ما كان، وفتح بابل ودخله أطلق أسراء بابل من بني إسرائيل وكان عزرا المعروف من المقربين عنده فأمّره عليهم، وأجاز له أن يكتب لهم كتابهم التوراة، ويبني لهم الهيكل ويعيدهم إلى سيرتهم الأولى وكان رجوع عزرا بهم إلى بيت المقدس سنة أربعمأة وسبعة وخمسين قبل المسيح، وبعد ذلك جمع عزرا كتب العهد العتيق وصححها، وهي التوراة الدائرة اليوم.

وأنت ترى بعد التدبر في القصة أن سند التوراة الدائرة اليوم مقطوعة غير متصلة بموسىﷺ إلا بواحد (وهو عزرا) لا نعرفه أولاً، ولا نعرف كيفية اطلاعه وتعمقه ثانياً، ولا نعرف مقدار أمانته ثالثاً، ولا نعرف من أين أخذ ما جمعه من أسفار التوراة رابعاً، ولا ندري بالاستناد إلى أي مستند صحح الأغلاط الواقعة أو الدائرة خامساً.

وقد أعقبت هذه الحادثة المشؤومة أثراً مشؤوماً آخر وهو إنكار عدة من باحثي المؤرخين من الغربيين وجود موسى وما يتبعه، وقولهم: إنه شخص خيالي كما قيل نظيره في المسيح عيسى بن مريمﷺ، لكن ذلك لا يسع لمسلم فإن القرآن الشريف يصرح بوجودهﷺ وينص عليه.

ب ـ قصة المسيح والإنجيل:

اليهود مهتمون بتاريخ قوميتهم، وضبط الحوادث الظاهرة في الأعصار التي مرت بهم، ومع ذلك فإنك لو تتبعت كتبهم ومسفوراتهم لم تعثر فيها

على ذكر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام لا على كيفية ولادته، ولا على ظهوره ودعوته، ولا على سيرته والآيات التي أظهرها الله على يديه، ولا على خاتمة حياته من موت أو قتل أو صلب أو غير ذلك، فما هو السبب في ذلك؟ وما هو الذي أوجب خفاء أمره عليهم أو إخفائهم أمره.

والقرآن يذكر عنهم أنهم قذفوا مريم ورموها بالبهتان في ولادة عيسىٰ وأنهم ادعوا قتل عيسى، قال تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[1]. فهل كانت دعواهم تلك مستندة إلى حديث دائر بينهم كانوا يذكرونه بين قصصهم القومية من غير أن يكون مودعاً في كتاب؟ وعند كل أمة أحاديث دائرة من واقعيات وأساطير لا اعتبار بها ما لم تنته إلى مآخذ صحيحة قويمة.

أو أنهم سمعوا من النصارى الذكر المكرر من المسيح وولادته وظهوره ودعوته أخذوا ذلك من أفواههم وباهتوا مريم وادعوا قتل المسيح؟ لا طريق إلى استبانة شيء من ذلك غير أن القرآن ـ كما يظهر بالتدبر في الآية السابقة ـ لا ينسب إليهم صريحاً إلا دعوى القتل دون الصلب، ويذكر أنهم على ريب من الأمر وأن هناك اختلافاً.

وأما حقيقة ما عند النصارى من قصة المسيح وأمر الإنجيل والبشارة فهي أن قصته عليه السلام وما يتعلق بها تنتهي عندهم إلى الكتب المقدسة عندهم وهي الأناجيل الأربعة التي هي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وكتاب أعمال الرسل للوقا، وعدة رسائل لبولس وبطرس ويعقوب ويوحنا ويهوذا، واعتبار الجميع ينتهي إلى اعتبار الأناجيل فلنشتغل بها:

أما إنجيل متى فهو أقدم الأناجيل في تصنيفه وانتشاره ذكر بعضهم أنه صنف سنة ٣٨ الميلادية، وذكر آخرون أنه كتب ما بين سنة ١٥٠ إلى سنة ٦٠ فهو مؤلف بعد المسيح.

---

(١) النساء: ١٥٧.

والمحققون من قدمائهم ومتأخريهم على أنه كان أصله مكتوباً بالعبرانية ثم ترجم إلى اليونانية وغيرها، أما النسخة الأصلية العبرانية فمفقودة، وأما الترجمة فلا يدرى حالها ولا يعرف مترجمها.

وأما إنجيل مرقس: فمرقس هذا كان تلميذاً لبطرس، ولم يكن من الحواريين وربما ذكروا أنه إنما كتب إنجيله بإشارة بطرس وأمره وكان لا يرىٰ إلهية المسيح، ولذلك ذكر بعضهم أنه إنما كتب إنجيله للعشائر وأهل القرى فعرف المسيح تعريف رسول إلهي مبلغ لشرائع الله، وكيف كان فقد كتب إنجيله سنة ٦١ ميلادية.

وما إنجيل لوقا: فلوقا هذا لم يكن حوارياً ولا رأى المسيح وإنما تلقن النصرانية من بولس، وبولس كان يهودياً متعصباً على النصرانية يؤذي المؤمنين بالمسيح ويقلب الأمور عليهم، ثم اتفق مفاجأة أن ادعى أنه صرع وفي حال الصراع لمسه المسيح ولامه وزجره عن الإساءة إلى متبعيه وأنه آمن بالمسيح وأرسله المسيح يبشر بإنجيله.

وبولس هذا هو الذي شيد أركان النصرانية الحاضرة على ما هي عليه فبنى التعليم على أن الإيمان بالمسيح كافٍ في النجاة من دون عمل، وأباح لهم أكل الميتة ولحم الخنزير ونهىٰ عن الختنة وكثير مما في التوراة مع أن الإنجيل لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ولم يحلل إلا أشياء معدودة وبالجملة إنما جاء عيسىٰ ليقوم شريعة التوراة ويرد إليها المنحرفين والفاسقين لا ليبطل العمل ويقصر السعادة على الإيمان الخالي.

وقد كتب لوقا إنجيله بعد إنجيل مرقس. وذلك بعد موت بطرس وبولس، وقد صرح جمع بأن إنجيله ليس كتاباً إلهياً كسائر الأناجيل كما يدل عليه ما وقع في مبتدأ إنجيله.

وأما إنجيل يوحنا فقد ذكر كثير من النصارى أن يوحنا هذا هو يوحنا ابن زبدي الصياد أحد التلاميذ الاثني عشر (الحواريين) الذي كان يحبه المسيح حباً شديداً.

وذكروا أن شيرينطوس، و«أبيسون» وجماعتهما لما كانوا يرون أن المسيح ليس إلا إنساناً مخلوقاً لا يسبق وجوده وجود أمه اجتمعت أساقفة

آسيا وغيرهم في سنة ٩٦ ميلادية عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب ما لم يكتبه الآخرون في أناجيلهم ويبين بنوع خصوصي لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم، وقد اختلفت كلماتهم في السنة التي أُلف فيها هذا الإنجيل فمن قائل إنها سنة ٦٥، وقائل إنها سنة ٩٦، وقائل إنها سنة ٩٨.

وقال جمع منهم إنه ليس تأليف يوحنا التلميذ: فبعضهم على أنه تأليف طالب من طلبة المدرسة الإسكندرية، وبعضهم على أن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه بل إنما صنفه بعضهم في ابتداء القرن الثاني، ونسبه إلى يوحنا ليعتبره الناس، وبعضهم على أن إنجيل يوحنا كان في الأصل عشرين باباً فألحقت كنيسة «أفاس» الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا فهذه حال الأناجيل الأربعة. وإذا أخذنا بالقدر المتيقن من هذه الطرق انتهت إلى سبعة رجال هم: متى، مرقس لوقا، يوحنا، بطرس، بولس، يهوذا. ينتهي ركونهم كله إلى هذه الأناجيل الأربعة وينتهي الأربعة إلى واحد هو أقدمها وأسبقها وهو إنجيل متى، وقد مر أنه ترجمة مفقودة الأصل لا يدرى من الذي ترجمه؟ وكيف كان أصله وعلى ماذا كان يبني تعليمه، أبرسالة المسيح أم بألوهيته.

وهذا الإنجيل الموجود يترجم أنه ظهر في بني إسرائيل رجل يدعىٰ عيسى بن يوسف النجار وأقام الدعوة إلى الله، وكان يدعي أنه ابن الله مولود من غير أب بشري وأن أباه أرسله ليفدي به الناس عن ذنوبهم بالصلب والقتل، وأنه أحيى الميت، وأبرأ الأكمه والأبرص، وشفى المجانين بإخراج الجن من أبدانهم، وأنه كان له اثنا عشر تلميذاً: أحدهم متى صاحب الإنجيل بارك لهم وأرسلهم للدعوة وتبليغ الدين المسيحي «إلخ».

فهذا ملخص ما تنتهي إليه الدعوة المسيحية على انبساطها على شرق الأرض وغربها، وهو لا يزيد على خبر واحد مجهول الاسم والرسم مبهم العين والوصف.

وهذا الوهن العجيب في مبدأ القصة هو الذي أوجب لبعض أحرار الباحثين من أوروبا أن ادعىٰ أن المسيح عيسى ابن مريم شخص خيالي صوره بعض النزعات الدينية على حكومات الوقت أولها، وتأيد ذلك

بموضوع خرافي آخر يشبهه كل الشبه في جميع شؤون القصة، وهو موضوع «كرشنا» الذي تدعي وثنية الهند القديمة أنه ابن الله نزل عن لاهوته، وفدى الناس بنفسه صلباً ليخلصهم من الأوزار والخطايا كما يدعى في عيسى المسيح حذو النعل بالنعل (كما سيجيء ذكره).

وأوجب لآخرين من منتقدي الباحثين أن يذهبوا إلى أن هناك شخصين مسميين بالمسيح: المسيح غير المصلوب، والمسيح المصلوب، وبينهما من الزمان ما يزيد على خمسة قرون.

وأن التاريخ الميلادي الذي سنتنا هذه سنة ألف وتسعمأة وستة وخمسين منه لا ينطبق على واحد منهما بل المسيح الأول غير المصلوب يتقدم عليه بما يزيد على مأتين وخمسين سنة وقد عاش نحواً من ستين سنة، والمسيح الثاني المصلوب يتأخر عنه بما يزيد على مأتين وتسعين سنة، وقد عاش نحواً من ثلاث وثلاثين سنة.

على أن عدم انطباق التاريخ الميلادي على ميلاد المسيح في الجملة مما لم يسع للنصارى إنكاره وهو سكتة تاريخية.

على أن ههنا أموراً مريبة موهمة أخرى فقد ذكروا أنه كتب في القرنين الأولين من الميلاد أناجيل كثيرة أخرى ربما أنهوها إلى نيف ومئة من الأناجيل، والأناجيل الأربعة منها، ثم حرمت الكنيسة جميع تلك الأناجيل إلا الأناجيل الأربعة التي عرفت قانونية لموافقة متونها تعليم الكنيسة.

ومن جملة الأناجيل المتروكة إنجيل برنابا الذي ظهرت نسخة منها منذ سنين فترجمت إلى العربية والفارسية، وهو يوافق في عامة قصصه ما قصه القرآن في المسيح عيسى ابن مريم.

ومن العجيب أن المواد التاريخية المأثورة عن غير اليهود أيضاً ساكتة عن تفاصيل ما ينسبه الإنجيل إلى الدعوة المسيحية من حديث البنوة والفداء وغيرهما، ذكر المؤرخ الأمريكي الشهير «هندريك ويلم وان لون» في تأليفه في تاريخ البشر كتاباً كتبه الطبيب «إسكر لابيوس كولتلوس» الرومي سنة ٦٢ الميلادية إلى ابن أخيه «جلاديوس أنـا» وكان جندياً في عسكر الروم

بفلسطين، يذكر فيه أنه عاد مريضاً برومية يسمى بولس فأعجبه كلامه وقد كان بولس كلمه بالدعوة المسيحية، وذكر له طرفاً من أخبار المسيح ودعوته. ثم يذكر أنه ترك بولس ولم يره حتى سمع بعد حين أنه قتل في طريق «أوستى» ثم يسأل ابن أخيه أن يبحث عن أخبار هذا النبي الإسرائيلي الذي كان يذكره بولس، وعن أخبار بولس نفسه، ويكتب إليه ما بلغه من ذلك. فكتب إليه «جلاديوس أنسا» بعد ستة أسابيع من معسكر الروم بأورشليم: «إني سألت عدة من شيوخ البلد ومعمريهم عن عيسى المسيح فوجدتهم لا يحسنون مجاوبتي فيما أسألهم [هذا والسنة سنة ٦٢ ميلادية وهم شيوخ!].

حتى لقيت بياع زيتون فسألته هل يعرفه؟ فأنعم لي في الجواب ثم دلني على رجل اسمه يوسف، وذكر أنه كان من أتباعه ومحبيه وأنه خبير بقصصه بصير بأخباره يستطيع أن يجيبك فيما تسأله عنه.

فلقيت يوسف اليوم بعدما تفحصت أياماً فوجدته شيخاً هرماً وقد كان قديماً يصطاد السمك في بعض البحيرات من هذه الناحية.

كان الرجل على كبر سنه صحيح المشاعر جيد الحافظة وقص لي جميع الأخبار والقضايا الحادثة في ذلك الأوان، أوان الاغتشاش والفتنة. ذكر أن فونتيوس فيلاطوس كان حاكماً على سامرا ويهوديه في عهد القيصر «تي بريوس». فاتفق أن وقع أيام حكومته فتنة في أورشليم فسافر فونتيوس فيلاطوس إليه لإخماد ما فيه من نار الفتنة وكانت الفتنة هي ما شاع يومئذٍ أن ابن نجار من أهل الناصرة يدعو الناس ويستنهضهم على الحكومة.

فلما تحققوا أمره تبين أن ابن النجار المتهم شاب عاقل متين لم يرتكب ما يوجب عليه سياسة غير أن رؤساء المذهب من اليهود كانوا يخالفونه ويباغضونه بأشد ما يكون، وقد قالوا لفيلاطوس إن هذا الشاب الناصري يقول: لو أن يونانياً أو رومياً أو فلسطينياً عامل الناس وعاشرهم بالعدالة والشفقة كان عند الله كمن صرف عمره في مطالعة كتاب الله وتلاوة آياته.

وكأن هذه التعرضات والاقتراحات لم تؤثر في فيلاطوس أثرها لكنه

لما سمع ازدحام الناس قبال المعبد وهم يريدون أن يقبضوا على عيسى وأصحابه ويقطعوهم إرباً إرباً رأى أن الأصلح أن يقبض هو على هذا الشاب النجار ويسجنه حتى لا يقتل بأيدي الناس في غوغائهم. وكان فيلاطوس لم يتضح له سبب ما ينقمه الناس من عيسى كل الاتضاح، وكلما كلم الناس في أمره وسألهم واستوضحهم علت أصواتهم وتنادوا: «هو كافر» «هو ملحد» «هو خائن» فلم ينته الأمر إلى طائل.

حتى استقر رأي فيلاطوس أن يكلم عيسى بنفسه فأشخصه وكلمه وسأله عما يقصده بما يبلغه من الدين، فأجابه عيسى أنه لا يهتم بأمر الحكومة والسياسة ولا له في ذلك غرض، وأنه يهتم بالحياة الروحانية أكثر مما يهتم بأمر الحياة الجسمانية، وأنه يعتقد أن الإنسان يجب أن يحسن إلى الناس ويعبد الله الفرد الواحد وحده الذي هو في حكم الأب لجميع أرباب الحياة من المخلوقات.

وكان فيلاطوس ذا خبرة في مذاهب الرواقيين وسائر فلاسفة اليونان فكأنه لم ير في ما كلمه به عيسى موضع غمضة، ولا محل مؤاخذة ولذلك عزم ثانياً أن يخلص هذا النبي السليم المتين من شر اليهود، وسوّف في حكم قتله وإنجازه.

لكن اليهود لم يرضوا بذلك، ولم يتركوه على حاله بل أشاعوا عليه أنه فتن بأكاذيب عيسى وأقاويله وأن فيلاطوس يريد الخيانة على قيصر، وأخذوا يستشهدون عليه ويسجلون الطوامير على ذلك يريدون به عزله من الحكومة، وقد كان برز قبل ذلك فتن وانقلابات في فلسطين. والقوى المؤمنة القيصرية قليلة العدة لا تقوىٰ على إسكات الناس فيها كل القوة.

وكان على الحكام وسائر المأمورين من ناحية قيصر أن لا يعاملوا الناس بما يجلب شكواهم وعدم رضاهم.

فلهذه الأسباب لم ير فيلاطوس بداً من أن يفدي هذا الشاب المسجون للأمن العام، ويجيب الناس فيما سألوه من قتله.

وأما عيسى فإنه لم يجزع من الموت بل استقبله على شهامة من نفسه، وقد عفا قبل موته عمن تسبب إلى قتله من اليهود ثم قضى به على الصليب

والناس يسخرون منه ويشتمونه ويسبونه.

قال (جلاديوس أنسا) هذا ما قص لي يوسف من قصة عيسى ودموعه تجري على خديه، وحين ودعني للمفارقة قدمت إليه شيئاً من المسكوك الذهبي لكنه أبىٰ أن يأخذه، وقال لي يوجد ههنا من هو أفقر مني فأعطه إياه.

وسألته عن بولس رفيقك المعهود، فما كان يعرفه معرفة تامة والقدر الذي تبين من أمره أنه كان رجلاً خياماً ثم ترك شغله واشتغل بالتبليغ لهذا المذهب الجديد مذهب الرب الرؤوف الرحيم الإله الذي بينه وبين «يهوه» إله يهود الذي لا نزال نسمعه من علماء اليهود من الفرق ما هو أبعد مما بين السماء والأرض.

والظاهر أن بولس سافر أولاً إلى آسيا الصغرى ثم إلى اليونان وأنه كان يقول للعبيد والأرقاء إنهم جميعاً أبناء لأب يحبهم ويرأف بهم، وإن السعادة ليست تخص بعض الناس دون بعض بل تعم جميع الناس من فقير وغني بشرط أن يعاشروا على المؤاخاة ويعيشوا على الطهارة والصداقة، انتهى ملخصاً.

هذه عامة فقرات هذا الكتاب مما يرتبط بما نحن فيه من البحث.

وبالتأمل في جمل مضامين هذا الكتاب يتحصل للمتأمل أن ظهور الدعوة المسيحية كيف كان في بني إسرائيل بعيد عيسىﷺ وأنه لم يكن إلا ظهور دعوة نبوية بالرسالة من عند الله لا ظهور دعوة إلهية بظهور اللاهوت ونزولها إليهم وتخليصهم بالفداء!

ثم إن عدة من تلامذة عيسى أو المنتسبين إليه كبولس وتلامذة تلامذتهم سافروا بعد وقعة الصلب إلى مختلف أقطار الأرض من الهند وإفريقية ورومية وغيرها، وبسطوا الدعوة المسيحية لكنهم لم يلبثوا دون أن اختلفوا في مسائل أصلية من التعليم كلاهوت المسيح، وكفاية الإيمان بالمسيح عن العمل بشريعة موسى وكون دين الإنجيل ديناً أصيلاً ناسخاً لدين موسى أو كونه تابعاً لشريعة التوراة مكملاً إياها فافترقوا عند ذلك فرقاً.

والذي يجب الإمعان فيه أن الأمم التي بسطت الدعوة المسيحية

وظهرت فيها أول ظهورها كالروم والهند وغيرهما كانوا قبلها منتحلين بالوثنية الصابئة أو البرهمنية أو البوذائية وفيها أصول من مذاق التصوف من جهة، والفلسفة البرهمنية من جهة، وفيها جميعاً شطر وافر من ظهور اللاهوت في مظهر الناسوت، على أن القول بتثليث الوحدة ونزول اللاهوت في لباس الناسوت وتحملها الصلب والعذاب فداءً كان داثراً بين القدماء من وثنية الهند والصين ومصر وكلدان والآشور والفرس، وكذا قدماء وثنية الغرب كالرومان والإسكندناويين وغيرهم على ما يوجد في الكتب المؤلفة في الأديان والمذاهب القديمة.

ذكر «دوان» في كتابه «خرافات التوراة وما يماثلها من الأديان الأخرى» إذا رجعنا البصر إلى الهند نرى أن أعظم وأشهر عبادتهم اللاهوتية هو التثليث، ويسمون هذا التعليم بلغتهم «ترى مورتى» وهي عبارة مركبة من كلمتين بلغتهم السنسكريتية «ترى» ومعناها الثلاثة و«مورتى» ومعناها هيئات أو أقانيم وهي «برهما، وفشنو، وسيفا» ثلاثة أقانيم متحدة لا ينفك عن الوحدة فهي إله واحد بزعمهم.

ثم ذكر: أن برهما عندهم هو الأب وفشنو هو الابن، وسيفا هو روح القدس. ثم ذكر أنهم يدعون سيفا «كرشنا» الرب المخلص والروح العظيم الذي ولد منه «فشنو» الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد.

وذكر أيضاً: أنهم يرمزون للأقنوم الثالث بصورة حمامة كما يقوله النصارى.

وقال مستر «فابر» في كتابه «أصل الوثنية» كما نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلفاً من «برهما» و«فشنو» و«سيفا» نجد عند البوذيين ثالوثاً فإنهم يقولون: إن «بوذه» إله له ثلاثة أقانيم، وكذلك بوذيو (جينست) يقولون: إن «جيفا» مثلث الأقانيم. قال: والصينيون يعبدون بوذه ويسمونه «فو» ويقولون: إنه ثلاثة أقانيم كما تقول الهنود.

وقال دوان في كتابه المتقدم ذكره: وكان قسّيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: إن الأول خلق

الثاني والثاني خلق الثالث، وبذلك تم الثالوث المقدس.

وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره: هل كان قبله أحد أعظم منه؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه؟ فأجابه الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شيء ثم الكلمه ومعها روح القدس، ولهذه الثلاثة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية، فاذهب يا فاني يا صاحب الحياة القصيرة.

وقال بونويك في كتابه «عقائد قدماء المصريين» أغرب كلمة عمّ انتشارها في ديانة المصريين هي قولهم بلاهوت الكلمة، وأن كل شيء صار بواسطتها، وأنها منبثقة من الله، وأنها هي الله انتهى، وهذه عين العبارة التي يبتدىء بها إنجيل يوحنا.

وقال «هيجين» في كتاب «الإنكلوساكسون» كان الفرس يدعون متروساً الكلمة والوسيط ومخلص الفرس.

ونقل عن كتاب سكان أوروبة الأولين: أنه كان الوثنيون القدماء يقولون: إن الإله مثلث الأقانيم.

ونقل عن اليونان والرومان والفنلنديين والإسكندناويين قضية الثالوث السابق الذكر، وكذا القول بالكلمة عن الكلدانيين والآشوريين والفينيقيّين. وقال دوان في كتابه «خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى» (ص ١٨١ ـ ١٨٢) ما ترجمته بالتلخيص:

«إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداءً عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم» وذكر شواهد على ذلك:

منها قوله: يعتقد الهنود أن كرشنا المولود البكر ـ الذي هو نفس الإله فشنو الذي لا ابتداء له ولا انتهاء على رأيهم ـ تحرك حنواً كي يخلص الأرض من ثقل حملها فأتاها وخلص الإنسان بتقديم ذبيحة عنه. وذكر أن «مسترمور» قد صور كرشنا مصلوباً كما هو مصور في كتب الهنود مثقوب اليدين والرجلين، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً، ووجدت له صورة مصلوباً وعلى رأسه إكليل من الذهب، والنصارى تقول: إن يسوع صلب وعلى رأسه إكليل من الشوك.

وقال «هوك» في ص ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته: ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد بعض الآلهة، وتقديم ذبيحة فداء للناس من الخطيئة.

وقال «موريفورليمس» في ص ٢٦ من كتابه (الهنود) ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية، ومما يدل على ذلك ما جاء في مناجاتهم وتوسلاتهم التي يتوسلون بها بعد «الكياتري» وهو إني مذنب ومرتكب الخطيئة، وطبيعتي شريرة، وحملتني أمي بالإثم فخلصني يا ذا العين الحندقوقية يا مخلص الخاطئين من الآثام والذنوب.

وقال القس «جورج كوكس» في كتابه (الديانات القديمة) في سياق الكلام عن الهنود: ويصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتاً لأنه قدم شخصه ذبيحة.

ونقل «هيجين» عن «إندارا دا الكروزوبوس» وهو أول أوروبي دخل بلاد النيبال والتبت: أنه قال في الإله «اندرا» الذي يعبدونه: إنه سفك دمه بالصلب وثقب المسامير لكي يخلص البشر من ذنوبهم، وإن صورة الصلب موجودة في كتبهم وفي كتاب جورجيوس الراهب صورة الإله «إندرا» هذا مصلوباً وهو بشكل صليب أضلاعه متساوية العرض متفاوتة الطول فالرأسي أقصرها ـ وفيه صورة وجهه ـ والسفلي أطولها، ولولا صورة الوجه لما خطر لمن يرى الصورة أنها تمثل شخصاً، هذا.

وأما ما يروى عن البوذيين في بوذا فهو أكثر انطباقاً على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه حتى أنهم يسمونه المسيح والمولود الوحيد، ومخلّص العالم، ويقولون إنه إنسان كامل وإله كامل تجسد بالناسوت، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر ويخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقبوا عليها، ويجعلهم وارثين لملكوت السمٰوات بين ذلك كثير من علماء الغرب: منهم «بيل» في كتابه، و«هوك» في رحلته و«موالر» في كتابه تاريخ الآداب السنسكريتية، وغيرهم.

فهذه نبذة أو أنموذجة من عقيدة تلبس اللاهوت بالناسوت وحديث الصلب والفداء في الديانات القديمة التي كانت الأمم متمسكين بها منكبين عليها يوم شرعت الديانة النصرانية تنبسط على الأرض، وأخذت الدعوة

المسيحية تأخذ بمجامع القلوب في المناطق التي جال الدعاة المسيحيون فيها، فهل هذا إلا أن الدعاة المسيحيين أخذوا أصول المسيحية وأفرغوها في قالب الوثنية واستمالوا بذلك قلوب الناس في تقبل دعوتهم وهضم تعليمهم؟ ويؤيد ذلك ما ترى في كلمات بولس وغيره من الطعن في حكمة الحكماء وفلسفتهم والإزراء بطرق الاستدلالات العقلية وأن الإله الرب يرجح بلاهة الأبله على عقل العاقل.

وليس ذلك إلا لأنهم قابلوا بتعليمهم مكاتب التعقل والاستدلال فرده أهله بأنه لا طريق إلى قبوله بل إلى تعقله الصحيح من جهة الاستدلال فوضعوا الأساس على المكاشفة والامتلاء بالروح القدس فشاكلوا بذلك ما يصر به جهلة المتصوفة أن طريقتهم طور وراء طور العقل.

ثم إن الدعاة منهم ترهبوا وجالوا في البلاد (على ما يحكيه كتاب أعمال الرسل والتواريخ) وبسطوا الدعوة المسيحية واستقبلتهم في ذلك العامة في شتات البلاد، كان من سر موفقيتهم وخاصة في إمبراطورية الروم هي الضغطة الروحية التي عمّت البلاد من فشوّ الظلم والتعدي، وشمول أحكام الاسترقاق والاستعباد، والبون البعيد في حياة الطبقة الحاكمة والمحكومة والآمرة والمأمورة، والفصل الشاسع بين عيشة الأغنياء وأهل الإتراف والفقراء والمساكين والأرقاء.

وقد كانت الدعاة تدعو إلى المؤاخاة والمحابة والتساوي والمعاشرة الجميلة بين الناس، ورفض الدنيا وعيشتها الكدرة الفانية، والإقبال على الحياة الصافية السعيدة التي في ملكوت السماء، ولهذا بعينه ما كان يعنى بحالهم الطبقة الحاكمة من الملوك والقياصرة كل العناية ولا يقصدونهم بالأذى والسياسة والطرد.

فلم يزالوا يزيدون عدداً من غير تظاهر وتنافس وينمون قوة وشدة حتى حصل لهم جم غفير في إمبراطورية الروم وإفريقية والهند وغيرها من البلاد، ولم يزالوا كلما بنوا كنيسة وفتحوا بابها على وجوه الناس هدموا بذلك واحداً من بيوت الأوثان وأغلقوا بابه.

وكانوا لا يعتنون بمزاحمة رؤساء الوثنية في هدم أساسهم ولا بملوك

الوقت وحكامه في التعالي عن خضوعهم وفي مخالفة أحكامهم ودساتيرهم، وربما كان ذلك يؤديهم إلى الهلاك والقتل والحبس والعذاب فكان لا تزال تقتل طائفة وتسجن أخرى وتشرد ثالثة. وكان الأمر على هذه الصفة إلى أوان ملك القيصر «كنستانتين» فآمن بالملة المسيحية، وأعلن بها فأخذ التنصر بالرسمية وبنيت الكنائس في الروم وما يتبع إمبراطوريته من الممالك، وذلك في النصف الأخير من القرن الرابع الميلادي.

تمركزت النصرانية يومئذٍ في كنيسة الروم وأخذت تبعث القسيسين إلى أكناف الأرض من البلاد التابعة يبنون الكنائس والديرات ومدارس يدرسون بها التعليم الإنجيلي.

والذي يجب إلفات النظر إليه أنهم وضعوا البحث على أصول مسلمة إنجيلية فأخذوا التعاليم الإنجيلية كمسألة الأب والابن والروح، ومسألة الصلب والفداء وغير ذلك أصولاً مسلمة وبنوا البحث والتنقير عليها.

وهذا أول ما ورد على أبحاثهم الدينية من الوهن والوهاء فإن استحكام البناء المبني وإن بلغ ما بلغ واستقامته لا يغني عن وهن الأساس المبني عليه شيئاً، وما بنوا عليه من مسألة تثليث الوحدة والصلب والفداء أمر غير معقول.

وقد اعترف عدة من باحثيهم في التثليث بأنه أمر غير معقول لكنهم اعتذروا عنه بأنه من المسائل الدينية التي يجب أن تقبل تعبداً فكم في الأديان من مسألة تعبدية تحيلها العقول.

وهو من الظنون الفاسدة المتفرعة على أصلهم الفاسد، وكيف يتصور وقوع مسألة مستحيلة في دين حق؟ ونحن إنما نقبل الدين ونميز كونه دين حق بالعقل وكيف يمكن عند العقل أن تشتمل العقيدة الحقة على أمر يبطله العقل ويحيله؟ وهل هذا إلا تناقض صريح؟ نعم يمكن أن يشتمل الدين على ممكن يخرق العادة الجارية، والسنة الطبيعية القائمة، وأما المحال الذاتي فلا البتة.

وهذا الطريق المذكور من البحث هو الذي أوجب وقوع الخلاف والمشاجرة بين الباحثين المتفكرين منهم في أوائل انتشار صيت النصرانية

وانكباب المحصلين على الأبحاث المذهبية في مدارس الروم والإسكندرية وغيرهما.

فكانت الكنيسة تزيد كل يوم في مراقبتها لوحدة الكلمة وتهيىء مجمعاً مشكلاً عند ظهور كل قول حديث وبدعة جديدة من البطارقة والأساقفة لإقناعهم بالمذهب العام وتكفيرهم ونفيهم وطردهم وقتلهم إذا لم يقنعوا. وأول مجمع عقدوه مجمع نيقية لما قال أريوس: إن أقنوم الابن غير مساوٍ لأقنوم الأب، وإن القديم هو الله والمسيح مخلوق.

اجتمعت البطارقة والمطارنة والأساقفة في قسطنطينة بمحضر من القيصر كنستانتين وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، واتفقوا على هذه الكلمة «نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء، وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم وكل شيء الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وولد من مريم البتول، وصلب أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذي يخرج من أبيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية مسيحية ـ جاثليقية، وبقيام أبداننا، والحياة أبد الآبدين».

هذا هو المجمع الأول، وكم من مجمع بعد ذلك عقدوه للتبري عن المذاهب المستحدثة كمذهب النسطورية واليعقوبية والألبانية واليلبارسية والمقدانوسية والسباليوسية والنوتوسية والبولسية وغيرها.

ومع هذا كانت الكنيسة تقوم بالواجب من مراقبتها، ولا تتوانى ولا تهن في دعوتها وتزيد كل يوم في قوتها وسيطرتها حتى وفقت لجلب سائر دول أوروبا إلى التنصر كفرنسا والإنجليز والنمسا والبروس والإسبان والبرتغال والبلجيك وهولندا وغيرهم إلا الروس أواخر القرن الخامس الميلادي سنة ٤٩٦.

ولم تزل تتقدم وترتقي الكنيسة من جانب، ومن جانب آخر كانت تهاجم الأمم الشمالية والعشائر البدوية على الروم، والحروب والفتن تضعف سلطنة القياصرة، وآل الأمر إلى أن أجمعت أهل الروم والأمم المتغلبة على إلقاء زمام أمور المملكة إلى الكنيسة كما كانت زمام أمور الدين بيدها فاجتمعت السلطنة الروحانية والجسمانية لرئيس الكنيسة اليوم وهو «البابا جريجوار» وكان ذلك سنة ٥٩٠ الميلادية.

وصارت كنيسة الروم لها الرئاسة المطلقة للعالم المسيحي غير أن الروم لما كانت انشعبت إمبراطوريته إلى الروم الغربي الذي عاصمتها روما، والروم الشرقي الذي عاصمتها قسطنطينية كانت قياصرة الروم الشرقي يعدون أنفسهم رؤساء دينيين لمملكتهم من غير أن يتبعوا كنيسة روما وهذا مبدأ انشعاب المسيحية إلى الكاثوليك، أتباع كنيسة روما والأورثوذكس، وهم غيرهم.

وكان الأمر على ذلك حتى إذا فتحت قسطنطينية بيد آل عثمان، وقتل القيصر «بالي اولوكوس» وهو آخر قياصرة الروم الشرقي وقسيس الكنيسة اليوم (قتل في كنيسة «أياصوفيا»).

وادعى وراثة هذا المنصب الديني أعني رئاسة الكنيسة قياصرة روسيا لقرابة سببية كانت بينهم وبين قياصرة الروم، وكانت الروس تنصرت في القرن العاشر الميلادي فصارت ملوك روسيا قسيسي كنيسة أرضهم غير تابعة لكنيسة روما وكان ذلك سنة ١٤٥٤ الميلادية.

وبقي الأمر على هذا الحال نحواً من خمسة قرون حتى قتل «تزارنيكولا» وهو آخر قياصرة الروس قتل هو وجميع أهل بيته سنة ١٩١٨ الميلادية بيد الشيوعيين فعادت كنيسة روما تقريباً إلى حالها قبل الانشعاب.

لكن الكنيسة في أثر ما كانت تحاول رؤساؤها السلطة على جميع جهات حياة الناس في القرون الوسطى التي كانت الكنيسة فيها في أوج ارتقائها وارتفاعها ثار عليها جماهير من المتدينين تخلصاً من القيود التي كانت تحملها عليهم الكنيسة.

فخرجت طائفة عن تبعية أحكام رؤساء الكنيسة والباباوات وطاعتهم

مع البقاء على طاعة التعليم الإنجيلي على ما يفهمه مجامعهم ويقرره اتفاق علمائهم وقسيسيهم وهؤلاء هم الأورثوذكس.

وطائفة خرجت عن متابعة كنيسة روما أصلاً فليسوا بتابعين في التعليم الإنجيلي لكنيسة روما ولا معتنين للأوامر الصادرة منها وهؤلاء هم البروتستانت.

فانشعب العالم المسيحي اليوم إلى ثلاث فرق: الكاثوليك وهي التابعة لكنيسة روما وتعليمها، والأورثوذكس وهي التابعة لتعليم الكنيسة دون نفسها، وقد حدثت شعبتهم بحدوث الانشعاب في الكنيسة وخاصة بعد انتقال كنيسة قسطنطينية إلى موسكو بروسيا (كما تقدم) والبروتستانت. وهي الخارجة عن تبعية الكنيسة وتعليمها جميعاً، وقد استقلت طريقتهم وتظاهرت في القرن الخامس عشر الميلادي.

هذا إجمال ما جرى عليه أمر الدعوة المسيحية في زمان يقرب من عشرين قرناً والبصير بالغرض الموضوع له هذا الكتاب يعلم أن القصد من ذكر جمل تاريخهم:

أولاً: أن يكون الباحث على بصيرة من التحولات التاريخية في مذهبهم والمعاني التي يمكن أن تنتقل إلى عقائدهم الدينية بنحو التوارث أو السراية أو الانفعال بالامتزاج أو الإلف والعادة من عقائد الوثنية والأفكار الموروثة منهم أو المأخوذة عنهم.

وثانياً: أن اقتدار الكنيسة وخاصة كنيسة روما بلغ بالتدريج في القرون الوسطى الميلادية إلى نهاية أوجه حتى كانت لهم سيطرة الدين والدنيا وانقادت لهم كراسي الملك بأوروبا فكان لهم عزل من شاؤوا ونصب من شاؤوا.

يروى أن البابا مرة أمر إمبراطور ألمانيا أن يقف ثلاثة أيام حافياً على باب قصره في فصل الشتاء لزلة صدرت منه يريد أن يغفرها له. ورفس البابا مرة تاج الملك برجله حيث جاءه جاثياً يطلب المغفرة. وقد كانوا وصفوا المسلمين لأتباعهم وصفاً لم يدعهم إلا أن يروا دين الإسلام دين الوثنية، يستفاد ذلك من الشعارات والأشعار التي نظموها في استنهاض النصارى

وتهييجهم على المسلمين في الحروب الصليبية التي نشبت بينهم وبين المسلمين سنين متطاولة.

فإنهم كانوا يرون أن المسلمين يعبدون الأصنام، وأن لهم آلهة ثلاثة أسماؤها على الترتيب «ماهوم» ويسمى بافوميد وماهومند وهو أول الآلهة، وهو «محمّد» وبعده «إيلين» وهو الثاني، وبعده «ترفاجان» وهو الثالث، وربما يظهر من بعضهم كلماتهم أن للمسلمين إلهين آخرين، وهما «مارتوان و«جوبين» ولكنهما بعد الثلاثة المتقدمة رتبة، وكانوا يقولون: إن محمّداً بنى دعوته على دعوى الألوهية وربما قالوا: إنه كان اتخذ لنفسه صنماً من ذهب.

وفي أشعار ريشار التي قالها لاستنهاض الإفرنج على المسلمين: «قوموا وقلبوا ماهومند وترفاجان وألقوهما في النار تقرباً من إلهكم».

وفي أشعار رولان في وصف «ماهوم» إله المسلمين: «إنه مصنوع تاماً من الذهب والفضة، ولو رأيته أيقنت أنه لا يمكن لصانع أن يصور في خياله أجمل منه ثم يصنعه، عظيمة جثته، جيدة صنعته، وفي سيمائه آثار الجلالة ظاهرة، ماهوم مصنوع من الذهب، والفضة يكاد سنا برقه يذهب بالبصر، وقد أقعد على فيل هو من أحسن المصنوعات وأجودها، بطنه خال، وربما أحسن الناظر من بطنه ضوءاً هو مرصعة بالأحجار الثمينة المتلألئة، يرى باطنه من ظاهره، ولا يوجد له في جودة الصنعة نظير.

ولما كانت آلهة المسلمين يوحون إليهم في مواقع الشدة، وقد انهزم المسلمون في بعض حروبهم، بعث قائد القوم واحداً في طلب إلههم الذي كان بمكة (يعني محمّداً ﷺ) يروي بعض من شاهد الواقعة: أن الإله (يعني محمّداً) جاءهم وقد أحاط به جم غفير من أتباعه وهم يضربون الطبول والعيدان والمزامير والبوقات المعمولة من فضة ويتغنون ويرقصون حتى أتوا به إلى المعسكر بسرور وفرح ومرح، وقد كان خليفته منتظراً لقدومه، فلما رآه قام على ساقه، واشتغل بعبادته بخضوع وخشوع.

ويذكر «ريشار» أيضاً في وصف وحي الإله «ماهوم» الذي سمعت وصفه فيقول: «إن السحرة سخروا واحداً من الجن وجعلوه في بطن ذلك

الصنم، وكان ذلك الجني يرعد ويعربد أولاً ثم يأخذ في تكليم المسلمين وهم ينصتون له».

وأمثال هذه الطرف توجد كثيراً في كتبهم المؤلفة في سني الحروب الصليبية أو المتعرضة لشؤونها وإن كان ربما أبهتت القارىء وأدهشته تعجباً وحيرة، وكاد أن لا يصدق صحة النقل حين يحدث له أمور لم يشاهدها مسلم في يقظة ولا رآها في نومة أو نعسة.

وثالثاً: أن يتحقق الباحث المتدبر كيفية طرق التطور على الدعوة المسيحية في مسيرها خلال القرون الماضية حتى اليوم، فإن العقائد الوثنية وردت فيها بخفي دبيبها أولاً بالغلو في حق المسيح ﷺ ثم تمكنت فأفرغت الدعوة في قالب التثليث: الأب والابن والروح، والقول بالصلب والفداء، واستلزم ذلك القول برفض العمل والاكتفاء بالاعتقاد.

وكان ذلك أولاً في صورة الدين وكان يعقد أزمتهم بالكنيسة بإتيان أشياء من صوم وصلاة وتعميد لكن لم يزل الإلحاد ينمو جسمه ويقوى روحه ويبرز الانشعابات حتى ظهرت البروتستانت، وقامت القوانين الرسمية مقام الهرج والمرج في السياسات مدونة على أساس الحرية في ما وراء القانون (الأحكام العملية المضمونة الإجراء) فلم يزل التعليم الديني يضعف أثراً ويخيب سعياً حتى انثلمت تدريجاً أركان الأخلاق والفضائل الإنسانية عقيب شيوع المادية التي استتبعتها الحرية التامة. وظهرت الشيوعية والاشتراك بالبناء على فلسفة ماترياليسم ديالكتيك ورفض القول باللاهوت والأخلاق الفاضلة الثابتة والأعمال الدينية فانهدمت الإنسانية المعنوية وورثتها الحيوانية المادية مؤلفة من سبعية وبهيمية، وانتهضت الدنيا تسير إليها سيراً حثيثاً.

وأما النهضات الدينية التي عمت الدنيا أخيراً فليست إلا ملاعب سياسية يلعب بها رجال السياسة للتوسل بها إلى غاياتهم وأمانيهم فالسياسة الفنية اليوم تدق كل باب وتدب كل جحر وثقب.

ذكر الدكتور «جوزف شيتلر» أستاذ العلوم الدينية في كلية لوتران في شيكاغو: «أن النهضة الدينية الجديدة في أمريكا ليست إلا تطبيق الدين على

المجموعة من شؤون الحياة في المدنية الحديثة، وتثبيت أن المدنية الحاضرة لا تضاد الدين.

وإن فيه خطر أن يعتقد عامة الناس أنهم متدينون بالدين الحق بما في أيديهم من نتائج المدنية الحاضرة حتى يستغنوا عن الالتحاق إلى النهضة الحقيقية الدينية لو ظهرت يوماً بينهم فلا يلتفتوا إليها». وذكر الدكتور جورج فلوروفسكي أكبر مدافع عن أورثوذكس روسيا بأمريكا أن التعليمات الدينية بأمريكا ليست إلا سلوة كاذبة للقلوب لأنها لو كانت نهضة حية حقيقية دينية لكان من الواجب أن تتكىء على تعليمات عميقة واقعية.

فانظر من أين خرج وفد الدين وفي أين نزل. بدأت الدعوة باسم إحياء الدين (العقيدة) والأخلاق (الملكات الحسنة) والشريعة (الأعمال) واختتمت بإلغاء الجميع ووضع التمتع الحيواني موضعها.

وليس ذلك كله إلا تطور الانحراف الأولي الواقع من بولس المدعو بالقديس بولس الحواري وأعضاده فلو أنهم سموا هذه المدنية الحاضرة التي تعترف الدنيا بأنها تهدد الإنسانية بالفناء «مدنية بولسية» كان أحق بالتصديق من قولهم: إن المسيح هو قائد الحضارة والمدنية الحاضرة وحامل لوائها...[1].

(١) انظر كل هذه الأبحاث المرتبطة بعيسىﷺ في المجلد الثالث صفحة ٣٢١ من الميزان.

قصة أصحاب الكهف عليهم السلام

١ ـ ذكرها في الروايات:

وردت قصة الكهف مفصلة كاملة في عدة روايات عن الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت عليهم السلام كرواية القمي ورواية ابن عباس ورواية عكرمة ورواية مجاهد وقد أوردها في الدر المنثور ورواية ابن إسحاق في العرائس وقد أوردها في البرهان ورواية وهب بن منبه وقد أوردها في الدر المنثور وفي الكامل من غير نسبة ورواية النعمان بن بشير في أصحاب الرقيم وقد أوردها في الدر المنثور.

وهذه الروايات من الاختلاف في متونها بحيث لا تكاد تتفق في جهة بارزة من جهات القصة، وأما الروايات الواردة في بعض جهات القصة كالمتعرضة لزمان قيامهم والملك الذي قاموا في عهده ونسبهم وسمتهم وأسمائهم ووجه تسميتهم بأصحاب الرقيم إلى غير ذلك من جزئيات القصة فالاختلاف فيها أشد والحصول فيها على ما تطمئن إليه النفس أصعب.

والسبب العمدة في اختلاف هذه الأحاديث مضافاً إلى ما تطرق إلى أمثال هذه الروايات من الوضع والدس أمران:

أحدهما: أن القصة مما اعتنت به أهل الكتاب كما يستفاد من رواياتها أن قريشاً تلقتها عنهم وسألوا النبي صلى الله عليه وآله عنها بل يستفاد من التماثيل وقد ذكرها أهل التاريخ عن النصارى ومن الصور الموجودة في كهوف شتى في بقاع الأرض المختلفة من آسيا وأوروبا وإفريقيا أن القصة اكتسبت بعداً وشهرة عالمية، ومن شأن القصص التي كذلك أن تتجلى لكل قوم في صورة تلائم ما عنده من الآراء والعقائد وتختلف رواياتها.

ثم إن المسلمين بالغوا في أخذ الرواية وضبطها وتوسعوا فيه وأخذوا ما عند غيرهم كما أخذوا ما عندهم أنفسهم وخاصة وقد اختلط بهم قوم من علماء أهل الكتاب دخلوا في الإسلام كوهب بن منبه وكعب الأحبار وأخذ عنهم الصحابة والتابعون كثيراً من أخبار السابقين ثم أخذ الخلف عن السلف وعاملوا مع رواياتهم معاملة الأخبار الموقوفة عن النبيﷺ فكانت بلوى.

وثانيهما: أن دأب كلامه فيما يورده من القصص أن يقتصر على مختارات من نكاتها المهمة المؤثرة في إيفاء الغرض من غير أن يبسط القول بذكر متنها بالاستيفاء والتعرض لجميع جهاتها والأوضاع والأحوال المقارنة لها فما كتاب الله بكتاب تاريخ وإنما هو كتاب هدى.

وهذا من أوضح ما يعثر عليه المتدبر في القصص المذكورة في كلامه تعالى كالذي ورد فيه من قصة أصحاب الكهف والرقيم فقد أورد أولاً شطراً من محاورتهم يشير إلى معنى قيامهم لله وثباتهم على كلمة الحق واعتزالهم الناس إثر ذلك ودخولهم الكهف ورقودهم فيه وكلبهم معهم دهراً طويلاً ثم يذكر بعثهم من الرقدة ومحاورة ثانية لهم هي المؤدية إلى انكشاف حالهم وظهور أمرهم للناس. ثم يذكر إعثار الناس عليهم بما يشير إلى توفيهم ثانياً بعد حصول الغرض الإلهي وما وضع بعد ذلك من اتخاذ مسجد عليهم هذا هو الذي جرى عليه كلامه تعالى.

وقد أضرب عن ذكر أسمائهم وأنسابهم وموالدهم وكيفية نشأتهم وما اتخذوه لأنفسهم من المشاغل وموقعهم من مجتمعهم وزمان قيامهم واعتزالهم واسم الملك الذي هربوا منه والمدينة التي خرجوا منها والقوم الذين كانوا فيهم واسم الكلب الذي لازمهم وهل كان كلب صيد لهم أو كلب غنم للراعي؟ وما لونه؟ ـ وقد أمعنت فيه الروايات ـ إلى غير ذلك من الأمور التي لا يتوقف غرض الهداية على العلم بشيء منها كما يتوقف عليه غرض البحث التاريخي.

ثم إن المفسرين من السلف لما أخذوا في البحث عن آيات القصص راموا بيان اتصال الآيات بضم المتروك من أطراف القصص إلى المختار المأخوذ منها لتصاغ بذلك قصة كاملة الأجزاء مستوفاة الأطراف فأدى

اختلاف أنظارهم إلى اختلاف يشابه اختلاف النقل فآل الأمر إلى ما نشاهده.

٢ ـ قصة أصحاب الكهف في القرآن:

وقد قال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ كانت أصحاب الكهف والرقيم فتية نشأوا في مجتمع مشرك لا يرى إلا عبادة الأوثان فتسّرب في المجتمع دين التوحيد فآمن بالله قوم منهم فأنكروا عليهم ذلك وقابلوهم بالتشديد والتضييق والفتنة والعذاب، وأجبروهم على عبادة الأوثان ورفض دين التوحيد فمن عاد إلى ملتهم تركوه ومن أصر على المخالفة قتلوه شر قتلة.

وكانت الفتية ممن آمن بالله إيماناً على بصيرة فزادهم الله هدى على هداهم وأفاض عليهم المعرفة والحكمة وكشف بما آتاهم من النور عما يهمهم من الأمور وربط على قلوبهم فلم يخشوا إلا الله ولا أوحشهم ما يستقبلهم من الحوادث والمكاره فعلموا أنهم لو أداموا المكث في مجتمعهم الجاهل المتحكم لم يسعهم دون أن يسيروا بسيرهم فلا يتفوهوا بكلمة الحق ولا يتشرعوا بشريعة الحق وعلموا أن سبيلهم أن يقوموا على التوحيد ورفض الشرك ثم اعتزال القوم، وعلموا أن لو اعتزلوهم ودخلوا الكهف أنجاهم الله مما هم فيه من البلاء.

فقاموا وقالوا رداً على القوم في اقتراحهم وتحكمهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

ثم قالوا: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

ثم دخلوا الكهف واستقروا على فجوة منه وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد فدعوا ربهم بما تفرسوا من قبل أنه سيفعل بهم ذلك فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً فضرب الله على آذانهم في الكهف سنين ولبثوا في كهفهم ـ وكلبهم معهم ـ ثلاث مائة سنة وازدادوا تسعاً وترى

الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ويقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً.

ثم إن الله بعثهم بعد هذا الدهر الطويل وهو ثلاثمائة وتسع سنين من يوم دخلوا الكهف ليريهم كيف نجاهم من قومهم فاستيقظوا جميعاً ووجدوا أن الشمس تغير موقعها وفيهم شيء من لوثة نومهم الثقيل قال قائل منهم: كم لبثتم؟ قال قوم منهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم لما وجدوا من تغير موقع الشعاع وترددوا هل مرت عليهم ليلة أو لا؟ وقال آخرون منهم: بل ربكم أعلم بما لبثتم ثم قال: فابعثوا بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه فإنكم جياع وليتلطف الذاهب منكم إلى المدينة في مسيره إليها وشرائه الطعام ولا يشعرن بكم أحداً إنهم إن علموا بمكانكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً.

وهذا أوان أن يعثر الله سبحانه الناس عليهم فإن القوم الذين اعتزلوهم وفارقوهم يوم دخلوا الكهف قد انقرضوا وذهب الله بهم وبملكهم وملتهم وجاء بقوم آخرين الغلبة فيهم لأهل التوحيد والسلطان وقد اختلفوا أعني أهل التوحيد وغيرهم في أمر المعاد فأراد الله سبحانه أن يظهر لهم آية في ذلك فأعثرهم على أصحاب الكهف.

فخرج المبعوث من الفتية وأتى المدينة وهو يظن أنها التي فارقها البارحة لكنه وجد المدينة قد تغيرت بما لا يعهد مثله في يوم ولا في عمر والناس غير الناس والأوضاع والأحوال غير ما كان يشاهده بالأمس فلم يزل على حيرة من الأمر حتى أراد أن يشتري طعاماً بما عنده من الورق وهي يومئذٍ من الورق الرائجة قبل ثلاثة قرون فأخذت المشاجرة فيها ولم تلبث دون أن كشفت، عن أمر عجيب وهو أن الفتى ممن كانوا يعيشون هناك قبل ذلك بثلاثة قرون، وهو أحد الفتية كانوا في مجتمع مشرك ظالم فهجروا الوطن واعتزلوا الناس صوناً لإيمانهم ودخلوا الكهف فأنامهم الله هذا الدهر الطويل ثم بعثهم وها هم الآن في الكهف في انتظار هذا الذي بعثوه إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً يتغذون به.

فشاع الخبر في المدينة لساعته واجتمع جم غفير من أهلها فساروا إلى الكهف ومعهم الفتى المبعوث من أصحاب الكهف فشاهدوا ما فيه تصديق الفتى فيما أخبرهم من نبأ رفقته وظهرت لهم الآية الإلهية في أمر المعاد.

ولم يلبث أصحاب الكهف بعد بعثهم كثيراً دون أن توفاهم الله سبحانه وعند ذلك اختلف المجتمعون على باب الكهف من أهل المدينة ثانياً فقال المشركون منهم: ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم وهم الموحدون: لنتخذن عليهم مسجداً.

٣ ـ القصة عند غير المسلمين:

معظم أهل الرواية والتاريخ على أن القصة وقعت في الفترة بين النبيﷺ وبين المسيح عليه السلام ولذلك لم يرد ذكرها في كتب العهدين ولم يعتوره اليهود وإن اشتملت عدة من الروايات على أن قريشاً تلقت القصة من اليهود، وإنما اهتم بها النصارى واعتوروها قديماً وحديثاً. وما نقل عنهم في القصة قريب مما أورده ابن إسحاق في العرائس عن ابن عباس غير أن رواياتهم تختلف عن روايات المسلمين في أمور:

أحدها: أن المصادر السريانية تذكر عدد أصحاب الكهف ثمانية في حين يذكره المسلمون وكذا المصادر اليونانية والغربية سبعة.

ثانيها: أن قصتهم خالية من ذكر كلب أصحاب الكهف.

ثالثها: أنهم ذكروا أن مدة لبث أصحاب الكهف فيه مائتا سنة أو أقل والمسلمون يذكر معظمهم أنه ثلاثمائة وتسع وسنين على ما هو ظاهر القرآن الكريم والسبب في تحديدهم ذلك أنهم ذكروا أن الطاغية الذي كان يجبر الناس على عبادة الأصنام وقد هرب منه الفتية هو دقيوس الملك ٤٤٩ ـ ٤٥١ وقد استيقظ أهل الكهف على ما ذكروا سنة ٤٢٥ م أو سنة ٤٣٧ م أو سنة ٤٣٩ م فلا يبقى للبثهم في الكهف إلا مائتا سنة أو أقل وأول من ذكره من مؤرخيهم على ما يذكر هو «جيمس» الساروغي السرياني الذي ولد سنة ٤٥١ م ومات سنة ٥٢١ م ثم أخذ عنه الآخرون وللكلام تتمة ستوافيك.

٤ ـ أين كهف أصحاب الكهف؟

عثر في مختلف بقاع الأرض على عدة من الكهوف والغيران وعلى جدرانها تماثيل رجال ثلاثة أو خمسة أو سبعة ومعهم كلب وفي بعضها بين أيديهم قربان يقربونه، ويتمثل عند الإنسان المطلع عليها قصص أصحاب الكهف ويقرب من الظن أن هذه النقوش والتماثيل إشارة إلى قصة الفتية وأنها انتشرت وذاعت بعد وقوعها في الأقطار فأخذت ذكرى يتذكر بها الرهبان والمتجردون للعبادة في هذه الكهوف.

وأما الكهف الذي التجأ إليه واستخفى فيه أهل الكهف فجرى عليهم ما جرى فالناس فيه في اختلاف وقد ادعي ذلك في عدة مواضع:

أحدها: كهف إفسوس وإفسوس هذا مدينة خربة أثرية واقعة في تركيا على مسافة ٧٣ كيلومتراً من بلدة إزمير، والكهف على مسافة كيلومتر واحد أو أقل من إفسوس بقرب قرية «اياصولوك» بسفح جبل «ينايرداغ».

وهو كهف وسيع فيه ـ على ما يقال ـ مئات من القبور مبنية من الطوب وهو في سفح الجبل وبابه متجه نحو الجهة الشمالية الشرقية وليس عنده أثر من مسجد أو صومعة أو كنيسة، وهذا الكهف هو الأعرف عند النصارىٰ، وقد ورد ذكره في عدة من روايات المسلمين.

وهذا الكهف على الرغم من شهرته البالغة ـ لا ينطبق عليه ما ورد في الكتاب العزيز من المشخصات.

أما أولاً: فقد قال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وهو صريح في أن الشمس يقع شعاعها عند الطلوع على جهة اليمين من الكهف وعند الغروب على الجانب الشمالي منه، ويلزمه أن يواجه باب الكهف جهة الجنوب، وباب الكهف الذي في إفسوس متجه نحو الشمال الشرقي. وهذا الأمر أعني كون باب كهف إفسوس متجهاً نحو الشمال وما ورد من مشخص إصابة الشمس منه طلوعاً وغروباً هو الذي دعا المفسرين إلى أن يعتبروا يمين الكهف ويساره بالنسبة إلى الداخل فيه لا الخارج منه مع أنه المعروف المعمول قال البيضاوي في تفسيره: إن باب الكهف في مقابلة بنات النعش وأقرب

المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عند مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبه ويحلل عفونته ويعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبلي ثيابهم. انتهى ونحو منه ما ذكره غيره.

على أن مقابلة الباب للشمال الشرقي للقطب الشمالي وبنات النعش كما ذكره تستلزم عدم انطباق الوصف حتى على الاعتبار الذي اعتبروه فإن شعاع الشمس حينئذٍ يقع على الجانب الغربي الذي يلي الباب عند طلوعها وأما عند الغروب فالباب وما حوله مغمور تحت الظل وقد زال الشعاع بعيد زوال الشمس وانبسط الظل.

اللهم إلا أن يدعى أن المراد بقوله: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ عدم وقوع الشعاع أو وقوعه خلفهم لا على يسارهم هذا.

وأما ثانياً: فلأن قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في مرتفع منه ولا فجوة في كهف إفسوس ـ على ما يقال ـ وهنا مبني على كون الفجوة بمعنى المرتفع وهو غير مسلم وقد تقدم أنها بمعنى الساحة.

وأما ثالثاً: فلأن قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ظاهر في أنهم بنوا على الكهف مسجداً، ولا أثر عند كهف إفسوس من مسجد أو صومعة أو نحوهما وأقرب ما هناك كنيسة على مسافة ثلاث كيلومترات تقريباً ولا جهة تربطها بالكهف أصلاً.

على أنه ليس هناك شيء من رقيم أو كتابة أو أمر آخر يشهد ولو بعض الشهادة على كون بعض هاتيك القبور وهي مئات هي قبور أصحاب الكهف أو أنهم لبثوا هناك صفة من الدهر راقدين ثم بعثهم الله ثم توفاهم.

الكهف الثاني: كهف رجيب وهذا الكهف واقع على مسافة ثمانية كيلو مترات من مدينة عمان عاصمة الأردن بالقرب من قرية تسمى رجيب والكهف في جبل محفوراً على الصخرة في السفح الجنوبي منه، وأطرافه من الجانبين الشرقي والغربي مفتوحة يقع عليه شعاع الشمس منها، وباب الكهف يقابل جهة الجنوب وفي داخل الكهف صفة صغيرة تقرب من ثلاثة

أمتار في مترين ونصف على جانب من سطح الكهف المعادل لثلاثة في ثلاثة تقريباً وفي الغار عدة قبور على هيئة النواويس البيزنطية كأنها ثمانية أو سبعة.

وعلى الجدران نقوش وخطوط باليوناني القديم والثمودي منمحية لا تقرأ وأيضاً صورة كلب مصبوغة بالحمرة وزخارف وتزويقات أخرى.

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدل النقوش والآثار الأخرى المكتشفة فيها على كونها مبنية في زمان الملك جوستينوس الأول ٤١٨ ـ ٤٢٧ وآثار أخرى على أن الصومعة بدلت ثانياً بعد استيلاء المسلمين على الأرض مسجداً إسلامياً مشتملاً على المحراب والمئذنة والميضأة، وفي الساحة المقابلة لباب الكهف آثار مسجد آخر بناه المسلمون في صدر السلام ثم عمروها وشيدوها مرة بعد مرة، وهو مبني على أنقاض كنيسة بيزنطية كما أن المسجد الذي فوق الكهف كذلك.

وكان هذا الكهف ـ على الرغم من اهتمام الناس بشأنه وعنايتهم بأمره كما تكشف عنه الآثار ـ متروكاً منسياً وبمرور الزمان خربة ورديماً متهدماً حتى اهتمت دائرة الآثار الأردنية أخيراً بالحفر والتنقيب فيه فاكتشفته فظهر ثانياً بعد خفائه قروناً، وقامت عدة من الأمارات والشواهد الأثرية على كونه هو كهف أصحاب الكهف المذكورين في القرآن.

وقد ورد كون كهف أصحاب بعمان في بعض روايات المسلمين كما أشرنا إليه فيما تقدم وذكره الياقوت في معجم البلدان وأن الرقيم بالقرب من عمان كان فيها قصر ليزيد بن عبد الملك وقصر آخر في قرية أخرىٰ منها تسمى الموقر وإليها يشير الشاعر بقوله:

يزرن على تنانبه يزيداً بأكناف الموقر والرقيم

وبلدة عمان أيضاً مبنية في موضع مدينة «فيلادلفيا» التي كانت من أشهر مدن عصرها وأجملها قبل ظهور الدعوة الإسلامية وكانت هي وما والاها تحت استيلاء الروم منذ أوائل القرن الثاني الميلادي حتى فتح المسلمون الأرض المقدسة.

والحق أن مشخصات كهف أهل الكهف أوضح انطباقاً على هذا الكهف من غيره.

والكهف الثالث: كهف بجبل قاسيون بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب إلى أصحاب الكهف.

والكهف الرابع: كهف بالبتراء من بلاد فلسطين ينسبونه إلى أصحاب الكهف.

والكهف الخامس: كهف اكتشف ـ على ما قيل ـ في شبه جزيرة اسكندنافية من الأوربة الشمالية عثروا فيه على سبع جثث غير بالية على هيئة الرومانيين يظن أنهم الفتية أصحاب الكهف.

وربما يذكر بعض كهوف أُخر منسوب إلى أصحاب الكهف كما يذكر أن بالقرب من بلدة نخجوان من بلاد قفقاز كهفاً يعتقد أهل تلك النواحي أنه كهف أصحاب الكهف وكان الناس يقصدونه ويزورونه.

ولا شاهد يشهد على كون شيء من هذه الكهوف هو الكهف المذكور في القرآن الكريم.

على أن المصادر التاريخية تكذب الأخيرين إذ القصة على أي حال قصة رومانية، وسلطتهم حتى في أيام مجدهم وسؤددهم لم تبلغ هذه النواحي نواحي أوروبة الشمالية وقفقاز[1].

(١) انظر هذه القصة في المجلد الثالث عشر صفحة ٢٨٧ من الميزان.

قصة لقمان عليه السلام

١ ـ مواعظه عليه السلام في القرآن:

في القرآن إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة ونبذة من حكمه ومواعظه لابنه ولم يذكر في القرآن إلا في هذه السورة (سورة لقمان).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ إلخ، الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هي المعرفة العلمية النافعة وهي وسط الاعتدال بين الجهل والجربزة. وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾ قيل: هو بتقدير القول أي وقلنا: أن اشكر لي.

والظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول، وذلك أن حقيقة الشكر هي وضع النعم في موضعها الذي ينبغي له بحيث يشير إلى إنعام المنعم، وإيقاعه كما هو حقه يتوقف على معرفة المنعم ومعرفة نعمه بما هي نعمه وكيفية وضعها موضعه بحيث يحكي عن إنعامه فإيتاؤه الحكمة بعث له إلى الشكر فإيتاء الحكمة أمر بالشكر بالملازمة.

وفي قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة وذلك أن التكلم مع الغير من المتكلم إظهار للعظمة بالتكلم عن قبل نفسه وخدمه وقول أن اشكر لنا على هذا لا يناسب التوحيد في الشكر وهو ظاهر.

وقوله: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ استغناء منه تعالى أن نفع الشكر إنما يرجع إلى نفس الشاكر والكفر لا يتضرر به إلا نفسه دون الله سبحانه ومن يشكر فإنما يوقع الشكر لنفع نفسه ولا ينتفع به الله سبحانه لغناه المطلق ومن كفر فإنما يتضرر به نفسه إن الله

غني لا يؤثر فيه الشكر نفعاً ولا ضرّاً حميد محمود على ما أنعم سواء شكر أو كفر.

وفي التعبير عن الشكر بالمضارع الدالّ على الاستمرار وفي الكفر بالماضي الدال على المرّة إشعار بأن الشكر إنما ينفع مع الاستمرار لكن الكفر يتضرر بالمرّة منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ عظمة كل عمل بعظمة أثره وعظمة المعصية بعظمة المعصي فإن مؤاخذة العظيم عظيمة فأعظم المعاصي معصية الله لعظمته وكبريائه فوق كل عظمة وكبرياء بأنه الله لا شريك له وأعظم معاصيه معصيته في أنه الله لا شريك له.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ حيث أطلق عظمته من غير تقييد بقياسه إلى سائر المعاصي يدل على أن له من العظمة ما لا يقدّر بقدر.

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ إلى آخر الآية، اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان وليس من كلام لقمان وإنما اطّرد ههنا للدلالة على وجوب شكر الوالدين كوجوب الشكر لله بل هو من شكره تعالى لانتهائه إلى وصيته وأمره تعالى، فشكرهما عبادة له تعالى وعبادته شكر.

وقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ ذكر بعض ما تحملته أمه من المحنة والأذى في حمله وتربيته ليكون داعياً له إلى شكرهما وخاصة الأم.

والوهن الضعف وهو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق والتقدير تهن وهناً على وهن، والفصال الفطم وترك الإرضاع، ومعنى كون الفصال في عامين تحققه بتحقق العامين فيؤول إلى كون الإرضاع عامين، وذا ضمَّ إلى قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[1]، بقي لأقلّ الحمل ستة أشهر.

---

(١) الأحقاف: ١٥.

وقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ تفسير لقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ إلخ، في أول الآية أي كانت وصيتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، وقوله: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ إنذار وتأكيد للأمر بالشكر.

والقول في الالتفات الواقع في الآية في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلخ، من سياق التكلم مع الغير إلى سياق التكلم وحده كالقول في الالتفات في قوله السابق: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ إلى آخر الآية. أي إن ألحّا عليك بالمجاهدة أن تجعل ما ليس لك علم به أو بحقيقته شريكاً لي فلا تطعهما ولا تشرك بي، والمراد بكون الشريك المفروض لا علم به كونه معدوماً مجهولاً مطلقاً لا يتعلق به علم فيؤول المعنى: لا تشرك بي ما ليس بشيء، هذا محصّل ما ذكره في الكشاف وربما أيده قوله تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1].

وقيل: ﴿تُشْرِكَ﴾ بمعنى تكفر و ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، والمعنى: وإن جاهداك أن تكفر بي كفراً لا حجة لك به فلا تطعهما ويؤيده تكرار نفي السلطان على الشريك في كلامه تعالى كقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ الجملتان كالتلخيص والتوضيح لما تقدم في الآيتين من الوصية بهما والنهي عن إطاعتهما إن جاهدا على الشرك بالله.

يقول سبحانه: يجب على الإنسان أن يصاحبهما في الأمور الدنيوية غير الدين الذي هو سبيل الله صحاباً معروفاً ومعاشرة متعارفة غير منكرة من رعاية حالهما بالرفق واللين من غير جفاء وخشونة وتحمل المشاق التي

---

(١) يونس: ١٨.

(٢) يوسف: ٤٠.

تلحقه من جهتهما فليست الدنيا إلا أياماً معدودة متصرمة، وأما الدين فإن كانا ممن أناب إلى الله فلتتبع سبيلهما وإلا فسبيل غيرهما ممن أناب إلى الله.

ومن هنا يظهر أن في قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ إيجازاً لطيفاً فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتبع سبيلهما وإلا فلا يطاعا ولتتبع سبيل غيرهما ممن أناب إلى الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي هذا الذي ذكر، تكليفكم في الدنيا ثم ترجعون إلى يوم القيامة فأُظهر لكم حقيقة أعمالكم التي عملتموها في الدنيا فأقضي بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

وبما مرَّ يظهر أن قوله: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ يفيد أولاً قصر المصاحبة بالمعروف في الأمور الدنيوية دون الدينية، وثانياً: تهوين أمر الصحبة وأنها ليست إلا في أيام قلائل فلا كثير ضير في تحمل مشاق خدمتهما، وثالثاً المقابلة ليوم الرجوع إلى الله المشار إليه بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ إلخ، ذكروا أن الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ للخصلة من الخير والشر لدلالة السياق على ذلك وهو أيضاً اسم كان و ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ خبره، والمراد بكونها في صخرة اختفاؤها بالاستقرار في جوف الصخرة الصماء أو في السماوات أو في الأرض، والمراد بالإتيان بها إحضارها للحساب والجزاء.

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعاً إلى التوحيد ونفي الشريك وما في هذه الآية فصل ثان في المعاد وفيه حساب الأعمال، والمعنى: يا بني إن تكن الخصلة التي عملت من خير أو شر أخف الأشياء وأدقها كمثقال حبة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرة في جوف صخرة أو في أي مكان من السماوات والأرض يأت بها الله للحساب والجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه في أعماق الأشياء ويصل إلى كل خفي خبير يعلم كنه الموجودات.

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ الآية وما بعدها من كلامه راجع إلى نبذة من الأعمال والأخلاق الفاضلة.

فمن الأعمال الصلاة التي هي عمود الدين ويتلوها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ الإشارة إلى الصبر والإشارة البعيدة للتعظيم والترفيع وقول بعضهم: إن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر ليس في محله لتكرر عدّ الصبر من عزم الأمور في كلامه تعالى كقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[2].

والعزم ـ على ما ذكره الراغب ـ عقد القلب على إمضاء الأمر وكون الصبر ـ وهو حبس النفس في الأمر ـ من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبي ما لم ينحل وينفصم ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه فالصبر لازم الجد في العقد والمحافظة عليه وهو من قدرة النفس وشهامتها.

وقول بعضهم: إن المعنى أن ذلك من عزيمة الله وإيجابه في الأمور بعيد وكذا قول بعضهم: إن العزم هو الجزم وهو لغة هذيل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨﴾ قال الراغب: الصعر ميل في العنق والتصعير إمالته عن النظر كبراً قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وقال: المرح شدة الفرح والتوسع فيه انتهى.

فالمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تكبراً ولا تمش في الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء ـ وهو التكبر بتخيل الفضيلة ـ ويكثر من الفخر. وقال بعضهم إن معنى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تلو عنقك لهم تذللاً عند الحاجة وفيه أنه لا يلائمه ذيل الآية.

---

(١) الشورى: ٤٣.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ القصد في الشيء الاعتدال فيه والغض ـ على ما ذكره الراغب ـ النقصان من الطرف والصوت فغض الصوت النقص والقصر فيه.

والمعنى: وخذ بالاعتدال في مشيك وبالنقص والقصر في صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها في رفعه.

٢ ـ مواعظه عليه السلام في الروايات:

في الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن من الكبائر عقوق الوالدين واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وقد روي: أكبر الكبائر الشرك بالله.

وفي الفقيه في الحقوق المروية عن سيد العابدين عليه السلام: حق الله الأكبر عليك أن تعبده ولا تشرك به شيئاً فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة.

قال: وأما حق أمك أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظلّك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحر والبرد لتكون لها فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك فإنك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة فيه فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله.

وفي الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: جارِ الناس بكل ولا تعرض عمن يكلمك استخفافاً به، وهذا المعنى قول ابن عباس وأبي عبد الله عليه السلام.

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني وابن عديّ وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن قول الله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قال: ليُّ الشدق.

وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وروي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: هي العطسة المرتفعة القبيحة والرجل يرفع صوته بالحديث رفعاً قبيحاً إلا أن يكون داعياً أو يقرأ القرآن.

أقول: وفي جميع هذه المعاني وخاصة في العقوق روايات كثيرة متظافرة.

٣ ـ قصة لقمان ونبذ من حكمه:

أ ـ لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلا في سورة لقمان ولم يذكر من قصصه إلا ما في قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وقد وردت في قصته وحكمه روايات كثيرة مختلفة ونحن نورد بعض ما كان منها أقرب إلى الاعتبار.

ففي الكافي عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ قال: الفهم والعقل.

وفي المجمع روى نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: حقاً أقول لم يكن لقمان نبيّاً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه ومنَّ عليه بالحكمة.

كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت: إن خيرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن عزم علي فسمعاً وطاعة فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني.

فقالت الملائكة بصوت لا يراهم: لم يا لقمان؟ قال: لأن الحكم أشدُّ المنازل وآكدها يغشاه الظلم من كل مكان إن وفى فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً ومن تخيّر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأُعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها ثم كان يؤازر داود بحكمته فقال له داود:

طوبى لك يا لقمان أُعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى.

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أتدرون ما كان لقمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: كان حبشياً.

ب ـ وفي تفسير القمي بإسناده عن حماد قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عزّ وجلّ، فقال: أما والله ما أُوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال.

ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله متورعاً في الله ساكتاً مستكيناً عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغن بالعبر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط مخافة الاثم ولم يغضب قط، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثير وقدم أكثرهم أفراطاً فما بكى على موت أحد منهم.

ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتى تحابّا، ولم يسمع قولاً قط من أحد استحسنه إلا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لغرتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك، ويعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه فبذلك أُوتي الحكمة ومنح العصمة.

وإن الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟ فقال لقمان: إن أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة لأنه إن فعل ذلك أعانني عليه وعلمني وعصمني وإن هو خيّرني قبلت العافية.

فقالت الملائكة: يا لقمان لم؟ قال: لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل وأكثر فتناً وبلاء يخذل ولا يعان ويغشاه الظلم من كل مكان

وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق فبالحري أن يسلم وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سرياً شريفاً، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما تزول هذه ولا تدرك تلك.

قال: فتعجب الملائكة من حكمته واستحسن الرحمان منطقه فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشّاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم وغطّاه بالحكمة غطاء فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويبثُّها فيها.

قال: فلما أُوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عزّ وجلّ الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله عز وجلّ الخلافة في الأرض وابتلي بها غير مرة كل ذلك يهوي في الخطأ يقيله الله ويغفر له، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه، وكان داود يقول له: طوبى لك يا لقمان أُوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة وأُعطي داود الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة.

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ قال: فوعظ لقمان ابنه باثار[1] حتى تفطّر وانشق.

وكان فيما وعظه به يا حماد أن قال: يا بنيّ إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدارٌ أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك، وخذ من الدنيا بلاغاً ولا ترفضها فتكون عيالاً على الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضر بآخرتك، وصم صوماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام.

يا بني: إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك

---

(١) باثار اسم ابنه والتفطر والانشقاق كناية عن كمال التأثر.

فيها الإيمان واجعل شراعها التوكل، واجعل زادك فيها تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك.

يا بني: إن تأدبت صغيراً انتفعت به كبيراً ومن عنى بالأدب اهتم به، ومن اهتم به تكلف علمه ومن تكلف علمه اشتد له طلبه ومن اشتد له طلبه أدرك منفعته فاتخذه عادة فإنك تخلف في سلفك وينتفع به من خلفك ويرتجيك فيه راغب ويخشى صولتك راهب، وإياك والكسل عنه بالطلب لغيره فإن غُلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة وإذا فاتك طلب العلم في مظانه فقد غلبت على الآخرة واجعل في أيامك ولياليك وساعاتك نصيباً في طلب العلم فإنك لن تجد له تضييعاً أشد من تركه ولا تمارينّ فيه لجوجاً ولا تجادلنّ فقيهاً ولا تعادين سلطاناً، ولا تماشين ظلوماً ولا تصادقنه ولا تؤاخين فاسقاً ولا تصاحبن متّهماً واخزن علمك كما تخزن ورقك.

يا بنيّ: خف الله عزّ وجلّ خوفاً لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك وارج الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك.

فقال له ابنه: يا أبت كيف أُطيق هذا وإنما لي قلب واحد؟ فقال له لقمان: يا بني: لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عزّ وجلّ ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض.

فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً ومن أطاع الله خافه، ومن خافه فقد أحبه، ومن أحبه فقد اتّبع أمره ومن اتبع أمره استوجب جنته ومرضاته، ومن لم يتّبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله.

يا بني: لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها إلا أنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين.

وفي قرب الأسناد: هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قيل للقمان: ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما قد كفيته ولا أضيع ما وليته.

وفي البحار عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال: يا بنيّ: إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت، وقال: قال لقمان لابنه: يا بنيّ لا تقترب فيكون أبعد لك ولا تبعد فتهان، كل دابة تحب مثلها وابن آدم[1] لا يحب مثله. لا تنشر[2] بزّك إلا عند باغيه، وكما ليس بين الكبش والذئب خلّة كذلك ليس بين البارّ والفاجر خلة، من يقترب من الزفت تعلّق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طرفه، من يحب المراء يشتم، ومن يدخل مدخل السوء يتهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال: يا بني: صاحب مائة ولا تعاد واحداً، يا بني إنما هو خلاقك وخلقك فخلاقك دينك وخلقك بينك وبين الناس فلا تبغضن إليهم وتعلّم محاسن الأخلاق.

يا بني كن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار. يا بني أدّ الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أميناً فإن الله لا يحب الخائنين. يا بني لا تُرِ الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر.

وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان فيما وعظ به لقمان لابنه يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له، وإنما أنت عبد مستأجر قد أُمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان

---

(١) أي أن ابن آدم لا يحب أن يكافيه غيره في مزية من المزايا.

(٢) أي لا تظهر متاعك إلا عند طالبه.

حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر اخربها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارتها.

واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجلّ عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، وما لك مما اكتسبته وفيما أنفقته، فتأهب لذلك وأعدّ له جواباً ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاؤه وكثيرها لا يؤمن بلاؤه فخذ حذرك، وجدَّ في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرّض لمعروف ربك، وجدِّد التوبة في قلبك، واكمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد.

وفي البحار عن القصص بإسناده عن حماد عن الصادق عليه السلام قال: قال لقمان: يا بني إياك والضجر وسوء الخلق وقلة الصبر فلا يستقيم على هذه الخصال صاحب وألزم نفسك التؤدة[1] في أمورك وصبِّر على مؤنات الإخوان نفسك، وحسّن مع جميع الناس خلقك.

يا بني إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضل به على إخوانك فلا يعدمنك حسن الخلق وبسط البشر فإن من أحسن خلقه أحبه الأخيار وجانبه الفجار، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك فإن أردت أن تجمع عزّ الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس فإنما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا بقطع طمعهم.

أقول: والأخبار في مواعظه كثيرة اكتفينا منها بما أوردناه إيثاراً للاختصار.

(١) التؤدة ـ بضم التاء كهمزة ـ السكون والرزانة.

قصة أصحاب الرس

ذكر أصحاب الرس في الروايات:

في العيون بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن أمير المؤمنين عليهما السلام حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الرس، ملخصه أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها شاه درخت كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها: روشن آب وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له الرس يسمّين بأسماء: أبان، آذر، دي، بهمن، اسفندار، فروردين، أردي بهشت خرداد، مرداد، تير، مهر، شهريور، ومنها اشتق العجم أسماء شهورهم.

وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبة. أجروا عليها نهراً من العين التي عند الصنوبرة، وحرَّموا شرب مائها على أنفسهم وأنعامهم ومن شرب منه قتلوه ويقولون: إنه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها.

وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوماً في كل قرية عيداً يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية يقرّبون إليها القرابين ويذبحون الذبائح ثم يحرقونها في نار أضرموها فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها وسطوعه في السماء ويبكون ويتضرعون والشيطان يكلمهم من الشجرة.

وهذا دأبهم في القرى حتى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى التي كان يسكنها ملكهم واسمها إسفندار اجتمع إليها أهل القرى جميعاً وعيّدوا اثني عشر يوماً، وجاءوا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين والعبادات للشجرة وكلمهم إبليس وهو يعدهم ويمنيهم أكثر مما كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر.

ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة بعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل من ولد يهودا فدعاهم إلى عبادة الله وترك الشرك برهة فلم يؤمنوا فدعا على الشجرة فيبست فلما رأوا ذلك ساءهم فقال بعضهم: إن هذا الرجل سحر آلهتنا، وقال آخرون: إن آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه وشأنه من غير أن نغضب عليه لآلهتنا.

فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها وشدوا رأسها فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم.

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام: أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيّين وأطفأوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين.

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وهشام وحفص عن أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهن عن السحق فقال: حدها حد الزاني فقالت المرأة: ما ذكره الله عزّ وجلّ في القرآن، فقال: بلى، فقالت: وأين هو؟ قال: هنّ الرس.

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي وابن عساكر عن جعفر بن محمد بن علي أن امرأتين سألتاه: هل تجد غشيان المرأة المرأة محرّماً في كتاب الله؟ قال: نعم هنّ اللواتي كن على عهد تبّع، وهن صواحب الرس، وكل نهر وبئر رسّ.

قال: يقطع لهم جلباب من نار، ودرع من نار، ونطاق من نار، وتاج من نار، وخفّان من نار، ومن فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف منتن من نار. قال جعفر: علّموا هذا نساءكم.

أقول: وروى القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام ما في معناه.

وفي تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ يعني «كسّرنا تكسيراً» قال: هي لفظة بالنبطية.

في ذكر أصحاب الأخدود

ذكر أصحاب الأخدود في الروايات:

في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝﴾ قال: كان سببه أن الذي هيَّج الحبشة على غزوة اليمن ذو نواس وهو آخر من ملك من حمير تهوَّد واجتمعت معه حمير على اليهودية وسمَّى نفسه يوسف وأقام على ذلك حيناً من الدهر.

ثم أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية وكانوا على دين عيسى وحكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبد الله بن بريامن فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها فسار حتى قدم نجران فجمع من كان بها على دين النصرانية ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها فأبوا عليه فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كله فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل.

فاتخذ لهم أخدوداً وجمع فيه الحطب وأشعل فيه النار فمنهم من أحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف ومثل بهم كل مثلة فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين ألفاً وأفلت منهم رجل يدعى دوش ذو ثعلبان على فرس له ركضة، واتبعوه حتى أعجزهم في الرمل، ورجع ذو نواس إلى صنيعه في جنوده فقال الله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وفي المجمع وروى سعيد بن جبير قال: لما انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطّاب: ما هم يهود ولا نصارى ولا لهم كتاب وكانوا مجوساً فقال علي بن أبي طالب: بلى قد كان لهم كتاب رفع.

وذلك أن ملكاً لهم سكر فوقع على ابنته ـ أو قال: على أخته ـ فلما أفاق قال لها: كيف المخرج مما وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك وتخبرهم أنك ترى نكاح البنات وتأمرهم أن يحلّوه فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه فخدّ لهم اخدوداً في الأرض، وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمن أبى قبول ذلك قذفه في النار، ومن أجاب خلي سبيله.

أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور عن عبد بن حميد عنه عليه السلام.

وعن تفسير العيّاشي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: أرسل علي عليه السلام إلى أسقف نجران يسأله عن أصحاب الأخدود بشيء فقال عليه السلام: ليس كما ذكرت ولكن سأخبرك عنهم:

إن الله بعث رجلاً حبشياً نبياً وهم حبشية فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فأسروه وأسروا أصحابه ثم بنوا له حيراً ثم ملأوه ناراً ثم جمعوا الناس فقالوا: من كان على ديننا وأمرنا فليعتزل، ومن كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار فجعل أصحابه يتهافتون في النار فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر فلما هجمت هابت ورقّت على ابنها فنادى الصبي: لا تهابي وارميني ونفسك في النار فإن هذا والله في الله قليل، فرمت بنفسها في النار وصبيها، وكان ممن تكلم في المهد.

أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن مردويه عن عبد الله ابن نجي عنه عليه السلام، وروي أيضاً عن ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجي عنه عليه السلام قال: كان نبيُّ أصحاب الأخدود حبشياً.

وروي أيضاً عن ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق الحسن عنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قال: هم الحبشة.

ولا يبعد أن يستفاد أن حديث أصحاب الأخدود وقائع متعددة وقعت بالحبشة واليمن والعجم والإشارة في الآية إلى جميعها وهناك روايات تقص القصة مع السكوت عن محل وقوعها.

قصة عزير عليه السلام

١ ـ قصة عزير عليه السلام في القرآن:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

التدبر في الآية يعطي أن الرجل كان من صالحي عباد الله، عالماً بمقام ربه، مراقباً لأمره، بل نبياً مكلماً فإن ظاهر قوله: أعلم أن الله، أنه بعد تبيّن الأمر له رجع إلى ما لم يزل يعلمه من قدرة الله المطلقة، وظاهر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾، أنه كان مأنوساً بالوحي والتكليم، وأن هذا لم يكن أول وحي يوحى إليه وإلاّ كان حق الكلام أن يقال: فلما بعثه قال «إلخ» أو ما يشبهه كقوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[1]، وقوله تعالى فيه أيضاً: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾[2].

وكيف كان فقد كان عليه السلام خرج من داره قاصداً مكاناً بعيداً عن قريته التي كان بها، والدليل عليه خروجه مع حمار يركبه، وحمله طعاماً وشراباً يتغذى بهما، فلما سار إلى ما كان يقصده مر بالقرية التي ذكر الله تعالى أنها كانت خاوية على عروشها، ولم يكن قاصداً نفس القرية، وإنما مرّ بها مروراً ثم وقف معتبراً بما يشاهده من أمر القرية الخربة التي كان قد أُبيد أهلها وشملتهم نازلة الموت وعظامهم الرميمة بمرئى ومنظر منه عليه السلام، فإنه يشير إلى الموتى بقوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾، ولو كان مراده بذلك عمران نفس القرية بعد خرابها والإشارة إلى نفس القرية لكان حق الكلام أن يقال:

---

(١) طه: ١٣.

(٢) القصص: ٣٠.

أنى يعمر هذه الله. على أن القرية الخربة ليس من المترقب عمرانها بعد خرابها، ولا أن عمرانها بعد الخراب مما يستعظم عادة، ولو كانت الأموات المشار إليهم مقبورين وقد اعتبر بمقابرهم لكان من اللازم ذكره والصفح عن ذكر نفس القرية على ما يليق بأبلغ الكلام.

ثم إنه تعمق في الاعتبار فهاله ما شاهده منها فاستعظم طول مدة مكثها مع ما يصاحبه من تحولها من حال إلى حال، وتطورها من صورة إلى صورة بحيث يصير الأصل نسياً منسياً، وعند ذلك قال: أنى يحيي هذه الله، وقد كان هذا الكلام ينحل إلى جهتين: «إحداهما»: استعظام طول المدة والإحياء مع ذلك، «والثانية»: استعظام رجوع الأجزاء إلى صورتها الأولى الفانية بعد عروض هذه التغيرات غير المحصورة، فبيّن الله له الأمر من الجهتين جميعاً: أما من الجهة الأولى فبإماتته ثم إحيائه وسؤاله وأما من الجهة الثانية فبإحياء العظام بمنظر ومرأى منه.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وقد كان الإماتة والإحياء في وقتين مختلفين من النهار، قال كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم نظراً إلى اختلاف الوقتين، وقد كان موته في الطرف المقدم من النهار وبعثه في الطرف المؤخر منه ولو كان بالعكس من ذلك لقال: لبثت يوماً من غير ترديد، فرد الله سبحانه عليه وقال: بل لبثت مائة عام، فرأى من نفسه أنه شاهد مائة سنة كيوم أو بعض يوم، فكان فيه جواب ما استعظمه من طول المكث.

ثم استشهد تعالى على قوله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ بقوله: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾! وذلك: أن قوله: لبثت يوماً أو بعض يوم يدل على أنه لم يحس بشيء من طول المدة وقصرها، وإنما استدل على ما ذكره بما شاهد من حال النهار من شمس أو ظل ونحوهما، فلما أُجيب بقوله تعالى: بل لبثت مائة عام كان الجواب في مظنة أن يرتاب فيه من جهة ما كان يشاهد نفسه ولم يتغير شيء من هيئة بدنه، والإنسان إذا مات ومضى عليه مائة سنة على طولها تغير لا محالة بدنه عمّا هو عليه من النضارة والطراوة وكان تراباً وعظاماً رميمة، فدفع الله تعالى هذا الذي يمكن أن يخطر بباله بأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه لم يتغير شيء

منهما عمّا كان عليه وأن ينظر إلى الحمار وقد صار عظاماً رميمة، فحال الحمار يدل على طول مدة المكث وحال الطعام والشراب يدل على إمكان أن يبقى طول هذه المدة على حال واحد من غير أن يتغير شيء من هيئته عمّا هي عليه.

ومن هنا يظهر أن الحمار أيضاً قد أُميت وكان رميماً وكان السكوت عن ذكر إماتته معه لما عليه القرآن من الأدب البارع.

وبالجملة تمَّ عند ذلك البيان الإلّهي: أن استعظامه طول المدة قد كان في غير محله حيث أخذ الله منه الاعتراف بأن مائة سنة ـ مدة لبثه ـ كيوم أو بعض يوم كما يأخذ اعتراف أهل الجمع يوم القيامة بمثل ما اعترف به، فبيّن له أن تخلل الزمان بين الإماتة والإحياء بالطول والقصر لا يؤثر في قدرته الحاكمة على كل شيء، فليست قدرة مادية زمانية حتى يتخلف حالها بعروض تغيرات أقل أو أزيد على المحل، فيكون إحياء الموتى القديمة أصعب عليه من إحياء الموتى الجديدة، بل البعيد عنده كالقريب من غير فرق كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، عطف الغاية يدل على أن هناك غيرها من الغايات، والمعنى أنا فعلنا بك ما فعلنا لنبين لك كذا وكذا ولنجعلك آية للناس فبين أن الغرض الإلّهي لم يكن في ذلك منحصراً في بيان الأمر له نفسه بل هناك غاية أُخرى وهي جعله آية للناس، فالغرض من قوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ «إلخ» بيان الأمر له فقط، ومن إماتته وإحيائه بيان الأمر له وجعله آية للناس، ولذلك قدم قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ «إلخ» على قوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ «إلخ».

ومما بينا يظهر وجه تكرار قوله: انظر، ثلاث مرات في الآية، فلكل واحد من الموارد الثلاث غرض خاص به لا يشاركه فيه غيره.

---

(١) المعارج: ٧.
(٢) النحل: ٧٧.

وكان في إماتته وإحيائه وبيان ذلك له بيان ما يجده الميت من نفسه إذا أحياه الله ليوم البعث كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم بيّن الله له الجهة الثانية التي يشتمل عليها قوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾ وهو أنه كيف تعود الأجزاء إلى صورتها بعد كل هذه التغيرات والتحولات الطارئة عليها واستلفت نظره إلى العظام فقال: وانظر إلى العظام كيف ننشزها والإنشاز الإنماء، وظاهر الآية أن المراد بالعظام عظام الحمار إذ لو كانت عظام أهل القرية لم تكن الآية منحصرة فيه كما هو ظاهر قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ بل شاركه فيه الموتى الذين أحياهم الله تعالى!

ومن الغريب ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالعظام العظام التي في الأبدان الحية فإنها في نمائها واكتسائها باللحم من آيات البعث، فإن الذي أعطاها الرشد والنماء بالحياة لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير، وقد احتج الله على البعث بمثلها وهو الأرض الميتة التي يحييها الله بالإنبات، وهذا كما ترى تكلف من غير موجب.

وقد تبيّن من جميع ما مرّ أن جميع ما تشتمل عليه الآية من قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية جواب واحد غير مكرر لقوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، رجوع منه بعد التبيّن إلى علمه الذي كان معه قبل التبين، كأنه ﷺ لما خطر بباله الخاطر الذي ذكره بقوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾ أقنع نفسه بما عنده من العلم بالقدرة المطلقة ثم لما بين الله له الأمر بيان إشهاد وعيان رجع إلى نفسه وصدق ما اعتمد عليه من العلم، وقال لم تزل تنصح لي ولا تخونني في هدايتك وتقويمك وليس ما لا تزال نفسي تعتمد عليه من كون القدرة مطلقة جهلاً، بل علم يليق بالاعتماد عليه.

---

(١) الروم: ٥٦.

وهذا أمر كثير النظائر فكثيراً ما يكون للإنسان علم بشيء ثم يخطر بباله ويهجس في نفسه خاطر ينافيه، لا للشك وبطلان العلم، بل لأسباب وعوامل أخرى فيقنع نفسه حتى تنكشف الشبهة ثم يعود فيقول أعلم أن كذا كذا وليس كذا كذا فيقرر بذلك علمه ويطيب نفسه!.

وليس معنى الكلام: أنه لما تبيّن له الأمر حصل له العلم وقد كان شاكاً قبل ذلك فقال أعلم «إلخ» كما مرّت الإشارة إليه لأن الرجل كان نبياً مكلماً وساحة الأنبياء منزهة عن الجهل بالله وخاصة في مثل صفة القدرة التي هي من صفات الذات أولاً، ولأن حق الكلام حينئذٍ أن يقال: علمت أو ما يؤدي معناه ثانياً، ولأن حصول العلم بتعلق القدرة بإحياء الموتى لا يوجب حصول العلم بتعلقها بكل شيء وقد قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير، نعم ربما يحصل الحدس بذلك في بعض النفوس كمن يستعظم أمر الإحياء في القدرة فإذا شاهد هاله ما شاهده وذهلت نفسه عن سائر الأمور فحكم بأن الذي يحيي الموتى يقدر على كل ما يريد أو أريد منه، لكنه اعتقاد حدسي معلول الروع والاستعظام النفسانيين المذكورين، يزول بزوالهما ولا يوجد لمن لم يشاهد ذلك، وعلى أي حال لا يستحق التعويل والاعتماد عليه، وحاشا أن يعد الكلام الإلٰهي مثل هذا الاعتقاد والقول نتيجة حسنة ممدوحة لبيان إلٰهي كما هو ظاهر قوله تعالى بعد سرد القصة: فلما تبيّن له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير، على أنه خطأ في القول لا يليق بساحة الأنبياء ثالثاً.

٢ ـ تكذيب ادعاء اليهود في القرآن:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية المضاهاة المشاكلة. والإفك على ما ذكره الراغب كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه فمعنى ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون في اعتقادهم عن الحق إلى الباطل.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ عزير هذا هو الذي يسميه اليهود عزرا غيرت اللفظة عند التعريب كما غير لفظ «يسوع» فصار بالتعريب «عيسى» ولفظ «يوحنا» فصار كما قيل «يَحْيَى».

وعزرا هذا هو الذي جدد دين اليهود وجمع أسفار التوراة وكتبها بعد ما افتقدت في غائلة بخت نصر ملك بابل الذي فتح بلادهم وخرب هيكلهم وأحرق كتبهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم والباقين من ضعفائهم وسيرهم معه إلى بابل فبقوا هنالك ما يقرب من قرن ثم لما فتح «كورش» ملك إيران بابل شفع لهم عنده عزرا وكان ذا وجه عنده فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم وأن يكتب لهم التوراة ثانياً بعدما افتقدوا نسخها وكان ذلك في حدود سنة ٤٥٧ قبل المسيح على ما ذكروا فراجت بينهم ثانياً ما جمعه عزرا من التوراة وإن كانوا افتقدوا أيضاً في زمن أنتيوكس صاحب سورية الذي فتح بلادهم حدود سنة ١٦١ ق. م وتتبع مساكنهم فأحرق ما وجده من نسخ التوراة وقتل من وجدت عنده أو أخذت عليه على ما في كتب التاريخ.

ولما نالهم من خدمته عظموا قدره واحترموا أمره وسموه ابن الله ولا ندري أكان دعاؤه بالبنوة المعنى الذي يسمي به النصارى المسيح ابن الله - والمراد أن فيه شيئاً من جوهر الربوبية أو هو مشتق منه أو هو هو - أو إنها تسمية تشريفية كما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؟ وإن كان ظاهر سياق الآية التالية: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الآية يؤيد الثاني على ما سيأتي.

وقد ذكر بعض المفسرين: أن هذا القول منهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ كلمة تكلم بها بعض اليهود ممن في عصره ﷺ لا جميع اليهود فنسب إلى الجميع كما أن قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وكذا قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مما قاله بعض يهود المدينة ممن عاصر النبي ﷺ فنسب في كلامه تعالى إلى جميعهم لأن البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر، والجميع ذو رأي متوافق الأجزاء ورؤية متشابهة التأثير.

وقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ تنبيء الآية عن أن القول بالبنوّة منهم مضاهاة ومشاكلة لقول من تقدمهم من الأمم الكافرة وهم الوثنيون عبدة الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله، ومن هي إلهة أم إله أو زوجة إله، وكذا القول بالثالوث مما كان دائراً بين الوثنيين من الهند والصين ومصر القديم وغيرهم.

وتقدم أن تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

وقد اعتنى جمع[1] من محققي هذا العصر بتطبيق ما تضمنته كتب القوم أعني العهدين: العتيق والجديد على ما حصل من مذاهب البوذيين والبرهمانيين فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل فلم يبقَ ذلك ريباً لأي باحث في أصالة قوله تعالى: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ الآية في هذا الباب.

ثم دعا عليهم بقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وختم به الآية.

(١) Budhist and Christian Gospels Edmuds A. J. 2V. Philadelphia 1908.

في قصص اليسع وذي الكفل عليهما السلام

ذكر سبحانه اسمهما في كلامه وعدهما من الأنبياء وأثنى عليهما وعدهما من الأخيار[1] وعد ذا الكفل من الصابرين[2] ولهما ذكر في الأخبار.

ففي البحار عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام فيما احتج به على جاثليق النصارى أن قال عليه السلام إن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص فلم تتخذه أُمته رباً، الخبر.

وعن قصص الأنبياء: الصدوق عن الدقاق عن الأسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر الثاني أسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟ وهل كان من المرسلين؟.

فكتب عليه السلام بعث الله جل ذكره مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي. مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وإن ذا الكفل منهم، وكان بعد سليمان بن داود، وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود، ولم يغضب إلا لله عزّ وجلّ وكان اسمه عويديا وهو الذي ذكره الله جلت عظمته في كتابه حيث قال: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

أقول: وهناك روايات متفرقة أُخر في قصصهما عليهما السلام تركنا إيرادها لضعفها وعدم الاعتماد عليها.

❀ ❀ ❀

---

(١) ص: ٤٨.

(٢) الأنبياء: ٨٥.

الفهرس

المقدمة ٥

قصص آدم وحواء ٧

قصة آدم عليه السلام ٧

آدم في روايات أهل البيت ١٣

الأمر الإلهي في قصة آدم ١٧

قصة السجود لآدم في ضوء الروايات ١٩

آدم ونسيان العهد الإلهي ٢٢

جنة آدم في ضوء الروايات ٣٦

قصة آدم في التوراة والقرآن ٤٩

قصة إدريس عليه السلام في القرآن ٥٢

الروايات الواردة في قصته عليه السلام ٥٢

قصة نوح عليه السلام ٦٠

بعثه وإرساله ٦٠

دينه وشريعته عليه السلام .. ٦١

اجتهاده عليه السلام في دعوته ٦١

لبثه في قومه ٦٢

صنعه عليه السلام الفلك ٦٢

نزول العذاب ومجيء الطوفان ٦٢

قضاء الأمر ونزوله ومن معه إلى الأرض ٦٣

قصة ابن نوح الغريق ٦٣

هل الطوفان كان عاماً لجميع الأرض ٧٧